

التصوف في مصر
أبان العصر العثماني

تأليف

الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر: مكتبة الآداب بالجماهير ٤٢٧٧٧

893,7991.
T1983

579576

فهرس الكتاب *

صفحة

١٦ - ٦ مقدمة الكتاب

٣٢ - ١٧ مقدمة تاريخية عن : العصر العثماني في مصر

عصر السلاطين ١٧ - تطلع العثمانيين لامتلاك مصر ١٨ - مصر في عهدهم :
حالتها السياسية ١٩ - حالتها الاقتصادية ٢٠ - حالتها الاجتماعية ٢٢ -
حالتها العلمية ٢٣ - تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة
والعلم) ٢٩

١٠٣ - ٣٣ الكتاب الأول : في الطريق

٣٥ تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده

الفصل الأول

٥١ - ٣٦ أظهر معالم التصوف في مصر قبل العصر العثماني

التصوف قبل العصر العثماني ٣٦ - أنواع المعبود في مصر ٣٨ - الحياة في
رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر ٣٩ - نشأة التصوف في مصر
وتطوره حتى مطلع العصر العثماني ٤٣ - بعض مظاهر نفوذهم قبيل العصر
العثماني ٤٧

الفصل الثاني

٧٠ - ٥٢ أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

تمهيد في انصال العصرين (المملوك والعثماني) ٥٢ - حقيقة التصوف في
العصر العثماني ٥٤ - احصائية بأسم الزوايا ٥٧ - العبيادة في رحاب
الزوايا ٦٠ - الذكر ٦١ - سندهم في ذكر الله ٦٢ - قيمة الذكر
في عرفهم ٦٢ - طريقة الذكر ٦٣ - آداب الذكر ٦٦ - ثمرات
الذكر ٦٧ - الخلوة ٦٧ - التزامات الخلوة ٦٨ - ثمرات الخلوة ٦٩ -
أركان الطريق ٦٩

٨٩ - ٧١ الفصل الثالث : في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية ٧١ - حال الطرق في وقتنا الحاضر ٧٣ - احصائية
بالطرق أيام العثمانيين ٧٥ - مميزات الطرق ٧٩ - ثلاثى الفروق بين
الطوائف ٨٧

579576

DEC 9 1961

218

صحيفة

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

تمهيد ٩٠ — رأى جرجى زيدان في نشأتها ومناقشة مزاعمه ٩١ — رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ٩٤ — نشأة هذا القرب في مصر قبل العصر العثماني ٩٧ — تلاشى القرب في العصر العثماني ٩١

الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق أحياء وأمواتا ١٠٥—١٩٩
(تمهيد في ربط الكتاب الثاني بما قبله وما بعده) ١٧٠—

الفصل الأول

نفوذ شيوخ الطريق — ١ — أحياء ١٠٨—١٢٠
بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان ١٠٨ — تحررهم من عرف البلاد ودينها ١٠٩ — مفارقات العصر ١١٤ تحررهم من نظام الدولة وقوانينها ١١٧ —
تحررهم على العرف السائد عند أرباب الطريق ١٢١
بعض مظاهر نفوذهم ١٢٤—١٤٠

دنيا الصوفية الروحية وحكامها ١٢٤ — تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق نفوذ ١٢٥ النطابانية ونفوذ أهلها في مصر ١٢٨ — آفاق نفوذهم في مناطقهم ١٣٠ — بعض آيات نفوذهم عند المريدين ١٣٤ — وعند الحكام ١٣٥
٢ — نفوذهم أمواتاً ١٤١—١٤٩

جلال الموت ١٤١ — الأميون من مدعى الولاية ١٤١ — العلماء من مدعى الولاية ١٤٣ — نظارتهم إلى من أخذ العهد على موتى الأولياء ١٤٤ — الطوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء ١٤٦
أسباب انتشار التصوف ١٥٠—١٦٢

صلاحية مصر لانتشاره ١٥٠ — الترف في معيشة أرباب الطريق ١٥٤
سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية ١٥٥ — حالة مصر تحت الحكم العثماني ١٥٨ — حب الأتراك للدروشة ١٦٢

الفصل الثاني

الإنكار على أرباب الطريق ١٦٣—١٩٩
تمهيد ١٦٣ — حملات الناس ١٦٦ — موقف المنكرين من الجنود

صحيفة

والحكام ١٦٨ — الحقد في صدور الفقهاء ١٦٩ — بعض مظاهر المقاومة العملية ١٦٩ — التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق ١٧١ — بعض مظاهر الحقد النظرية ١٧٥ — تصوف الفقهاء الذين انتصروا لمشايخ الطرق ١٧٩ — بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف ١٨٠ — موقف المتصوفة من الفقهاء ١٨٢ — استمرار التراع إلى اليوم ١٨٤ — حملات أرباب الطريق (على اخوانهم في الطريق) ١٨٤ — بعض مظاهر المقاومة الفعلية ١٨٦ — بعض مظاهر المقاومة النظرية ١٨٨

٣ — أسباب الانكار على أرباب الطريق ١٩٠ — ١٩٩

أسباب الانكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق ١٩٠ — أسباب النزاع عند الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر ١٩١ — اباحة التأويل لأهل الله ١٩٢ — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله ١٩٥ — التنافس من أجل الدنيا ١٩٩

فصل ختامى عن :

أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ٢٠٠ — ٢٢٨

تمهيد ٢٠٠ — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين ٢٢٠ — المجاورون ٢٠٣ — الأنبياء والمحبون ٢٠٥ — أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر العثماني وما بعده ٢٠٨ — موقف الاسلام من هذا التوجيه ٢١٧ — الاسلام والحياة العملية عند أهله ٢١٧ — الاسلام والحياة العقلية عند أهله ٢٢٠ — الاسلام والحياة العملية عند أهله ٢٢٤

مقدمة الكتاب

يقولون إن غاية التفكير الاهتداء إلى الحقيقة ، وأن الجهل بالحقائق يؤدي بالإنسان إلى متابعة النظر ومواصلة التفكير أملاً في الاهتداء إلى حقيقة الحقيقة ، وأن ذلك ينتهي بصاحبه إلى أن ينقض في يومه ما اهتدى إليه في أمسه ، ويشور في غده على ما استقر عليه في يومه ، وبذلك جعلوا التفكير عملاً يقوم به الإنسان لتحقيق غاية وضعها لنفسه ووطن العزم على بلوغها ، وقد يكون هذا صحيحاً في بعض حالاته ، ولكن الأصح كذلك أن يقال إننا نفكر منساقين بطبيعتنا إلى التفكير ، وبذلك يكون التفكير غاية في نفسه — إن صح هذا التعبير — فلسنا نفكر لأننا نريد أن نفكر ، أو لأننا نريد الاهتداء بالتفكير إلى حقيقة مجهولة ، ولكننا نفكر — لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، كما نرى لأن الرؤية وظيفة طبيعية للنظر ، والإنسان لا يرى الأشياء ليكشف عن رؤيتها يوماً من الأيام ، ومتى كان سليم النظر دقيق الحس أثر العودة إلى رؤية الجميل منها وإطالة النظر إليه ، والاستمتاع به ، وهو لا يمل إدمان النظر إلى الشيء الجميل إلا إذا أصاب عينه كل أو أدرك حسه نقص ، فالفنان الذي أوتي دقة الحس يرى مناظر الطبيعة فيعجب بها ويستمتع بجمالها ، وكلما أطال النظر إليها ازداد شغفاً بها وحباً لها وإقبالاً عليها ، وقد يحس في لحظة من لحظاته أنه قد أخذ من الطبيعة زاده واستوفى حاجته ، فيفر منها ويهرب من النظر إليها ، ولكنه سرعان ما يطلب العودة إليها والاستمتاع بجمالها ، وكذلك حال التفكير عند الإنسان من بعض الوجوه ، هو وظيفة طبيعية للعقل ، ولهذا فنحن لا نفكر لكي نتوقف عن التفكير في الموضوع الذي فكرنا فيه وننصرف إلى غيره يوماً من الأيام ، ومتى كان العقل سليماً وموضوع التفكير ملائماً له ، أحس الإنسان بالحنين إلى إدمان التفكير فيه وإطالة النظر إليه ، وقد يشعر في

لحظة من لحظاته بأنه أخذ حاجته العقلية من موضوعه واستوفى منه زاده ،
 فيهرب منه إلى موضوع آخر وينصرف إليه تفكيره ، ولكنه سرعان ما يحس
 بالحنين إلى العودة للتفكير في موضوعه الأول ، فيبادر إليه ويتولاه بالنظر
 حتى يهتدى إلى نقض ما رضى به من قبل ، أو تدعيمه على أسس جديدة .
 ومن هنا انقضت حياة الكثيرين من المفكرين في تأييد فكرة أو شرح
 مذهب أو نقض رأى . . . وكثرت مؤلفاتهم يؤيد بعضها بعضاً أو ينقض
 آخرها ما جاء في أولها .. تلك طبيعة العقل البشرى في أداء وظيفته .

ومن هنا كان موقف الباحث من بحثه شبيهاً بموقف القاضي عبد الرحيم
 البيسانى للمعاد الكاتب الأصهبانى في اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال :
 « إنه وقع لى شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ، وهأنا أخبرك به ، وذلك أنى
 رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال فى غده :

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا
 لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل
 على استيلاء النقص على جملة البشر (١) .

ولعله ، فوق ذلك دليل على ما أسلفت الآن شرحه حين قلت إن العقل
 ينساق إلى التفكير بطبيعته ، وأن مواصلة النظر فى الموضوعات التى تلائمها تحلو
 له وتلذذ كثيراً ، وأن من شأن هذا أن يكشف لصاحبه عن آفاق كان يحفلها
 وينتهى به إلى الندم على ما كتب . . . !

على أنى وضعت هذا البحث منذ ثمانى سنوات ، وترددت من أجل هذا فى نشره
 طوال هذه الفترة ، ولكن الإنسان لا يفكر لنفسه ، أو هو لا يقنع إذا ارتاد
 مجهولاً وكشف غامضاً إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفر به واهتدى إليه ، ومن
 هنا كان حرصى على نشر هذا البحث بعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة على
 وضعه . . وقد حرصت عند نشره على الإبقاء على أسلوبه وروحه على قدر
 الاستطاعة ، وإن كنت قد اضطررت إلى حذف جملة من فصوله وردت

خلاصتها في كتابي عن « الشعرائي إمام التصوف في عصره » ، إذ كان الشعرائي روح العصر العثماني وعملاته عليها وتصوفاً ، فأثر في توجيه آرائه ، وتحديد تياراته وطبع العصر كله بطابعه ، وقد أثرت ألا أكرر هنا ما ذكرته في كتابي عنه ، وإن كان موضوع هذا الكتاب أعم وأشمل (١) .

قلت إن الباحث لا يفتأ يعيد النظر فيما يكتب ، ويتناوله بالتعديل والحذف والإضافة ، وأنه قد يندم على كل ما كتب .. وإذا صح هذا في كل بحث عقلي فهو أصح ما يكون في بحث مثل هذا البحث الذي يعرض لموضوع بكر لم تطرقه أقلام الباحثين من قبل ، لأن التصوف الإسلامي لم يخضع للبحث العقلي إلا منذ أمد قصير ، وتكاد عنايه المستشرقين والشرقيين به ، أن تكون مقصورة على مراحل الزاهرة ، حين تحول إلى نوع من الفلسف والنظر العقلي تجاوز بأهله مجرد العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وهي المظاهر الأولى للتصوف الإسلامي فيما يقول ابن خلدون ، وإذن فقد عني الباحثون بالتصوف حين أصبح التفلسف — لا الإيمان — طريقاً إلى الله ، وعندما انصرف أهله إلى مذاهب في المعرفة والوجود ونحوهما ، فلما عاد التصوف سيرته الأولى ، وأصبح في عصره المتأخر — كما كان في عصره الأول — عملياً لا نظرياً ، انصرف عنه أهل البحث وأهملوا دراسته .

والملاحظ أن التصوف في هذا الدور الأخير قد دخله الدجل وتحول من ظاهرة نفسية فردية ، إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس ، ومن هنا

(١) كان اصطوفية العصر العثماني نظرات وآراء في مختلف نواحي الحياة : العلمية والعقلية والسياسية والخلافة والعملية ، وقد كتبنا عن كل منها فصلاً مسهباً مزوداً بفيض من النصوص ثم لاحظنا أن خلاصة هذه الفصول قد وردت موجزة في كتابنا عن الشعرائي غذفنا من كتابنا عن التصوف وهذا إلى جانب فصول أخرى يلحظها قارئ السكتائين ، ومن هنا كان كتابنا عن الشعرائي ضرورياً لقارئ هذا الكتاب .

كان خطره في حياتهم وتأثيره في شتى مرافقها ، ويبدو هذا الدور في أكمل صورته وأوضحها ، في تصوف مصر أيام العثمانيين ، وهذا هو موضوع الكتاب الذي نحن الآن بصدده ، وقد كانت لفظة طيبة موفقة من أستاذنا محمد شفيق بك غربال أن يشير بدراسة هذا الموضوع ، في العصر المظلم الذي لم يدرس بعد ، وأن يتابع اهتمامه بخطوات البحث ويحرص إبانته على تزويدى بالقيم من ملاحظاته .

وقد شجعتنى على هذه الدراسة كثرة المصادر التي وضعت في هذا العصر ، والكثير منها ينطوى على مادة طيبة وهي خير زاد للباحث الذي يريد أن يرتاد آفاق هذا الموضوع البكر المظلم ويميل إلى الضرب في ميادينته والسير في مسالكه الوعرة ، وهذه المصادر — من المخطوطات خاصة — ما زالت بكر الم تعبت بها يد ولم تتجه إليها نظر ، وفي هذا ما يغرى بمتابعة التفكير ومواصلة النظر . وقد ظننت بعد دراستى لهذا الموضوع أنى وفقت في الاهتمام إلى كنوز كانت تنطوى عليها هذه الآفاق المجهولة التي كنت أرتادها ، والإنسان — كما قلت من قبل — لا يفتن إلا بأن يترك الأغيار فيما ظفربه واهتدى إليه ، ومن هنا كانت رغبتى في نشر هذا الكتاب ، وإن طال الأمد على تحقيق هذه الرغبة . ولشد ما رضيت عن هذا الموضوع بعد أن تكشف لي الكثير من آفائه المظلمة فقد عرفت « فجأة » — وعلى غير إنذار سابق ، أنه يساهم في تحقيق أمل كنت شديد الحنين إلى تحقيقه منذ زمن طويل ، وقد اتجهت هذه المفاجأة بالموضوع — وأنا في منتصف الطريق — اتجاها لم يطف بخاطرى من قبل ، وقبل البدء في بيان ذلك ، يحسن بي أن أبرر وقوع « المفاجآت » في البحث العلمى ، وضرورة الاغتياب بها متى وقعت :

يقتضى منهج البحث العلمى أن يبدأ الباحث موضوعه وهو على جهل به ، فان لم يتهاى له هذا الجهل وجب أن يصطنعه فيتجاهل موضوعه ، ويحاول أن ينسى كل ما يعرفه بشأنه ، فلا يضع في مستهل دراسته رأياً ويعمل طوال بحثه على تأييده أو نقضه ، فان ذلك من شأنه أن يلفت الباحث لكل ما يؤيد

وجهة نظره ، ويعميه عن كل ما ينقضها ، ويبعث في عقله الشك في أمرها ...
وقد كان هذا منهجى في بحث هذا الموضوع ... جعلت غاية البحث هي البحث
نفسه ، أو هي معرفة المجهول من آفاق الموضوع والقناعة بهذه المعرفة ، وذلك
متفق مع ما أسلفته في مستهل المقدمة حين قلت إنا نفكر لأن التفكير وظيفة
طبيعية للعقل ، وأن الذى يفكر لأنه يريد تأييد حقيقة أو نقضها إنما يتكلف
ما يفسد بحثه ويصطنع ما يشوه تفكيره ، ومضيت في بحثى على هذا الأساس ،
فإذا بالنور الذى انبثق في آفاق الموضوع من وراء هذه الدراسة المتواضعة
يهدىنى إلى اتجاهات لم تكن في خاطرى يوم بدأت الدراسة ، وكان أعظمها
خطرا هذا الاتجاه الذى وجه البحث إلى هذه الوجهة الجديدة التى تتناولها
الآن بشئ من الإيضاح :

حاول بعض علماء الاجتماع أن «يفلسفوا» التاريخ ، وأن يقدموا
للمؤرخين تفسيراً جديداً لظواهره قائماً على أحدث النظريات التى اهتدى
إليها المحدثون من علماء النفس وغيرهم ، وأثارت محاولاتهم ضجة كبيرة عند
قراةهم ، وهيات للنقاد منهم سبيل الهجوم على اتجاههم في تفسير التاريخ ،
ولكنها كانت محاولة متممة شائقة فوق أنها كانت خطوة لها خطرهما العظيم في
تطور التاريخ عند أهله .

وكنيت كلما طافت بخاطرى هذه المحاولة قلت إن مصر أحوج بلاد الأرض
إلى هذا النوع من التاريخ ، إن تاريخها إلى اليوم قائم في الجملة على تاريخ ملوكها
وحكامها ، أما شعبها فليس له حساب عند أكثر المؤرخين - حتى العدول
منهم - والمؤرخ الذى يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهمها
على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل مامر بأهلها من
حركات دينية وحضارة إسلامية ، فإن المصرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين
رجل شديد التدين ، وآثاره التى لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر تشهد بصحة
ما نقول ، وتحول المصريين من الوثنية إلى المسيحية ومن المسيحية إلى الإسلام

لا ينقض مانقول ، وليس هنا مجال الحديث عن أسبابه ، وإنما الذى يعنيننا الآن أن نقوله ، هو أن الأفكار التى تفشو عند مثل هذا الشعب متصله بالدين تتحول عنده إلى عقائد ، والعقيدة كما يقول المحدثون من علماء النفس — من شأنها أن تستبد بهوى أصحابها وتحملهم على جناحها وتوجههم فى تيارها ، ولهذا كانت كل محاولة يراد بها تفسير الحياة المصرية على غير فهم واضح لأثر الحركات الدينية فى نفوس المصريين ، إنما هى محاولة باطلة لا طائل تحتها ولا نفع من ورائها ...

ومن هنا كان اغتباطى الشديد بالمفاجأة التى عرضت لى أثناء بحثى لهذا الموضوع ، لأنها أوحى لى بأن البحث محاولة للمساهمة فى تحقيق الأمل الذى احتل خاطرى منذ زمان .. وهدتنى هذه المفاجأة إلى أن أتجه بالبحث اتجاها جديدا أحاول فيه أن أفسر الحياة المصرية — أو الكثير من ظواهرها — على ضوء التصوف ... ففعلت ذلك ... وأرجو أن أكون قد وفقت فيه . ولقد كان توفيقا من الله أن أختار التصوف وفى العصر العثمانى وحده ، فإن التصوف كان فى اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل أمره واستشرى دأؤه واستبد بعواطف المصريين ، وكان أكبر العوامل فى توجيه حياتهم فى هذا العهد وما بعده ، ولم يتبها لأهله هذا النفوذ الذى مكنتهم من السيطرة على الحياة المصرية إلا قبيل العصر العثمانى — على ما سنعرف بعد — فكان اختيار العصر كذلك توفيقا فوق التوفيق الذى عرفنا بعض مظاهره فيما سلف .

ولقد لاحظت أن التصوف وإن كان يقدم حلولا للكثير من العقدة فى ظواهر الحياة المصرية فإنه لا يقوى وحده على تفسير بعضها ، ولهذا فإن شباب الجامعة الذين يقومون بأعداد الرسائل العلمية لو تعاونوا على كشف الغامض فى الحركات الدينية التى مرت بالمصريين ، وحاولوا بيان ما كان لهذا من سلطان على نفوسهم ، وأثر فى توجيه حياتهم ، لاستطاع الباحث فى الحياة

المصرية أن يتخذ أبحاثهم نواة لبحث قيم « يفلسف » به التاريخ المصري ، مفسرا ظواهره تفسيراً جديداً لا يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى تنابح الدول التي تولت الحكم في مصر ، وإنما يدرس الملوك والحكام من خلال الشعب وما مر به من تيارات وشغل عواطفه من موجات ، ومن فعل ذلك فقد حقق الأمل الجميل الذي كنت شديد الحزن إلى تحقيقه حتى اعتبرت محاولة المساهمة فيه توفيقاً يبعث الرضا في نفسي ويشيع الاغتراب في كيانى .

وإنها لمحاولة شاقة حقاً ، ولعل أشق ما فيها أن سبل نقدها ميسرة لـكل قارئ ، واتجاهات الذهن في مثل هذه الموضوعات كثيرة متشعبة ، ولـكل منها ما يؤيده ويبرر وجوده ، ولا أظن أن وجهة اتجاه منها دليل على ضعف الاتجاه المباين له ، فقد تنصب على الموضوع الواحد وجهات نظر مختلفة أكثرها مقبول عقلاً دون أن يكون في ذلك تناقض ما . . . والعبرة بعلاج الموضوع ومنهج درسه وفهمه . . . وقد حاولت في كتابى أن أدرس التصوف في أرحب آفاقه مقيداً بالزمان والمكان اللذين يحملهما العنوان ، فدرست علاقة تعاليمه بالناس في مختلف طبقاتهم وشتى هياتهم ، أثرياء وفقراء ، حكاماً ومحكومين ، جهلة ومستنيرين ، وإن كنت قد أهملت التوسع في دراسة علاقته بالطوائف الأخرى من أقباط ويهود ، وذلك لأن التصوف الذى قام في مصر إبان العصر العثمانى لم يتأثر كثيراً بالمسيحية أو اليهودية التى عاصرتة ، وإن وجدت وجوه شبه بينه وبين المسيحية في كثير من الوجوه ، إذ كان التعصب شائعاً إبان هذا العصر بين المسلمين وغيرهم من سائر الطوائف ، وكان من مظاهر هذا التعصب ما نراه في بعض وثائق للسادات الوفائية من كثرة الشكاوى التى رفعها المسلمون للحكام يطلبون فيها منع اليهود من المرور بمقابر المسلمين والصالحين إلى مدافنهم ، وتعميرهم عن ذلك بقولهم « لهم حفرة معدة لدفن الهالكين منهم » ثم قولهم « إن الأرض الموقوفة على المؤمنين لا يجوز سلوكها للكافرين بإجماع المسلمين ^(١) » ثم ما سنعرّفه

(١) أوراق تاريخية (مخطوطة وفيها عدة شكاوى بهذا المعنى) .

عن موقف الأزهريين وعامة الشعب من فتوى الشبراوى التى أباح فيها للمسيحيين أن يحجوا إلى أماكنهم المقدسة ، وما كان من رجم موكبهم بالطوب والحجارة وهدم كنائسهم والإعتداء عليهم جهاراً . . . وما ستراه من موقف الناس من ابراهيم عصفير وملازمته لأنه كان يبيت عند الرهبان فى الكنائس . . . وتعبير الكتاب المستنيرين فى هذا العصر عن المسيح — عليه السلام — بقولهم « المسيح الدجال » .. ثم النظر إلى هدم الكنائس على أنه مفخرة لصاحبه^(١) . . . وإن كان ذلك لا يمنع من قبول الرأى الذى أرتآه من قبل جمهرة المستشرقين من أن التصوف الإسلامى قد تأثر بعوامل خارجية كانت المسيحية من بينها .

هذا ولم يكن فى وسعى أن أستخلص العناصر المصرية فى التصوف الذى قام أثناء هذا العصر ، فقد كانت القومية لفظاً مجهول المعنى والدلالة فى العصر العثمانى ، وكان الدين هو الوحدة التى تربط الشعوب الإسلامية على اختلاف جنسياتها ، وقد كانت الرحلات — التى اعتبرها العلماء مظهراً من مظاهر العبادة ، تساعد مع وحدة الدين واللغة على إيجاد التشابه بين التصوف فى مصر وفى غيرها من الشعوب الإسلامية — وما أكثر ما صادفنا فى كتب التراجم والتاريخ والمناقب من نصوص تشهد بصحة ما نقول ، حتى لقد كانت الإجازات فى التصوف والفقه تمنح بالمراسلة . . . بل لقد كانت مصر محط المتصوفة من أهل المغرب وتركيا وفارس والشام ، وحسبنا أن نذكر أن أبا القاسم المغربى + ٩٦٠ قد دخل مصر وفى صحبته خمسمائة فقير كما يقول مترجمو حياته^(٢) .

ومن قرأ كتاب الأستاذ كبولانى^(٣) ، لا يملك إلا الدهشة من وجوه التشابه بين التصوف فى المغرب والتصوف فى مصر ، وقد أقنعنى هذا الكتاب الضخم بأن استخلاص العناصر المصرية فى موضوعى أمر عسير بل إن

(١) فى السكواكب الدرية ج ٣ ص ١٢٩ مثال يؤيد ذلك .

(٢) السنا الباهر تكميل النور السائر ص ٥٧٣ (مخطوط)

Les Confreries Religieuses (٣)

التصوف في بدايته بمصر قد قام به الغرباء ، فإن الخوانق والربط والزوايا أنشئت في بداية أمرها للواردين من البلاد الشاسعة كما سنعرف ، والتصوف كان في هذا العصر تقاليد يرثها مشايخ الطرق جيلا بعد جيل حتى كان شيخ الطريق أو العالم إذا مات في مصر أقيمت له صلاة الغائب في الأقطار الإسلامية النائية . (١) ولهذا دلالاته ومعزاه ، وذلك فوق أن مثل هذا البحث لا يقوى على الاضطلاع به إلا من تزود له بمعرفة التركية والفارسية وكان على علم واسع بالتصوف الذي قام عند الفرس والآتراك والمغاربة . وهذا عمل حسينا في الدلالة على مشقته وصعوبته أن نذكر أن التصوف لم يورخ إلى يومنا الراهن .

ثم إن عنوان الموضوع لا يتطلب هذا الجهد ، أو على الأقل لا يحتمه ، وشتان بين التصوف في مصر والتصوف المصري ، ولقد كانت هذه الملاحظة تعينني عن هذا الدفاع كله ، ولكن تفصيلي في الدفاع مرده إلى نقد وجه إلى في هذا الصدد .

وهذا الكتاب محاولة جريئة تحفها الأخطار من كل جانب ، ولهذا كان فراغى منها — أو توهمى الفراغ منها فما يفرغ الانسان من بحث يحبه — يشيع في نفسى روجا وطمأنينة — ولقد كانت محاولة شاقة مرهقة كما قلت ، فإن مصادرها التي قلت إنها كانت تحت يدي ، وأن كثرتها كانت تحملني على الشكوى ، لم تكن ميسورة كما يتصور القارىء لأول وهلة ، فلقد كانت طرق العثور عليها ، ووسائل الاطلاع على ماضمت بين دفتيها ، والعمل على ترك الغث منها وتخليص الطيب من مادتها ثم فهمه واستغلاله في إقامة كيان هذا البحث . . . كان هذا كله شاقاً وعراً ، وحسبى الآن أن أقول إن دور الكتب عندنا مازالت إلى اليوم مخازن لمؤلفات الكتاب ، وأن القائمين عليها يجهلون من أمرها — في الأغلب والأعم — ما يجهله الراغبون في استعارتها ، وأكثرهم قد اتصلت

(١) الكواكب السائرة ٢ ص ١٦٠ (لأبي العباس الحريثي + ٩٤٥ هـ ، ص ١٩٢ لأحمد ابن عبد الحق السبامى + ٩٥٠ هـ ، ص ١٩٥ للفتوحى الحنبلى . . . الخ

مهمته بالكتب على غير رغبة منه أو منفعة تتطلبها مصلحة العمل ، وفارس هذه الدور لم تنظم على وجه ييسر البحث لأهله ، والإعارة الخارجية للمخطوطات — التي اعتمدت عليها كل الاعتماد — ممنوعة منعاً باتاً ، ووسائل الإعارة الداخلية ملتوية غير منظمة تستغرق وقتاً يضيق به أهل البحث ، وهذا فوق أن أظهر ما يميز المخطوطات خطها الرديء وكثرة الغث في مادتها والمبتذل في معانيها وغير ذلك ، وذلك كله فوق أن الموضوع بكر وعمر لم تيسره أبحاث الباحثين من قبل .

ثم مشايخ الطرق الذين اتصلت بهم . . كنت أجد مشقة كبيرة في الاهتمام إلى حقيقة عن أجدادهم الذين تناولهم كتابي ، ولئن كنت لأملك إلا إعلان الشكر لهم على ما أمدوني به من عون وقدموه إلى من مصادر ، إلا أني مضطر إلى أن أشير إلى الصعوبة التي كانت تصادفتي في معرفة الحقائق عند هؤلاء الذين يرتفع إعجابهم بأجدادهم إلى مرتبة العبادة . . .

وقد هوّن على متاعب هذا البحث — إلى جانب ما أسلفت الإشارة إليه من عناية الأستاذ الجليل شفيق بك غربال — الملاحظات القيمة التي أمدني بها أساتذتي وزملائي ، وأخص بالذكر من حضراتهم معالي الأستاذ الأ كبير الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور أبو العلا عفيفي ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور إبراهيم مذكور والأستاذ أمين الخولي وغيرهم .

وبعد فهذا هو كتابي الذي أرجو أن يساهم في وضع بحث «فلسف» التاريخ المصري ويتناول ظواهر الحياة فيه بتفسير جديد ، يقوم على فهم واسع بما مرّ بالمصريين من حركات الدين واستوعب نفوسهم من تياراته وشغل أذهانهم من أفكاره ، وقد انتهيب فيه إلى نتيجة لها خطرهما ، هي أن الحياة المصرية في جملتها ، منذ العصر العثماني حتى يومنا الراهن ، تدين لتعاليم الصوفية أكثر مما تدين للقواعد الدينية أو للحضارة الأوروبية ، وسنعرف في الفصل الختامي كيف اتسعت فرجة الخلاف بين قواعد الدين وتعاليم الصوفية في ذلك العصر ،

وكيف غلبت هذه التعاليم مبادئ الدين الخفيف . فأما عن الحضارة الغربية فقد أقبلت الى مصر في ركاب نابليون الذي أجهز على العصر العثماني عام ١٨٩٨ م ، واشتد بأسها في عهد محمد علي وإسماعيل ، وبدأ تأثيرها غلابا في المدن في عهدنا الحاضر ، ولكن نفوذها لا يزال كسيحا في الريف ، وهو يمثل أغلبية الشعب المصري ، بل إن آثار هذه الحضارة في أهل المدن ، لا تزال — في الأغلب والأعم — مجرد مظاهر ، نخفي وراءها تقاليد قديمة العهد ، بينها وبين تعاليم صوفية العصر العثماني صلوات رحم وقربي .

نوفيس الطويل

الاسكندرية في { شعبان ١٣٦٥ هـ
يولييه ١٩٤٦ م

مقدمة تاريخية عن :

العصر العثماني في مصر

٩٢٣ - ١٢١٢ هـ = ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

عصر السلاطين — تطلع العثمانيين لامتلاك مصر — مصر في عهدهم —
حالتها السياسية — حالتها الاقتصادية — حالتها الاجتماعية — حالتها
العلمية — تطور أحوالها في القرن الثامن عشر (في السياسة والعلم) :

عصر السلاطين : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

حطم التتار مدينة المشاركة في بغداد ، واستولوا على حاضرة الإسلام
سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، وأزعجوا المسلمين في شتى بقاع العالم
الإسلامي بما ارتكبوا من فظائع وما أذاعوا في الناس من أهوال — أعملوا
السيوف في رقاب الناس أينما نزلوا ، وألقوا في نهر الدجلة بآثار العلماء من
كتب ومصنفات ، وجدوا في القضاء على مظاهر الحضارة في دول الإسلام —
وكان حكم مصر يومئذ في يد طائفة من مهرة الفرسان المدربين على فنون
القتال منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، هم « سلاطين المماليك » ، وقد
عاشوا في رخاء هيأته لهم أرباحهم من التجارة والزراعة والصناعة ، وكانت
الحروب التي أثاروها بما أثر عنهم من شهامة وشجاعة ، تشغل بالهم وتملأ
حياتهم وتسلم بعضهم إلى أعلى مراتب الحكم ، ولكنها كانت لا تشغلهم عن
رعاية العلم والعناية بأهله ، فلاذ بمصر العلماء في مختلف دول الإسلام فارين
من وجه التتار ، ووجدوا في رحابها خير ملاذ يقيم أحداث الزمان ، ويمدحهم
بعطايا السلاطين وصلات الحكام ، ويحوظهم بمظاهر التقدير والاحترام ،
وأضحت مصر في هذا العهد مقر خلافة الإسلام وعاصمة ملكه ، ومركز

مدنيته وأبعد دولة شهرة وعظمة ، وقد اتجه إليها العالم الإسلامي منذ ردت
عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبيين .

نطلع العثمانيين لاستملاك مصر :

واستحوذت مصر على هذه المكانة الملحوظة بين دول الإسلام طوال
عصر السلاطين على وجه التقريب ، ولكن حكمهم قد شاخ في أواخر عهدهم ،
وبدأ الفساد يتمشى في أوصاله منذ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، في
وقت قامت فيه دولة بني عثمان فتية تنساب في كيائها حيوية الشباب وقوته ،
وقد تمهياً لأهلها فتح آسيا الصغرى وتوطيد سلطانهم في رحابها ، وغزو أملاك
الدولة الرومانية الشرقية من الغرب ، والاستيلاء على أمارات السلاجقة من
الشرق ، وجعل القسطنطينية عاصمة ملكهم سنة ١٤٥٣ م ، فكان طبيعياً بعد
هذا أن يتطلع العثمانيون إلى زعامة العالم الإسلامي بالاستيلاء على مصر ،
وإخضاع أهلها وأملاكها لسلطانهم ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى حاضرة
ملكهم . . . وكان لهم ما أرادوا ، فتمكن سلطانهم « سليم الأول » من قهر
المماليك بعد أن عجز عن ذلك أسلافه ، ودخول مصر بعد موقعة الريدانية
١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وقد أقام بها نحو ثمانية شهور عاد بعدها إلى الأستانة
وفي ركابة « خليفة المسلمين » . . . وأضحت مصر بعد ذلك إيالة تابعة للدولة
العثمانية ، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها ، وخسرت زعامة الإسلام ،
وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها في شتى الدول . واستمر الحكم
للعثمانيين في مصر حتى أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بعد نحو ثلاثة
قرون من الزمان (١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ) ، وهذا البحث ينصب على دراسة
التصوف أثناء هذا العصر ، ولهذا رأينا أن نمد هذه الدراسة بشرح بعض
مظاهر الحياة في مصر إبانها ، عسى أن يساعد هذا على فهم الجو الذي اتفق
وجود التصوف فيه ، والتعرف إلى نوع التفاعل الذي قام بينهما ، وحسبنا من
هذه المظاهر أربعة :

أولها — أحوال مصر السياسية :

كان في مصر ثلاث قوى يراقب بعضها بعضاً ، ولكل منها حق الاتصال المباشر بالسلطان ، فأدى هذا النظام المفكك إلى قيام نزاع دائم بينها طوال هذا العصر ، فكان الوالى يحكم مصر باسم السلطان وليس له من رأى في حكمه ، إلا ما يمليه عليه سيده المقيم في الآستانة ، ومراقبة تنفيذ ما يوحى إليه من أوامر . . . ! وكان يعين بعقد يمتد عاماً قابلاً للتجديد ، وإلى جانب الوالى تقوم سلطة الجنود ، وكانوا سبع فرق وُكل إليها حفظ الأمن العام . ومن ضباطها يتألف الديوان ووظيفته مراقبة الوالى في شتى تصرفاته . . . ! ويمثل السلطة الثالثة المالك الذين قدموا للسلطان التركى طاعتهم وأعلنوا له ولائهم ، إذ عينهم السلطان حكماً إداريين للمديريات لحفظ التوازن بين السلطتين السالفتين (١) . . .

بهذا النظام المفكك كانت تحكم مصر ، وهو يشبه — في كثير من الوجوه — نظام الحكم في غير مصر من دول الإسلام إبان هذا العصر . وهكذا بقيت مصر من غير حاكم قوى تتجمع السلطة في يده ، وتخشاها سائر القوى المتنازعة ، فكان للمالك أطاع أدت إلى وجود النزاع بينهم ، وقام بين الفرق بعضها مع البعض نزاع كان يبدو في بعض الأحيان في صورة حرب داخلية تستمر شهوراً ، وربما استعانت كل فرقة مقاتلة بطائفة من المالك — كما كان الحال في الحرب التي قامت بين قرقي العزب والانكشارية ، أو بين قرقي القاسمية والغفارية ودامت ثمانين يوماً كما يروى الجبرتي ، والوالى من وراء هذا النزاع — الذى كاد يشغل العصر كله — يراقب حركات العداء ويشرف عليها ، ويرفع إلى السلطان التركى أمرها ، ولكنه لا يملك القضاء عليها ، لأن القوة تعوزه والسلطان ينقصه ، ولا شك أن هذا الاضطراب كان ذا أثر في حياة الشعب المصرى من نواح كثيرة .

وثانيها — الحالة الاقتصادية :

أدركت الفاقة مصر في هذا العصر — كان المصريون في عهد السلاطين المماليك يعيشون في فيض من الرخاء ، ولكن أحداثاً جدت فغيرت من حالهم وبدلت من رخائهم وسلطت عليهم الضيق وأغرقت بهم العوز ، كان البحر الأبيض هو الطريق الوحيد بين الهند وأوربا طوال عصر السلاطين ، فكانت التجارة الهندية ، تمر بأملاكمهم (مصر والشام) فيفرضون عليها باهظ المكوس ، حتى كانت الضرائب لا تقبل في عرف جمهرة المؤرخين عن سدس الثمن الأصلي للبضائع كما يقول الأستاذ « كمرون » . . . و غاظ أوربا هذا الربح الذي كان يستحوذ عليه المصريون والبنادقة ، وساءها غلاء أسعار الحماجيات بعد نقلها وسداد مكوسها ، فأرادت الاهتداء إلى طريق أخرى توصل للهند ، وتكون أقل نفقات وأقصر مسافة وأخف متاعب ومشقات ، وقد تحقق هذا الأمل بعد بعثات كثيرة لاقت الإخفاق حيناً وصادفت النجاح حيناً ، فوصل أخيراً « فاسكو دي جاما » إلى رأس الزوابع — الذي سماه على سبيل التفاؤل « رأس الرجاء الحسن » — سنة ١٤٩٦ م فتحوّلت التجارة الهندية إلى هذه الطريق ، ووفرت أوربا على نفسها ثلث النفقات التي كانت تخسر ها من قبل ، فوق ما ربحتة من راحة ووقت — واستولى العثمانيون على مصر بعد هذا الحادث الجلل بوضع سنوات ، وكثر التلصص بعد ذلك في البحر الأبيض ، فضعفت الحركة التجارية من ناحية ، وخسرت مصر به مورداً فياضاً بالمال .

هذا ما أصاب مصر في تجارتها إبان هذا العصر ، فأما الصناعة فحسبنا أن نعلم أن السلطان التركي قد عاد بعد فتح مصر إلى الاستانة وفي صحبته نحو ألف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والحجارين والمرخين والمبطلين والخراطين^(١) . . . هذا فوق ماغنمه من أموال البلد حتى

(١) ابن إياس ج ٣ ص ١٤٩ وروى في ص ١٢٢ أن عددهم ألف .

بلغ مانهبه فيما أشيع ألف جمل يحمل بالذهب والفضة ، عدا ما حمله معه من تحف وأسلحة وأوان صينية ونحاسية ودواب من خيل وبغال . . . وذلك كله خلا ما غنمه وزراؤه وجنوده . . . حتى بطلت في مصر خمسون صناعة وتعطل منها أصحابها كما يقول ابن إياس (١) .

وأما من حيث الزراعة فقد أهمل عصرهم الأرض وإقامة الجسور وحفر الترع والخليجان وتطهير الجداول ، ولم يكن من عمل الحكومات في هذا العصر أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير أسباب الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده (٢) . وكان نظام الملكية العقارية غير قائم بالمعنى الصحيح ، فان أراضى الفلاح كانت عرضة للانتزاع منه إذا عجز عن سداد ما يفرضه عليه الملتزمون من ضرائب ، كان بعضها يفرض حسب أهواء الملتزمين (٣) . !

قلت موارد المال وكثرت وجوه الإنفاق في هذا العصر — كان سلاطين الممالك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد ، يقيمون المباني الشاهقة والآثار النفيسة التي لاتزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم في فن المعمار ، وينفقون كثيراً في حياتهم المترفة التي حفلت بوصفها كتب الرحلات التي كتبها الأجانب في هذا العصر ، وكانوا يعطفون على الشعب فيتصدقون على فقرائه ، ويجرون الأرزاق على طلبة العلم من أبنائه ، ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه ، فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من ضرائب ومكوس ، أما في العصر العثماني فان موارد المال فيه قد قلت ، ووجوه الإنفاق قد كثرت ! كان السلطان التركي في القسطنطينية ينتظر الخراج في كل عام ، وكان والى والفرق العسكرية التي صاحبت الفتح التركي في حاجة

(١) المصدر السالف ج ٣ ص ١٣٣ ، وأبو السرور البكرى في النزهة الذكية في ولاية مصر والقاهرة ص ٤١ (مخطوط) .

(٢) شفيق غريال : الجزائر يعقوب ص ٩٤ والرافعي ج ١ ص ٣٢ .

(٣) الرافعي ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

إلى نفقة كبيرة لم تقم بها مصر فيما سلف من عصور^(١).
وقد كثرت في هذا العصر مناسر اللصوص وعظم نفوذ الأولياء وأرباب
الطريق، وكان على الشعب أن يكلفهم ويقوم بحاجاتهم وينظم لهم الموالد
والولاتم على نحو ما سنعرف بعد، وفشت الأوبئة في هذا العهد الذي كانت
فيه مصر لا تعرف الاهتمام بصحة الأفراد، أو العمل على وقايتهم من
الأمراض...!

تضافرت العوامل كلها على إيجاد حالة من العوز والفاقة كان لها بالغ
الأثر في نفوس المصريين.

وثالثها — الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية صدى للفاقة التي نزلت بالشعب، والجهل الذي
أدركه وعشش في رأسه، والاضطراب الذي لازمه من جراء النظام السياسي
السالف الذكر، فان فرق الجنود التي وكلت إليها حراسة البلد وصيانة
الحريات والحرمان، كانت شر ما لقيت مصر في هذا العهد من ضروب
العدوان والطغيان، وقد بلغ من بغي الجنود في عهد الضعاف من الولاة
— وما كان أكثرهم — أن كانوا يخطفون النساء والغلمان من الشوارع ليلا
ونهارا، ويفسقون بهم على قارعات الطرق...! وكانوا يشاطرون التجار
وأصحاب الحرف مكاسهم...^(٢) وكان الفلاح معرضا لظلم جباة الضرائب

(١) كان الوالى يتنازع ولايته بثمان يتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف ريال، ولا يوفق
إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للأستانة هدايا تزيد على مائة ألف ريال،
وكان عليه أن يرسل إليها الخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال، وأن يبعث بهدايا أخرى
من السكر والبن والأرز والفراب والحلوى والغلال لاتقل قيمتها عن ٦٠٠٠٠٠ ريال،
وذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر فيما يقول الرافعى ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ — وإن
تغير هذا النظام أواخر هذا العصر. وكان الوالى وحكام المديريات من أمراء المماليك يجمعون
لأنفسهم في فترات الظلم أموالا لا يقرها عدل ولا يقول بها عقل — كما روى الجبرتي وابن لياس
وغيرهما من مؤرخى العصر.

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤

وتعذبهم إن قصر في إرضائهم ، والولاء وإن توفرت في الكثيرين منهم
« نية الخير » فقد كانوا لا يقوون على تحقيقها وإقرار الحق ونشر العدالة بين
الناس ، إذ كان الوالى مسلوب السلطة على الجنود (١) ، فكان يردّ الظلم عن
الشاكين ، بأن يطلب إليهم البعد عن الباغين والاختفاء عن أنظار المعتدين
حتى لا يتعرضوا لما ينزلون بهم من ظلم وبغي وعدوان ...!

فساعد هذا القلق ما كان شائعا بين الناس من جهل وضنك وضيق ،
وأدى بهم إلى الإيمان الساذج بالله وأهله ، وتشبث الجمهور برسوم الدين
وطقوسه ، وأهموا قواعد ولبابه ، وحلمهم الضيق الذى أخرج صدورهم على
التهاون في انتشار الحشيش والخمر والبوزة بينهم ، وشيوع الشذوذ الجنسى
والسعى وراء الرنا بالفساء والفسق بالغلبان على نحو ما سنعرف بعد .

ولقد عاقت الوحدة الدينية وجود رابطة وطنية تربط الناس وترسم لهم
أملا قوميا واحدا ، إذ جرى العرف من قديم الزمان على أن يتولى حكم مصر
وردّ الغارات عنها وحفظ الأمن فيها ، فئة من مهرة الفرسان ليس فيهم
مصرى واحد ، وقامت إلى هذه الطبقة العسكرية طبقة الشعب الذى انصرف
إلى العمل فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على قدر ما تسمح ظروفه ،
وسنعرف فيما يلى من فصول هذا الكتاب أثر هذا الجو الاجتماعى فى
التصوف الذى خصصنا هذه الرسالة لدراسته .

ورابعها - الحالة العلمية :

ولا بأس من أن نسهب فى بيانها بعض الإسهاب ، لأنها أوثق مظاهر
الحياة اتصالا بالتصوف :

اعتزلت مصر العالم الأوربى بعد كشف رأس الرجاء الحسن ، وكانت
أوروبا قد استيقظت من سباتها على نهضة أخذت تدب فى كيائها ، وتتناول
شئى مرافق الحياة عند أهلها ، فخرمت مصر من الاتصال بهذه النهضة وتبع

(١) فى ابن إياس ج ٣ ص ٨٥ وغيرها أمثلة تؤيد ذلك .

حركاتها والإفادة من ثمراتها طوال العصر العثماني — الذي استغرق نحو قرون ثلاثة ، وكان للمصريين الذين عاشوا في العصر الوسيط كله — لا العثماني وحده — فهم للحياة العلمية يخالف فهمنا ، فكان المثل الأعلى للعلم في عرفهم قائما على الدين وما يعين على فهمه من دراسات . فالتجهد إلى علوم الدين عنايتهم ، وكادوا يهملون ما عداها من ضروب العلم وألوانه — وقد بلغ من إهمالهم لدراسة العلوم العقلية أن كان يجهلها صدور العلماء في الأزهر — أكبر معهد في مصر يومذاك — لما جاء إلى مصر الوالي أحمد باشا خف لاستقباله أظهر العلماء في ذلك الوقت ، وهم الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وسالم النبراوي ، وسليمان المنصوري ، فدارت بينهم مناقشات علمية (أي دينية) عقب عليها الوالي بالكلام في العلوم الرياضية ، فأحجم العلماء عن التباحث فيها معلنين جهلهم بها ، فعجب الوالي لذلك كثيرا ، ثم قال للشبراوي بعد ذلك : إن الشائع في بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وقد شاقني الحجى إليها فلما جئت وجدت كما قيل « تسمع بالمعدي خير من أن تراه » . فقال الشبراوي : هي يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف . فقال له : أين هي وأنتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم علمائها ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، وقد نبذتم المقاصد وجهتموها — فقال الشبراوي : لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أبواب الدولة وأهل الحكم فيها ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، أما غير ذلك فعرفته من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ثم إن دراسة هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات . . . وغالب أهل الأزهر فقراء ، ويعوزهم الاستعداد لدراسة هذه العلوم ، ثم أشار على الوالي بأن يتصل بعالم فذ في معرفته بالرياضيات هو حسن الجرنى — والذي عبد الرحمن المؤرخ المعروف — فاتصل به وأخذ يستقي عنه علومها .

أهملوا دراسة العلوم الرياضية وكانت في عرفهم تشمل الهندسة والحساب والهيئة والربهم واعتبروا الفلك والميقات والزايحة والأوقاف وما إليها من العلوم الغربية والخارجة وكانت لا تحتل المكان الأول من اهتمامهم ، وجعلوا التفرقة بين العلوم والفنون ، بل كان العلم في عرفهم معناه المعرفة — وبهذا ورد معناه في القرآن الكريم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين : العلوم النقلية ويراد بها الفقه والحديث والتفسير ونحوه ، والعلوم العقلية وهي ما نريد به العلوم اللسانية في وقتنا الحاضر ، ويراد بها النحو ^(١) والبيان واللغة ... وكانت تحتل المكان الثاني من عنايتهم ، وكانت دراساتهم في الجملة تعوزها العناية بالمعنى ويشغلها الاهتمام بالألفاظ ، وكان تأليفهم يدور حول شرح المتن والتعليق على الشروح مما يجوز لنا أن نسمى عصرهم « عصر الشروح والحواشي » ^(٢) .

وشاع الجهل بين الناس واستفحل أمره في الريف والحضر ، وعششت السذاجة في رؤوسهم وبدت في ضعف التعليل الذي نراه في شتى مؤلفات الأدباء ، ونصادفه عند الناس كلما عرضوا لتعليل ظاهرة من ظواهر الحياة ، فإذا أصاب البلد قحط رأينا جهود الساعين لرفعه ، تفنن بالاتجاه إلى التماس زواله عند الله بالأدعية والأوراد والصلوات ، وقد يقنع الحاكم بأن يطلب إلى العلماء والناس أن يسارعوا إلى أداء هذا الواجب ان توانوا فيه ، ويلتمس من يرجو فيه الصلاح والخير أن يكون هو الداعي والناس من ورائه يستجيبون ^(٣) . وإذا نزل بالبلد عدو يريد احتلاله ، بادر العلماء وأرباب الطريق إلى المساجد والزوايا وأخذوا في تلاوة الأوراد والأدعية حتى تزيلهم هذه الشدة ، وقد فعلوا ذلك يوم زحفت عليهم الحملة الفرنسية التي

(١) استخلصنا ما أسلفناه في الحياة العلمية عن مصادر هذا العصر ولا سيما : الجبرتي

ج ١ ص ٣٧ ، ١٩٣ - ١٩٤ و ١٧ و ٧٦ و ج ٢ ص ١٧ و ٥٧ و ٧٥ و ١٠٠ وغيرها .

(٢) جرجي زيدان : آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الشعرائي : لطائف المنن ج ١ ص ١٠٦ ، الجبرتي ج ١ ص ٣٠ .

قضت على العصر العثماني في مصر . ١. (١) بل كان السلطان في تركيا إذا اشتدت حروب أعدائه له ، لاذ بعلبائه مصر وأجزل لهم العطاء ، واتمس إليهم أن يقرموا له البخارى بين الحين والحين حتى ينصره الله على أعدائه (٢) كان يحملهم على هذا إغفالهم لسنن السكون ونواميس الطبيعة ، وإيمانهم بأن الله هو العلة « المباشرة » لسكل ظواهر الحياة ، فاذا اتجهوا اليه بالدعاء رفع عنهم ما نزل بهم من شر وما أصابهم من ضيق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ... وهذا العجز عن تعليل الظواهر هو الذى ساق الناس إلى التسليم بدعاوى الدجالين وحيل المشعوذين من أدعياء التصوف وأهل التنجيم (٣) .

أما معاهد العلم في هذا العصر فقد كان أكبرها خطرا :

الأزهر : وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب التى تشبه مدارس التعليم الأولى في وقتنا الحاضر ، وكان الطالب يصطفى لنفسه بين أعمدة الأزهر من شاء من شيوخه متدرجا من السهل إلى الصعب ، حتى تغزر مادته ويأنس في نفسه الكفاية للتدريس ، فيخلق حلقة ويمضى في تعليم الطلاب ، ونجاحه في ذلك رهن كفاءته ، إن أحسن في درسه سكت عنه الشيوخ (٤) ورضى به الطلاب (٥) فواصل عمله ، وإن أخفق انفض أتباعه من حوله ، وكان الإخفاق مصيره (٦) . والكثيرون من خريجي الأزهر أو ممن قضوا بين جدرانها شطرا من حياتهم ، ينطلقون إلى الأقاليم والقرى ويسيرون الكتاتيب السالفة الذكر ويتولون إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الرشاد في المساجد وزوايا أهل الطريق ، وكان الناس يقبلون على هذه المجالس للتعلم في شئون دينهم .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٧٢ ، ج ٢ ص ١٧١ و ١٩٠

(٣) أنظر في الجبرتي ج ١ ص ٣١٨ و ٣٣٧ — ٣٣٨ و ٣٨٤ أمثلة لذلك .

(٤) رفاع الطهطاوى : خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢ في موقف العلماء من المناوى ،

والجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ في موقفهم من البيوى .

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ٤

(٦) في الجبرتي ج ١ ص ٢٥٧ ، ج ٢ ص ١٠٦ ما يشهد بما نقول .

وقد عالج بعضهم الوعظ بنوع من القصص الديني يجمع بين دراسة الدين وفهم المثل العليا في الحياة الدنيا ^(١) وكانت هذه المجالس تتجاوز المساجد والزوايا وتقام أحياناً في البيوت والدور ويتهافت عليها الناس وينصت إليها النساء من وراء ستار ^(٢).

وكانت مجالس الأدب والعلم تقام أحياناً في منازل العلماء والخطاطين والأدباء، ويشد أزرها الحكام، وأظهرها مجالس رضوان بك والزبيدي والجبرتي الكبير ^(٣).

كما تخصص لدراسة العلوم الغربية — من هيئة وفلك وميقات وزايرجه وأوافق — نفر من علماء الأزهر، واهتم غيرهم بدراسة العلوم الرياضية، وكان هذا النوع من العلماء موصول الأسباب بالحياة العملية فيما لا علاقة له بالتهيمو للآخرة، ويشهد بذلك موقف الشيخ حسن الجبرتي من اختلال الموازين واختلاف المقادير في عهده عام ١١٧٢ ^(٤).

وقد شاع في الريف — على الأخص — نوع من الأدب الشعبي تمثله لنا قصص أبي زيد الهلال وسيف بن ذي يزن وعنترة وألف ليلة ونحوها، وقد شجعت على انتشاره ما أسلفناه من ظروف سياسية وأحوال اقتصادية واجتماعية.

وقد نهضت زوايا الصوفية بفشر العلوم الدينية، وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاوله الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية — صادقين كانوا أو كاذبين.

(١) محمد فريد أبو حديد: سيرة السيد عمر مكرم ص ٢٣ — ٢٤.

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) صورها عن الجبرتي الأستاذ محمد فريد أبو حديد في صورة طريقة نشرت بالرسالة في عديدها (٨٣، ٨٤ الصادرين في ٤، ١١ فبراير سنة ١٩٣٥) وانظر الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢ وفي غيرها من صفحات.

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٤٠٣.

وينبغي أن نشير الآن إلى أن أهل العلم وحواريه كانوا حريصين على حيازة المكاتب وجمع الكتب النادر منها والمتداول ، يتنازعونها من سوق الكتبيين حيناً ومن الأفراد والبلاد النائية حيناً آخر ، وغلب عليهم الميل إلى التهاون في إعارتها وعدم التشديد في استعادتها ، رغبة منهم في نشر ما تنطوى عليه من ألوان العلم وضروبه ، فقامت مكانهم مقام دور الكتب العامة في عصرنا الراهن (١).

على أن هذا كله كان ضعيف الأثر في تبديد الظلام الذي استوعب هذا العصر واحتوى أهله ، ومؤرخو الأدب المصرى يقررون — والآسى ملء قلوبهم — أن الفتح التركى كان ويلا على العلم وأهله ، لأن المغول حين اكتسحوا فارس وخراسان والعراق وحطموا بغداد وعفوا على مدينة الإسلام ، انتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدائن العلم في العصر العباسى ، إلى القاهرة والإسكندرية والفيوم وحلب وغيرها من مدائن مصر والشام (٢). وكان السلاطين الذين يملكون هذين القطرين يحرون على العلماء الأرزاق ويحزلون لهم العطاء ، فنشأت في مصر نهضة علمية ظهرت ثمارها في أواخر عصر السلاطين ، ونشأ فيها منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو التعليم العام ، فترى لأول مرة في التاريخ الإسلامى مؤلفا « كالنورى ، سنة ١٣٣٢ يحاول أن يشرح شتى المعارف التى عرفت في عصره من أدبية وعلمية وتاريخية وجغرافية في موسوعة ذات عشرين (أو ثلاثين) مجلدا ، وأخذ هذا الميل يتقدم في مصر — لا في المعارف العامة وحدها — بل اتجه نحو التخصص في القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، فترى نوعا من دائرة معارف جغرافية في كتاب ذى اثنين وثلاثين مجلدا يضعه العمرى (١٣٠١ — ١٣٤٨) في الجغرافيا العامة ، ونرى مؤلفا آخر وضعه القلقشندى عن الأنظمة المختلفة

(١) في الجبرتي ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ (مكتبة الشرايى) ، ص ٤٠١ مكتبة الجبرتي الكبير .

(٢) جورجى زيدان ج ٣ ص ١١٢

في العالم الإسلامي يقع في ثلاثة عشر (١٤) مجلدا ، ونرى ما يشبه هذا في غير هذين الكتابين (١).

فلما استولى الأتراك على مصر جعلوها إيالة عثمانية ، وفرضوا على أهلها أن تكون التركية لغة المحادثات والمحادثات الرسمية ، وقلت عنايتهم بالعلماء ، وساعد الجوّ السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عصرهم على وقف هذا التيار العلمي السائر نحو النضج والكمال ، ولولا الأتراك لكان الذهن المصري متمشيا من تلقاء نفسه مع الأذهان الأوروبية في العصور الحديثة ..! ولاستطاع أن ينال بل أن يقوم بنصيبه من الرقي العام للحضارة (٢).

وقد استحوالت هذه الموسوعات في العصر العثماني إلى حواش وتعليقات وشروح .! والرأي عندنا أن العثمانيين قد أوقفوا الحركة العلمية في مصر نحو قرنين من الزمان ، فإن الفترة الأخيرة من عهدهم - فيما يلوح لي - قد دب فيها نوع من التطور شمل أكثر مرافق الحياة عند أهلها ، وإن قال المؤرخ الثقة : الأستاذ غربال ، أما بماليك مصر فكانوا في عام ١٧٩٨ م كما كانوا في عام ١٢٥٠ في الحرب والتفكير ، أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلال دولتهم ، وما كانوا يجبنونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم ، كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء ، وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان آباؤهم (٣) ، ولا بأس من أن نحاول الآن تأييد ما نزعمه :

التطور في السياسة : أصاب الضعف تركيا في القرن الثامن عشر ، وتوالت عليها انتصارات النمسا ثم روسيا في ساحة الوغى ، واختلت شؤون الدولة الداخلية وفسد نظام الحكم وساء حال الجيش وكثر تغيير الولاة على مصر ، واندحمت الفرق العسكرية في الشعب وأصبحت الأملاك يتولى أمرها المماليك ،

(١) طه حسين : ابن خلدون ص ٥٧

(٢) المصدر السالف ص ١٦٤ - ١٦٥

(٣) شفيق غربال : الجنرال يعقوب ص •

فأضحى الجنود أتباعاً لهؤلاء الأمراء الذين كانوا جادين في تقوية أنفسهم بابتغاء الممالك والإكثار من الأتباع ، وقد حاولوا أن يوحّدوا كلمتهم باختيار زعيم لهم جعلوه « شيخاً للبلد » نافذ الرأى في كل شئونها ، حتى أصبح الوالى الذى ترسله تركيا سجيناً في القلعة لا يملك الخروج منها إلا بأذنه . . . ! ولو امتاز واحد من هؤلاء الأمراء بالنسب فوق ما تهيأ له من شجاعة وفروسية ، لاستكان له زملاؤه وساروا في ركابه ، وعاونوه في الاستقلال بمصر وطرد الأتراك من أرضها ، ولعل هذا هو السبب الذى أدى إلى فشل الدعوة للاستقلال الذى حققه على بك السكبر سنة ١٧٦٩ فترة من الزمان .

وكما تهيأ لأمراء الممالك هذا النفوذ تهيأ للشعب نوع من النضج بدا واضحاً في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر^(١) فقد سمعنا في هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله ، ورأينا اهتمام الحكام بالرأى العام وزعامته ، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الأزهر وفي فتنة الوقف^(٢) ورأينا العالم الذى يقول للحاكم في وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجى ، الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . . . ! والعالم الذى يقول للعامة وهم يستنصرونه لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم : « فى غد نجمع أهالى الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم »^(٣) وغير هذه الحوادث كثير لم نكن نسمع به في القرنين الأولين من العصر العثمانى .

وقد شبه بعض المؤرخين نفوذ العلماء في هذه الفترة بنفوذ البابوات في

(١) رأى الأستاذ المؤرخ محمد فريد أبو حديد أن هذا النضج السياسى قد ظهرت بوادره في مستهل القرن الثامن عشر وكان أول دليل عليه عام ١٧٠٢ م (ص ٢٢ من سيرة السيد عمر مكرم) وقد ناقشت رأيه على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٢١٧ الصادر في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧ .

(٢) الجبرقى ج ٢ ص ٥٦ و ١١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩ و ١١٠ .

أوروبا إبان العصر الوسيط ، وهو تشبيه مقبول من حيث السلطان الذى توافر لهم عند حكام البلاد ، ولكنه يبدو على خطأ من حيث صلتهم بالشعب من بعض النواحي ، فان البيقظة كانت قد دبّت في نفوس الناس حتى كانوا إذا ثاروا تحرّكوا للثورة من غير قائد يتولى زعامتهم ، ثم يطالبون زعماءهم من العلماء بقيادتهم ، فإن قصروا نالهم من الشعب الأذى ، وما كان لأوروبا في العصر الوسيط مثل هذا الرأى العام الذى ظهر في مصر قبل القرن التاسع عشر على غير ما يرى بعض المؤرخين (١)

التطور في العلم : تطورت الحركة العلمية إلى الكمال في أواخر العصر العثماني ، وظهر هذا النضج في الزبيدي الذى وضع « تاج العروس » ، في عشرة أجزاء كبار ، وشرح إحياء علوم الدين للغزالي في عشرة مجلدات كبار ، وفي الوالى راغب باشا سنة ١١٧٦ الذى وضع موسوعة في الأدب واللغة والعلم والطبيعة والطب والحديث والرياضيات والمنطق ، سماها سفيينة الراغب ودفينة الطالب (٢) والجبرتي الذى لا خلاف بين المحدثين من المؤرخين في دقته ومهارته في استقصاء الحوادث وقدرته على فهم الظواهر ومما جعل تاريخه عن القرن الثانى عشر للهجرة معدوم النظر في عرفهم ، والصبان ١٢٠٦ هـ صاحب الحاشية المعروفة إلى يومنا الحاضر (٣) وظهرت مجالس الأدب والعلم عند الزبيدي والجبرتي ورضوان بك ، وغير هؤلاء من كبار العلماء والذين كانت حلقات دروسهم تزدهم حتى تبلغ المئات عدداً ، فالحفناوى سنة ١١٨١ بلغ عدد الحاضرين في حلقة نحو الخمسمائة مستمع ، وكان يوجد في حلقة محمد بن ابراهيم العوفي ١١٩١ أكثر من ثلاثمائة طالب رغم أنه كان ماجناخليعا (٤) - والأمثلة على ذلك كثيرة .

(١) كجورجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٦

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٥٥ كما يقول جرجى زيدان في المصدر السالف ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢٤١

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٦

وقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا التطور الذى أشرنا إلى ناحيتين من نواحيه ، إلى تغيير علاقات مصر بالدولة التركية وظهور هذا التغيير فى ميادين الاقتصاد والاجتماع وغيرهما من مظاهر الحياة فى مصر .

وقد سار هذا التطور فى مجراه حتى أقبلت الحملة الفرنسية فوجهت مصر فى تيار جديد ، كان بداية العصر الحديث فيها ، ولا نريد أن نتعرض للحكم على مدى ما أفادته أو خسرت مصر من جراء هذا الاتجاه الجديد ، فإنه لا يزال موضع جدال بين المحدثين من المؤرخين .

هذه بعض مظاهر روح العصر العثمانى فى مصر عرضناها موجزين ، عسى أن تساعد على فهم التصوف الذى اتفق وجوده مع هذه المظاهر ، وكان بينه وبينها نوع من التفاعل سنعرض له فى حينه ، والآن ما المراد بالتصوف فى هذا العصر ؟.. ذلك ما نعرفه فى الكتاب التالى .

الكتاب الأول

في الطريق

تمهيد في صفة الكتاب الأول بما بعده

إذا كان التصوف في أصله ظاهرة وجدانية فردية ، فقد كان تصوف العصر العثماني ظاهرة اجتماعية تتطور مع الزمان وتتغير باختلاف المكان ، كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية ، ولهذا آثرنا أن نتناول في الكتاب الأول عرض المعالم التي ميزت هذا التصوف ، فلم بما انتشر في أرض مصر من زوايا أرباب الطريق ، ومعيشة الذين أقاموا في رحابها ، وانقطعوا لعبادة الله بين جدرانها ، وحتى نعرف شيئاً عن الطرق الصوفية وميزاتها ، والسلطان الذي تهيأ لشيوعها ، والتجارب التي عاشها أتباعها . . . وغير ذلك مما تلزم معرفته في مستهل هذا البحث ، فإذا تهيأ لنا تأريخ هذا الجانب من تصوف ذلك العصر ، عقبنا عليه - في الكتاب الثاني - ببيان السلطان الذي تهيأ لآلهة أحياء وأمواتا ، لنبين - في الكتاب الثالث - عن أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في ذلك العصر وما تلاه من عصور

ولما كان تصوف العصر العثماني امتداداً طبيعياً للتصوف الذي شاع أواخر عصر السلاطين ، كان من الخير أن نمهد لدراسته في العصر العثماني بفصل تداول فيه نشأته بمصر وتطوره إلى هذا العهد ، وتأريخ التصوف في مصر على هذا النحو مجازفة غير مأمونة الزلل ، لأسباب أكبرها خطراً أقل المصادر التي تيسر البحث في هذا الميدان ، بيد أن هذه المجازفة ضرورية لفهم التصوف في العصر العثماني على أكمل الوجوه ، فلنأخذ حيطتنا على قدر ما تسع طاقتنا ، ولننض إلى اقتحامها مستسلمين بعد ذلك لأخطارها :

الفصل الأول

أظهر معالم التصوف في مصر

قبل العصر العثماني

التصوف في مصر قبل العصر العثماني — أنواع المعابد في مصر — الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر — نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني — بعض مظاهر نفوذهم قبيل العصر العثماني .

التصوف قبل العصر العثماني :

عرفت مصر الزهد والتفكير من قديم الزمان ، فشاعت فيها الدعوة إلى عبادة الآلهة والاستخفاف بمباهج الحياة والحرص على نعيم الآخرة منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأكثر الصور التي خلفوها منقوشة على معابدهم وآثارهم تنطق بصدق ما نقول ، وقد كثر وجود الزهدة والعباد في مصر حتى أقبل الإسلام على أهلها يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة معا ، ولكن حديثه عن الآخرة كان مثار الافتتان عند معتقيه ، فاستمر التيار القديم في جريانه ، وعكف البعض على العبادة وانقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهدوا فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وانفردوا عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وقد كان هذا هو أصل التصوف — فيما يقول ابن خلدون — وقد كان هذا عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة (١) .

وقد اتجه التصوف بعد هذا إلى العناية بالأبحاث العقلية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية في المعرفة والوجود ، فتنكر لها أهل السلف وتصدى الأشاعرة لدحضها ، وانتصر لهم الغزالي وطالب بحمل الإيمان — لا التفلسف — طريقاً إلى الله ، وسرعان ما رجحت كفة العمل على كفة النظر ، وتغلب التعبّد على التأمل ، وبدأ الاهتمام بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وترتية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفئ الجانب النظرى في التصوف الإسلامى قبل مجئ العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون . . . وبهذا عاد التصوف فى مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه فى مرحلته الأولى^(١) ، ولستنا نريد أن نؤرخ هذا النوع من التصوف ، بل يعيننا أن نعرض لبيان ظاهرة كانت أكبر ما يميز التصوف فى العصر العثمانى ، ذلك أن المتصوفة كانوا يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم ، فى معابد أطلقوا عليها اسم الزوايا ، طاعمين كاسين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء ، متجردين لعبادة الله منقطعين لذكره ، زاهدين فى طلب الدنيا ، معرضين عن لذاتها ، قانعين فى بعض الأحيان بادعاء هذا السلوك ، مهملين السعى فى طلب القوت ، محتقرين العمل على اكتساب العلم والدين — وهذا التصوف الجمعى لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى . وقد سجل المقرئى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة^(٢) وذكر على باشا مبارك أنه نشأ بهذا المعنى « فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة تسع وخمسين وستمائة »^(٣) ورأى المقرئى أدنى إلى الصواب فيما نعلم ، فإن صلاح الدين قد مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١٩٣ م) . وقد عرفت مصر منذ هذا التاريخ ثلاثه أنواع من المعابد شاعت فيها أيام الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وكانت نواة للزوايا التى حفل بها العصر العثمانى ،

(١) أنظر كتابنا : الشعرانى إمام التصوف فى عصره من ٧ — ٨ و ١٠٧ — ١٠٨ مطبعة أولى (سلسلة أعلام الإسلام)

(٢) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٠ .

ومعنى هذا أن التصوف الذى يبدو فى أصله ظاهرة نفسية فردية ، قد تحول فى مصر إلى ظاهرة اجتماعية ، وأصبح الصوفى الذى يعتكف فى عزلة عن الناس ، تستغرقه رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسم ، قد تحول هذا الصوفى إلى رجل شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه ، والاتصال بسائر الناس - فقراء كانوا أو أغنياء ، ورعايا أو حكاما ، يتفاعل مع البيئة التى يعيش فيها ، يتأثر بها حيناً ويؤثر فيها أحياناً . كان التصوف ظاهرة فردية فتحول إلى ظاهرة اجتماعية . فما هذه المعابد التى استقر فيها هؤلاء الشيوخ مع المريدين والأتباع ؟ .

أنواع المعابد فى مصر :

هى الخوانق والربط والزوايا - ويكاد الباحث أن يضل سبيل الاهتداء إلى وجوه التفرقة بينها . قال على مبارك : إن الخانقاة كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وقد اندثر هذا الاسم بمرور الزمن وأطلق عليها اسم « التكية » والتكايا أما كن لإقامة الدراويش من الأعاجم^(١) ، ولا يكاد يخرج هذا عما قاله المقرئ الذى يقرر أنها حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة للهجرة^(٢) وجعلت ليختل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى^(٣) .

أما الربط فهى فيما يرى المقرئ وعلى مبارك دور أعدت لإقامة الصوفية ، وخصص بعضها للنساء المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل من العابدات ، وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ - وقد انقطع ذلك منذ زمان مديد^(٤) . وقد كان رباط البغدادية الذى

(١) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يروى نشأتها سنة ١٥٠ أو سنة ٢٠٠ .

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧١ ، قطف الأزهار ١٨٤ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ . وخطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ،

أبو السرور البكرى قطف الأزهار من الخطط والآثار (مخطوط) ١٨٤ .

كان موقوفاً على النساء الحيات بيتاً للصوفية من النساء ، وكانت شيختهن فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة حريصة على النفع والتذكير ، وكان النساء المقييات بهذا الرباط مقييات على وظائف العبادات حريصات على التفقه في شئون الدين^(١) ولا نظن أن التصوف في هذا العصر كان يعدو هذه المظاهر الثلاثة : الفقه والزهد والعبادة .

أما الزوايا فقد كانت تعد من قديم الزمان لإقامة بعض الصالحين للتعبد بين جدرانها ، ولم تكن تقام فيها الجمعة ، أول أمرها ، ثم تغير الحال وأقيمت الجمعة في أكثرها^(٢) . ويشير المقرئ في حديثه عن الزوايا إلى أنها كانت دوراً لعبادة الصالحين من الصوفية^(٣) وفقراء العجم^(٤) والخدام من الحبش والابناء^(٥) وغيرهم من أهل الصلاح والورع^(٦) .

الحياة في رحاب الخوانسار والربط والزوايا :

ومن دلائل الصعوبة في التفرقة بين هذه الأنواع من المعابد ، اشتراك الخوانق والربط في سبعة أمور وعدم انفراد أحد النوعين بخاصة تميزه عن النوع الآخر ، أما وجوه الشبه بينهما فهي :

- (١) أن الخوانق كالربط كانت بيوتاً يشيدها الأمراء والملوك والأثرياء ليقم فيها أهل التصوف ليلاً ونهاراً متفرغين إلى عبادة الله^(٧) .
- (٢) أنها كانت معاهد ثقافة يدرس فيها العلم الشائع يومذاك ، فكان

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) ج ٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٠ (٦) ج ٤ ص ٣٠٣

(٧) اعتمدنا في تصوير الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في هذه الفترة على خطط المقرئ (ج ٤) في الصفحات الآتية بيانها مرتبة حسب ترتيب الهوامش في صلب الكلام :

في رباط الآثار مثلاً درس لفقهائ الشافعية يتولاه مدرس بطلبة يعيشون لطلب العلم في هذا الرباط كما ضم بين جدرانته خزانة كتب تعين على دراسة العلم^(١)، وكان في الرباط العلائق قراء وعشرة من الفقهاء عليهم أن يحضروا يوماً في كل أسبوع^(٢)، وقد أشرنا إلى دراسة الدين في رباط البغدادية المعد للنساء . وأما الخوانق فحسبنا أن نسوق المثال بثلاث منها : خانقاه شيخوخو التي رتبت فيها مدة من الزمان دروس منها أربعة لطوائف الأئمة الأربعة ، ودرس للحديث النبوي وآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع ، وكان لكل درس مدرس يتولاه وطلبة اشترط فيهم ألا يتغيبوا عن حضوره وحضور وظيفة التصوف ، وخانقاه الجيغا المظفرى التي اشترط في فقرائها أن يحضروا وظيفة التصوف ، وكان بجانبها كتاب يقرأ فيه الأيتام من أطفال المسلمين كتاب الله ويتعلمون فيه الخط^(٣)، وخانقاه ركن الدين بيرس وقد نظم فيها درس للحديث النبوي له مدرس يتولى تدريسه ، وعنده عدة من المحدثين ، وضمت قراءا يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً حتى اكتفى أهلها بالعلم الذي توفر بين جدرانها ، فخرموا على الفقهاء أن ينزلوا ساحتها^(٤) . . .

(٣) إن الجمعة كانت لا تقام في أكثر هذه الخوانق والربط ، روى المقرئى في حديثه عن خانقاه سعيد السعداء — وهى من أكبر الخوانق التي عرفتها مصر — أن الصوفية بها كانوا يتوجهون إلى الجامع الحاكمى كل أسبوع لصلاة الجمعة في موكب جميل كان الناس يقبلون لرؤيته من مصر إلى القاهرة تيمناً ببركة أهله^(٥) وأن خانقاه سرياقوس التي انطلوت على مائة خلوة لمائة صوفى كان بجانبها مسجد تقام فيه الجمعة^(٦)، ولكن المقرئى يقول عن خانقاه البندقارية إنها كانت خانقاه ومسجداً لله^(٧) .

(٢) ص ٢٨٣

(٢) ص ٢٩٧

(١) ص ٢٩٦

(٦) ص ٢٨٥

(٥) ص ٢٧٤

(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧

(٧) ص ٢٨٣

وكذلك الحال في الربط ، لم يرد ذكر لإقامة الجمعة في غير اثنين منها (مع أن عددها عند المقرئ قد بلغ السبعة عشر رباطاً) وهما رباط الست كلية الذي كان رباطاً ومسجداً لله ^(١) ورباط الأفرم الذي ضم صوفية وشيخاً وإماماً ومنبراً يخطب عليه للجمعة والعيد ^(٢) .

(٤) أن منشئها كانوا يحبسون عليها الأوقاف ويجرون على أهلها الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، كان لصوفية سعيد السعداء في كل يوم طعام ولحم وخبز ^(٣) ، وكان في خانقاه ركن الدين بيبرس أربعائة صوفي وفي الرباط المجاور له مائة من الجنيد وأبناء العجزة ، فكان فيها مطبخ يوزع منه على المجاورين اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وتفرق الحلوى على كل فقير من فقرائها ، وإن كان هذا المقرر يتناسب مع حال النيل ورخاء العيش في مصر ^(٤) وكان هذا هو الحال في خانقاه بشتاك ^(٥) ، ورتب للطلبة في خانقاه شيخو طعام ولحم وخبز في كل يوم وحلوى وزيت وصابون في كل شهر وكان لها أوقاف جليمة ^(٦) ، وكان لفقراء خانقاه سرياقوص ثمن كسوة كل سنة وتوسعة في كل رمضان والعيد والمواسم ، فوق ما كان لهم من طعام شهى وخبز نقي ، وما كان يوزع عليهم من الحلوى وزيت الزيتون والصابون وثمر الفواكه عند ظهورها ، وفوق ما كانت تضم الخانقاه من السكر وألوان الشراب وأنواع الأدوية ^(٧) وهكذا نرى الأرزاق والمعالي والأوقاف في خوانق بكتمر ^(٨) وقوصون ^(٩) وأم أتوك ^(١٠) والخروية وطيرس ^(١١) .

وكذلك الحال في الربط وإن كانت الأوقاف التي حبست عليها والمعالي التي كانت توزع على سكانها والأرزاق التي كانت تصيب أهلها ، أقل بكثير

(٢) ص ٢٩٧	(١) ص ٢٩٤
(٤) ص ٢٧٦ — ٢٧٧ (٥) ص ٢٧٩	(٣) ص ٢٨٣
(٧) ص ٢٨٥ — ٢٨٦ (٨) ص ٢٩٧	(٦) ص ٢٨٣
(١٠) ص ٢٩٠ (١١) ص ٢٩٢	(٩) ص ٢٨٩

منها في الخوانق — كما نرى في رباط الآثار ورباط الأقرم^(١) والرباط العلائي^(٢). وأكثر الربط لم يذكر شيء بشأن أرزاقه وأوقافه.

(٥) ولما كان الغرض من هذه الأرزاق والاحباس تهيئة الجو الصالح لتفرغ المجاورين لعبادة الله ، فقد زودت بعض الخوانق والربط بالحمامات والمطابخ والمدافن ، ومدت بالفرش وآلات النحاس والسكتب والقناديل من النحاس المسكفت أو الزجاج المذهب وغير ذلك من الأمتعة والنفائس التي لا ترى في غير قصور الملوك والأثرياء كما نرى في خانقاه بكتمر وطغاي النجمي والرباط العلائي^(٣) وإن لم يتوفر هذا النعيم في الكثير من الخوانق والربط.

(٦) والظاهر أن بعض الخوانق قد ضم نساء ، فقد نص المقریزی على أن خانقاه سرياقوس كان بها حمام للرجال وآخر للنساء ، وأما في الربط فقد عرفنا أن النساء كان لهن رباط خاص بهن هو رباط البغدادية .

(٧) كان بأكثر الخوانق والربط قراء وأئمة ومؤذنون وبوابون ... فوق من ضمت من فقراء وشيوخ^(٤).

أما الزوايا فن الرائج أنها كانت في عصرى الأيوبيين وسلطين الممالك صغيرة الحجم قليلة الخطر ، يقيم فيها نفر ضئيل من العباد قد يبلغ العشرة كما نرى في زاوية الحصى^(٥) وقد تكون مكانا يتعبد فيه رجل واحد كما يتضح من كلام المقریزی عن بيبرس إذ يقول إنه بنى للشيخ خضر زاوية في جبل المزة وأخرى بظاهر بعلبك وثالثة بحماه ورابعة بحمص وخامسة خارج القاهرة^(٦) وأوضح من هذا قوله إن الأمير سيف الدين طغاي قد عمر زاوية

(١) ٢٩٥ — ٢٩٧ ص ٢٨٧

(٢) ٢٨٩ — ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٢٨٦ .

(٣) ٢٧٧ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وغيرها

من الصفحات .

(٦) ص ٢٩٨

(٥) ص ٣٠٣

ابراهيم الصائغ وأنزل فيها فقيراً عجمياً من فقراء الشيخ تقي الدين^(١) وقوله في زاوية أبي السعود إن الشيخ أيوب السعودى قد انقطع بها وتبرك الناس به . . . ولعل هذا الظن غير بعيد الاحتمال ، فان الزاوية كان يراد بها في العالم الإسلامى المكان الذى يختل فيه العابد ، قال ابن العربى : من شرط الشيخ أن تكون له زاوية تخصه لا يمكن أحداً من أولاده من دخولها إلا من كان خصيصاً عنده ، وزاوية تخصه ينفرد بها وزاوية لاجتماعه بأصحابه ، ومن شرطه أن يجعل لكل مرید زاوية تخصه ينفرد بها وحده ، ولا يدخل فيها أحد غيره أبداً ، وينبغي للشيخ إذا قعد المرید في زاويته أى خلوته أن يدخلها الشيخ قبله . . . (٢).

وقال السهروردى إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة عملهم وصحة حالهم فأروا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاويته^(٣).

والظاهر أن الزوايا في هذين العصرين (الأيوبيين والمماليك) كانت لاتعنى بدراسة العلم (أى الدين) ولم يقيم بها نساء ولم تجر العادة بأن تقام فيها جمعة ، وقد أدت بساطتها وصغر حجمها وقلة مجاوريها إلى ضآلة الأحباس والأرزاق ، وأغناها هذا عن وجود المطابخ والطواحين والحمامات والمدافن بها كما كان الحال في الربط والخوانق .

نشأة التصوف في مصر وتطوره منى مطلع العصر العثمانى :

والآن نعود إلى ما بدأنا الكلام فيه ، متى نشأ التصوف في مصر بهذا المعنى . . ؟ ثم كيف تطور حتى صار إلى ما كان عليه أيام العثمانيين . . ؟ قال المقرئى عند الكلام على خانقاه سعيد السعداء . . . لما استبد الناصر

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) محمد السيادى : البهجة السنية في آداب الطريقة العلية النقشبندية ص ٣٦ .

(٣) عوارف المعارف ص ٦١ (على هامش الإحياء ج ٢) .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد، عمل هذه الدار (سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية... (١) وقد أشرنا من قبل إلى خطأ على مبارك في تحديد هذا التاريخ.

ثم نشأت بعد ذلك خوانق وربط وزوايا أخرى عاش في أكثرها هؤلاء المتصوفة، وقل من هذه المعابد بأنواعها الثلاثة ما لم ينشأ بين النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للهجرة، والظاهر أنها بدأت تتلاشى في أواخر هذا القرن عندما دب الضعف في حكم سلاطين المماليك البحرية، خصوصاً إذا لاحظنا انحطاط النيل سنة ٧٧٦ ثم سنة ٧٩٦، وأثر ذلك في بعض الخوانق كخانقاه ركن الدين. يبرس (٢) ويسجل المقرئ سنة ست وثمانمائة للهجرة بداية لتاريخ المحن التي أصابت شتى مرافق الحياة في مصر، وهو العام الذي انتهت فيه دولة المماليك البحرية وتولت دولة المماليك الشراكسة، فنسذ هذا التاريخ أخذ يتلاشى الكثير من الخوانق والربط والزوايا، فمن ذلك خانقاه شيخو التي أخذت أحوالها في التناقص بعد هذا التاريخ، حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف فيها عدة أشهر (٣) وكذلك نقول في خانقاه بكتمر التي بطل الطعام والخبز فيها بعد هذا التاريخ، وانتقل سكانها إلى القاهرة وامتد التخريب إلى حمامها وبستانها وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ ضئيل من المال، وأقام بها حارس يتولى حراستها وتمزق ما كان فيها من الفرش والكتب وضاعت آلات النحاس والقناديل..

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٣، قطف الأزهار ص ٢٨٤.

(٢) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٨٣.

وغير ذلك مما أسلفنا الإشارة إليه^(١) وذلك ما أصاب خانقاه قوصون
وخانقاه سرباقوس^(٢).

ونقول مثل هذا في بعض الربط ، فرباط الآثار قد قلّ تردد الناس إليه
بعد تاريخ المحن ورباط البغدادية تلاشت أموره بعد هذا التاريخ^(٣) ويقال
مثل هذا في زوايا الظاهري والطرارية والمغربل^(٤).

ومما يشهد بصحة هذا الفرض الذى رجحناه وقوعه ، أن مصر لم ينشأ فيها
بعد هذا التاريخ من الخوانق والربط والزوايا التى ذكرها المقرئ سوى
خانقاه الخروبية التى أنشأها السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة ، وثوى فيها
عشرة من الفقراء^(٥) ، ولهذا كله دلالة ومغزاه .

وما حانت نهاية القرن التاسع واقتربت بداية العاشر حتى كان هذا
التصوف الجمعى قد شاع وانتشر ، اعتنقه العوام والدجالون واتخذوه وسيلة للعيش
وأداة لتضليل الناس وخداعهم ، وكانت الأسباب التى مهدت لذلك قريبة الشبه
ببعض الأسباب التى سنبحثها فى الباب التالى لنشرح بها انتشار التصوف فى
العصر العثمانى ، لأن حكم السلاطين عندما دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال
(فى أواخر أيامه) كان قريب الشبه بحكم العثمانيين فى مصر ، والنتائج
التي ترتبت على هذا الفساد فى الحالىن توشك أن تكون واحدة فيما يتصل
بالتصوف .

وقد استحال الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم — كما أشرنا
من قبل — ثم تطور الحال بالتكيا حتى أضحت أخيراً ملاجئ لإيواء
المرضى ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت ... بقيت الربط
والزوايا ، فأما الأولى فيظهر أنها لبثت قائمة فى مصر حتى نهاية عصر السلاطين ،

(١) خطاط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٢) ص ٢٨٩ و ٢٨٦ . (٣) ص ٢٩٥ — ٢٩٦ و ٢٩٤ .

(٤) ص ٢٩٩ و ٣٠١ . (٥) ص ٢٩٢ .

فالمناوى يقول إن رباط بركات الخياط قائم في الدرب الأحمر^(١) وبركات هذا قد توفي في العام الذي دخل فيه العثمانيون مصر (٩٢٣ هـ)^(٢) ولسكنا لانعثر على اسم الروابط في مثل هذا الوقت إلا لما ، مما يرجع الظن عندنا بأن اسمها قد أخذ يتلاشى في فترة الاضمحلال التي سبقت العصر العثماني .

أما الزوايا فلا يبعد أن يكون الكثير منها قد ظل قائماً لأنها أقدر على البقاء في مثل هذه الظروف من الربط والخوانق ، إذ أنها صغيرة لا تحتاج إلى مال طائل ، ولا يبعد كذلك أن يكون اسم الزوايا قد أطلق على كثير من الربط لأن الرباط في أصله لا يكاد يختلف عن الزاوية التي عرفت في العصر العثماني ، قال السهروردي والمقرئزي إن المقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلا^(٣) وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات^(٤) . ولعل هذا أظهر ما في دعوة المتصوفة الذين عاشوا في العصر العثماني كما سنعرف بعد — وترجع تحول الربط إلى زوايا غير بعيد ، فقد بلغ من أمر التشابه بينهما أن اختلط الحال على مؤرخ حديث عهد بها ، فلم يستطع أن يميز بين الربط والزوايا^(٥) . ومثل هذا يمكن أن يقال في بعض الخوانق ، فكثيراً ما يصادفنا في مصادرنا النص على أن زاوية ... (المهمندار مثلاً) كانت في الأصل خانقاه ثم تحولت إلى زاوية ... ولما فشمت الدروشة في العصر العثماني ، وافتن بها الناس ، علا

(١) الحطط التوفيقية ج ٢ ص ٧ .

(٢) الشعرائي : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) عوارف المعارف ص ٥٤ ، خطط المقرئزي ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٧ — ٥٨ ، خطط المقرئزي ج ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٥) هو صاحب الحطط التوفيقية (أنظر ج ١ ص ٨٩) .

شأن الزوايا ، فانتسح نطاقها وكثر المجاورون بها حتى بلغ عديدهم المئات . . .^(١) ولانت حياتهم حتى أصبحت رفاهية عيشهم في رحابها مثارافتان الناس بها^(٢).
ولئن كان التصوف في مصر قد أخذ في الاضمحلال منذ أوائل القرن التاسع الهجرى (أو قبل ذلك بقليل) فان من الراجح أن يكون قد عظم خطره وتمشى الفساد في أوصاله ، ونهياً لأهله سلطان واسع النطاق محدود الرحاب في أواخر هذا القرن وبداية القرن العاشر ، عند اضمحلال دولة السلاطين وبداية عصر العثمانيين ، لأسباب سنعرض لها بعد ، ولا بأس من أن نبسط في إيجاز شيتا عن نفوذ الصوفية في هذه الفترة — أى قبل مطلع العصر العثمانى في مصر .

نفوذ التصوف قبيل العصر العثمانى :

لعل ما أسلفناه يبرر القول بأن التصوف في مصر كان في جملته — إلى هذا العهد — مقترناً بمعرفة الدين والعمل بأوامره ونواهيه ، واتصف أهله بالصالح والورع وسعة العلم بشئون الدين ، وكانت لهم مكانة ممتازة بفضل انقطاعهم لعبادة الله وتجردهم لذكره ، وبفضل هذا آمن الناس بهم واعتقد الكثيرون في كراماتهم وأحسن بعض الحكام الظن بولايتهم ، وكان الاعوجاج في سلوكهم أو التهافت على طلب الدنيا عندهم يصادف عند جمهرة الناس استنكاراً واستياء ، ولكن الحال قد تطور في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجرى ، فانساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام واعتقه الوصوليون والأدعياء ، وظهر في كبار رجاله الجهلة الأميون حتى تتلذذ الشعراى — وهو عملاق عصره — على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم علم النحو . . .^(٣) بل كان

(١) أنظر وصف الزوايا وبيان العيش الرغيد فيها وموازنة هذا بحياة الضنك عند الفلاحين والتجار ومن إليهم خارجها في كتابنا : الشعراى إمام التصوف في عصره ص ١١٤ و ٢٦ — ٣٦ .

(٢) الشعراى : البحر المورود ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون . . . ولم يستهينوا بدراسة العلوم الشائعة في عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف خطراً وهو الزهد ، فتهاوت هؤلاء البعض على الدنيا وتسابقوا إلى الظفر منها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التمرد على أوامره ، وثاروا على أبسط نواهيه على ملا من الناس ، واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب — حكاهم وعلماؤه على السواء . . .

وكان كبار متصوفة هذا العهد لا يقيمون الصلاة أبداً . . . مدعين أنهم يقومون بأدائها في الأماكن المقدسة . . . وكان في طليعة هؤلاء عبد القادر الدشوطي وإبراهيم المتبولى وعلى الخواص^(١) وغيرهم من أصحاب الضرائح والمزارات بمن يوليهم العامة في مصر أبلغ آيات التقديس وأسمى مظاهر التقدير . . . وقد بلغ من نفوذ هؤلاء أن كانوا آثر عند الحكام وطبقات الشعب من كبار الفقهاء والعلماء المعاصرين ، فقد روى المؤرخون أن العثمانيين عندما ملكوا الشام وهموا بالزحف على مصر كان الأمراء المصريون قد تحققوا موت السلطان الغوري فاخترأوا من بينهم « طومان باي » ليخلفه في السلطنة ، فامتنع امتناعاً شديداً لأن خزان بيت المسلمين كانت خاوية ولا ينتظر أن يمثل الأمراء لرأيه في مقاتلة العثمانيين دون أن يمدحهم بالمال ، فذهب الأمراء إلى أبي السعود الجارحي واستعانوا به فأحضر مصحفاً وطلب إلى الأمراء مجتمعين أن يقسموا عليه بطاعة طومان باي ، ففعلوا جميعاً وبهذا تولى السلطنة طومان باي^(٢) ، ولهذا الحادث دلالة من حيث إثارة الجارحي على شيخ الإسلام ومفتي الديار وفقهاء المذاهب وسائر العلماء . . . وكثيراً ما كانت الشكاوى ترفع إليه في هذا العهد وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم

(١) الشمراني: البواقيت والجواهر ص ١٢٥ ج ١ ، درر الغواص ص ٥٥ — ٥٦ ، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ وفيها أن الدشوطي سافر للبحر ولسكنه لم يدخل الحرم . . .
(٢) ابن أبياس ج ٣ ص ٦٩ .

بالجلوس ، وقد حملوا الطوب والتراب في بناء زاويته^(١) . . .

وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى + ٩٢١ لأنه يتهمة بالتقصير في شأن الجهاد ، وتسامع الديروطى بذلك فمضى اليه حتى إذا حياه ، استقبل السلطان تحيته بالصمت ، فقال الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ، فقال الشيخ عندك المال الذى تعموها به . ثم طال بينهما الجدل فقال الشيخ للسلطان قد نسيت نعم الله عليك وقاباتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ورقاك إلى أن صرت سلطانا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجح معه طب ، ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلمة ثم يدسون أنفك هذا في التراب ، ثم تبعث عاريا عطشانا جائعا ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المادى من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم حصرها إلى الله . . .

وأرسل السلطان في طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه ، فما روى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس^(٢) .

ومثل هذا يقال في موقف شمس الدين الحنفى + ٨٤٧ مع السلطان فرج ابن برقوق^(٣) ، ومع غيره من الملوك والأمراء^(٤) وهذا شبيه بما كان يقع لغيره من رجال الطريق مع هؤلاء الأكاابر . . .

(١) مناقب العلماء والصوفية ٢٠٦ (مخطوط للشعراني) والطبقات الكبرى ج ٢ ص

١١٣ ، الكواكب الدرية ص ٤٧٨ .

(٢) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨١ ، بيت الصديق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ ، بيت الصديق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

فلتصور ما كان هؤلاء القوم من نفوذ على الاتباع والمريدين بعد أن
 تهيأ لهم هذا السلطان كله عند حكام البلاد من سلاطين وأمراء — وكم ألف
 خضعوا لكل ولي من هؤلاء واستكانوا له وآمنوا بدجله، واستسلموا لسلطانه
 واستحالوا أداة في يده، يعوزها العقل وينقصها الحس... كان الشيخ على
 وحيش ٩١٧+ كلما رأى رجلاً يركب حمارة، أنزله من فوقها، وقال له امسك
 رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة...! فان أبى الرجل تسمر في مكانه لا يستطيع
 حراكاً — أو هكذا خيل إليه من فرط اعتقاده في ولاية الشيخ...! وان استجاب
 لطلبه أدركه الحياء من سوء ما يفعل الشيخ على قارعة الطريق...! (١) بل لقد
 سخر الشيوخ أتباعهم حتى في الانتقام ممن يندد بهم ويتعرض بالنقد لتصرفاتهم
 فيطابق عليه أتباعهم يوسعونه ضرباً ويشخونه طعناً ويردونه إلى السكوت عن
 نقدهم كارهاً! كان السيوطي شيخ خانقاه سعيد السعداء، فرأى أهلها ينعمون
 في أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها، فوق أنهم غير معوزين، لأنهم يقتنون البغال
 والسوارى ويحززون الأموال، فقال لهم إن شرط الواقف ألا يمنح خبز
 الخانقاه وجامكيتا لغير الفقراء المحتاجين الذين توفرت فيهم شروط الصوفية
 المذكورة في رسالة القشيري وغيرها، فثاروا عليه وأوسعوه ضرباً وألقوه
 في الميضاة بئسابه وفاخر بعضهم بأنه ضربه «بالقبقاب» على كتفيه...! (٢)

وذلك فوق ما كان لهم من نفوذ روجي عند العلماء، وقد كان بركات الخياط
 ٩٢٣+ هـ موفور الثقة عند علماء الأزهر وحكام البلاد معا — وقد طلب إليه مفتي
 الجامع مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة، فاعتذر بأنه لم يتعود
 إقامتها...! ثم استجاب لالحاقهم وتحرى أن يتطهر بماء قدر نجس، فلما ضاقوا به
 انهمال عليهم سبا وطعنا...!، وضاق به الوالى مرة فضربه بعصاه، فغضب الشيخ
 لهذا وأقام بيباه وهو يقول: والله يا زربون ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك!..

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠.

(٢) الشعراني: العمود المحمدية ١٨٠ — ١٨١.

وتقول الرواية وسرعان ما أقبل الفرمان من قبل السلطان يحمل نبأ عزله. (١) واستطارت شهرته من جراء هذا العزل الذي كان وقوعه في مثل هذا العصر القاق المضطرب أمرا طبيعيا مألوفاً..

ومثل هذا يقال في موت علماء الأزهر على إبراهيم المواهي المتوفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، لأنه كان يقرر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » بحجة أنه يتحدث في الماهية .. ولما أقبل على مجلسهم أحداخوانه في الطريق « محمد المغربي » أمسكوا عن الكلام عند ما رأوه ، فقال لهم : تكلموا حتى أنكم معكم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الكلام .. فقال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومن طلب إيضاح ذلك فليقدم إلى أنكم معه ، فسكتوا جميعاً .. فأخذ بيد إبراهيم ومضيا فلم يتبعهما أحد من العلماء ... ثم عادوا فلحقوا بالمغربي وأخذوا يترضونه ، وهو ينهرهم غاضبا قائلا لهم إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم ، إنما هي طريق ذوق فن أراد منكم الذوق فليات أخليه وأجوعه حتى أقطع قلبه ، وأرقه حتى يذوق ، وإلا فليكيف عن هذه الطائفة فان لحومهم سم قاتل (٢) وفي ذلك ما يشير إلى مدى نجاحهم في النزاع الذي كان يقوم بينهم وبين الفقهاء .

أشرفت مصر على العصر العثماني وهي على هذه الحال ، فماذا كان أمر المتصوفة فيها إبانة ... ؟ ذلك ما نعرفه في الفصل التالي :

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٠١ .

الفصل الثاني

أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

اتصال العصرين : المملوكي والعثماني — حقيقة التصوف في هذا العصر
موقف المتصوفة من دراسة العلم (الدين) — موقفهم من العمل
مبلغ إخلاصهم في دعاويهم — وسائل اكتساب المشيخة — وصف
الزوايا — احصائية بأهم الزوايا — العبادة في رحاب الزوايا — الذكر
سندهم في ذكر الله — قيمة الذكر في عرفهم — طريقة الذكر
آداب الذكر — الخلوة — التزامات الخلوة — ثمرات الخلوة —
آية الخلوة الصادقة — أركان الطريق — تلقين الذكر — ادخال
الخلوة — أرشاء العتبة — لباس الحرقة .

تمهيد : اتصال العصرين

يكاد يعتقد الإجماع بين المؤرخين على أن المالك كانوا على عكس العثمانيين
إذا وفدوا إلى مصر ، تأقلموا ، واستعاروا من أهلها ما كان لهم من عادات
وتقاليد ونحوها ، مما أدى إلى وجود الفوارق البينة بين حكمهم وحكم العثمانيين
ويرى المخضرمون من أهل التصوف أن بين هذين العصرين هوة سحيقة القرار
فالتصوف في العصر المملوكي يتسم بالصدق في عبادة الله والتجرد لذكره والزهد
في طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، أما تصوف العصر العثماني فإنه يتصف
بالدجل والخداع والشعوذة ، ويكاد شيخ هؤلاء الكتاب المخضرمين — وهو
الشعراني ٩٩٨ — ٩٧٣ هـ — أن يحدد الساعة بل الدقيقة التي انحل فيها الطريق
ودب فيه الفساد وأعوزه الصدق والإخلاص ، وقد بدا ذلك في رأيه عندما

مات أستاذه (المرصفي) ٩٣١ هـ ^(١) بقية الخلف الصالح من أهل العصر المملوكي - وإن كان قد عاد - على عادته من مناقضة نفسه إلى تحديد هذا التاريخ بموت أبي العباس الجريشي ١٩٤٥ هـ مرة وبموت طائفة من المتصوفة الصادقين من أهل القرن العاشر مرة أخرى .

والرأى عندنا أن التصوف في حكم العثمانيين ، كان امتدادا للتصوف الذي عرف في أواخر عصر السلاطين وإن اختلفت تياراته في العهدين قوة وضعفا ومردا الخطأ في حكم الشعرائي ومن جرى مجراه ، إلى أن طبيعة الزهد من شأنها أن تحمل أهلها على احتقار الحياة والانصراف عن متاعها والنظر إلى مباهجها بمنظار أسود ، ومن شأن هذا كله أن يؤدي بصاحبه إلى تقديس الماضي على حساب الحاضر - أما غير الزهدة من الكتاب المخضرمين الذين ذهبوا إلى هذا الرأى فقد كانوا يعيشون في جو يحمل على التبرم بالحاضر ويدفع إلى الحنين للماضي وبهذا زعم هؤلاء الكتاب أن بين التصوف في حاضرم والتصوف في ماضيهم فرقا جوهريا كما قلنا من قبل ، فاذا أردنا أن ، نتق الزلل ونأمن وجه الشطط في أحكامنا ، وجب أن نكتفي بأخذ البيانات ومعرفة الحوادث من كتب هؤلاء الكتاب دون أن نعول على أحكامهم عليها كثيرا ولا قليلا ، فاذا التزمنا هذا المنهج في دراستنا عرفنا أن تصوف العصر المملوكي لا يختلف عن العصر العثماني في نوعه وأن ظهر فارق قليل الخطر في قوة التيار أو ضعفه ، ولا بأس من أن نسوق شاهدا واحدا ندلل به على منشأ الخطأ عند هؤلاء الكتاب المخضرمين :

يعرضون إلى المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر المماليك إن الخواص والمتبولى والدشروطى كانوا لا يقيمون الصلاة أبدا وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على

(١) كما ورد في تكميل النور السافر ص ٢٩٦ وذكر الشعرائي وفاته في عام نيف

وثلاثين وتسعمائة (الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣)

ملا من الناس .. ! ثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية والبرهامية والقادرية وما إليها كانت لا تلتزم أوامر الدين ونواهيهِ ، قتهمل الصلاة وترتكب الفاحشة .. الخ فتصوير موقف الفريقين من الدين في العصرين يوشك أن يكون واحدا ، فإذا تركنا رواية هذه الظاهرة إلى الحكم عليها عند هؤلاء الكتاب ، لاحظنا أنهم يقولون إن متصوفة العصر المملوكي كانوا يقومون بالصلاة في خفاء عن الناس في الأماكن المقدسة البعيدة ، وأن طي الأرض في لمح البصر كان جزءا من كراماتهم وأنهم كانوا يوهمون الناس بأنهم يرتكبون الفاحشة دون أن يقدموا على فعلها .. ! ! فإن عرضوا للحكم على فرق العصر العثماني وسموها بالدجل والشعوذة ، وقالوا إن طريق الله لا يبيح لأهله الخروج على كتابه والتمرد على سنة رسوله .. ! وبهذا كانت طريقتهم في التأويل منشأ الخطأ في أحكامهم . ومثل هذا يقال في تأويل الخلاف في أحكامهم مع الاتفاق في موضوعها

مفيدة التصوف في العصر العثماني :

كان التصوف في العصر العثماني لا يكاد يعدو الأغراض العملية التي أدت إلى وجوده ، وهي العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ومجاهدة النفس ورياضتها ونحو هذا مما أشرنا إليه من قبل ، فهو سلوك عملي لا نظر عقلي ، وقبلها كان هذا السلوك ينتهي بحال من أحوال الجذب والمحو والسكر والفناء ونحوه مما تحرى الكلام فيها أهل التصوف من قبل ، ومن هنا كان الطريق في هذا العصر أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح ، لأن التصوف نزعة فلسفية والدروشة أساليب خاصة في الذكر والعبادة ، ولم يكن روح العصر الذي عاشوا فيه ليلائم وجود مفكرين يحسنون النظر ويمجدون الفهم بالحدس والنوق ، وقد كان عصرا تستعبده الجهالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحي الحياة فيه ، ولئن كانت عصور

الاضمحلال عند الشعوب لا تخلو من أفذاذ يسبقون زمانهم ، فان متصوفة العصر العثماني قد وضعوا آداباً ألزموا بها كل من سلك على يدهم ، وكان بعضها يقضى بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما يعرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وآراء ، فقصوا بذلك على الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير في أذهانهم ، وادعوا بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها ، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد والعمل بما يرضى الله ، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأساً من غير وساطة ، واستمد منه — تعالى — القوة التي ترفعه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات ، ولما كان ادعاء هذا النوع من التصوف أمراً ميسوراً لكل إنسان ، وكان روح العصر يكفل لمدعى التدين والتصوف وافر الاحترام وبالغ التقدير ويقبل بفضل ما انتشر فيه من مدقع الجهل كل مظاهر الدجل والشعوذة ، فقد كثر مدعوا الطريق في هذا العصر ، وتهيأ لهم سلطان واسع النطاق ، وتغلغل نفوذهم في شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، وأضحى لهم من المريدين والأتباع كثرة يستعبدوها سلطان الشيوخ استعباداً فادحاً وكلهم يدعون القدرة على فعل الكرامات وإتيان خوارق العادات ، والناس يستسلمون لهذه الظواهر سراعاً ، ويقبلون على أهلها خفافاً ، فان عاجوا تعليلها اشتطوا في أمرها ، وعزوها إلى قدرة مستمدة من قوة الله في سمائه وقد كان إيمان الحكام الأثرياء بهؤلاء الدجالين يحملهم على مساعدتهم بالمال الذي يكفل لهم العيش الهنيئ المترف ، ويحيطهم بالعطف الذي يهيئ لهم أسباب الاطمئنان في الحياة الدنيا ، ووجد هؤلاء الأدعياء أن سذاجة الناس قد اغنتهم عن التزود بدراسة العلوم والتبحر في شئون الدين والسعى لاكتساب القوت وتحمل المشاق في ميادين العمل ، بل أغنتهم عن التزام الصدق في عبادة الله والزهد

في طلب الدنيا (١)

وبهذا كاد الدجل أن يطمس آية التصوف الصادق ويطغى نوره . . .
وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر ، تحوله من ظاهرة
وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل في حياة أتباعه في رحاب الزوايا
تحت إرشاد شيوخهم ممن مكنتهم شخصيتهم من اجتذاب المريدين ، ويسرت
لهم ثقة المحسنين من الأمراء والأثرياء ، الذين تسكفوا بكل ما تتطلبه حياة
هؤلاء المجاورين المنقطعين لعبادة الله في زواياهم ، إذ كانوا يعيشون مع زوجاتهم
من فيض الأوقاف التي تحبس عليهم والارزاق التي تجري من أجلكم ، وكانت
هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفاً ، وأبدت
حياة الشعب — من الفلاحين والتجار — حرماناً بالقياس إلى النعيم الذي
عاش فيه هؤلاء المجاورون . وقد ملأوا حياتهم بذكر الله وواصلوا عبادته
أفراداً وجماعات ليلاً ونهاراً وشغلوا وقتهم بالتهجد وقراءة الأوراد وتلاوة
القرآن وإقامة الصلاة ونحوها من شعائر الدين — وإن كثر بينهم من كان
يعوزه الأخلاص في مزاولة هذه العبادات ، والكثير من هذه الزوايا كان
حريصاً على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائده الدين في أمهات الكتب
المعروفة (٢)

أما اتجاهات هذا التصوف ومذاهب أهله في مجال الحياة العلمية والعقلية
والعملية والخلقية والسياسية فقد أبنا عنها في كتابنا عن الشعراني — مثل
هذا العصر — وسنشير إلى أعظمها أثراً في توجيه الحياة المصرية ، عند ما
نعرض لبيان هذا بعد .

وقد حفلت مصر بزوايا هؤلاء الشيوخ ، وكانت تتمشى في نموها وسعتها

(١) توضح هذه الفسكرة الأساليب التي يتبعها أهل الطريق في الظفر بالمشيخة وقد
شرحنا هذا في كتابنا عن الشعراء ص ٧٠ — ٧١
(٢) انظر في وصف الزوايا وتفصيل حياة المجاورين بها كتابنا عن « الشعراني » ص

ووفرة الرزق بها ، طرديا مع نفوذ أصحابها وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد لهم واجتذاب أهل اليسار إليهم . وقد كادت هذه الظاهرة أن تنقرض في مصر — بل في العالم الإسلامى كله — ولهذا آثرنا أن نسجل أسماء أظهر الزوايا التى عرضت لذكرها مصادر هذا العصر ، عسى أن يساعدنا هذا على تفهم الجوّ الصوفى الذى استغرق المصريين فى ذلك الحين ، ويسر لنا تقدير الأثر الذى ينتظر أن يكون له فى حياتهم .

أهم الزوايا فى هذا العصر :

زاوية ابن النقيب (وتعرف بزاوية بدر الدين المقدس) أنشأها السيد على ثم حولها أخوه بدر الدين ابن النقيب إلى جامع سنة ١٢٠٥ وكانت قائمة فى شارع القصاصين حارة البير قدار — زاوية أبى الحمايل (محمد السرو) سنة ٩٣٣ بين الصوريين — زاوية أبى خوده (على) بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردى — زاوية أبى السعود الجارحى المتوفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بالكوم الخارج بقرب جامع عمرو — زاوية الست آمنه زوجة البيومى سنة ١١٨٣ بحارة زوجها وبها معبده وضريحها — زاوية ابراهيم (أخى الدمرداش فى الطريق) سنة ٩٤٠ خارج باب زويلة — زاوية البكتاشية خارج القاهرة — زاويتا البكرية : الأولى ببركة الرطلى والأخرى بجوار الإمام الشافعى — زاوية البيومى سنة ١٨٨٣ بالحسينية وقد شادها مصطفى باشا — زاوية تفكشان بحارة قنطرة عمر شاه جهة درب الجمالين أنشأها الأمير محمد تفكشان سنة ١١٤٢ وكما يؤخذ من الأبيات المنقوشة على بابها ، كان فوقها مكتب لتعليم الأطفال — زاوية جلال الدين البكرى سنة ١٠١٨ هـ أنشأها سنة ٩٩٦ بشارع الأزهر على مقربة من الجامع وقد كانت صغيرة ليس لها مضاء ولا بئر ، بها حوض يملأ بالقرب بجوارها صهريج — زاوية الحبيبي جدها محمد الحبيبي شيخ طريقة الحبيسية سنة ١٢٤٧ هـ تقابل زاوية عز الدين الديماطى التى ذكرها

المقریزی بشارع السيدة زينب وليست هي كما يتصور العامة — زاوية الحريثي
 أنشأها عبدالرحمن الحريثي سنة ١١٨٧ — زاوية الحلوجي أسسها الشيخ مبارك
 سنة ٦٨٨ كما قال المقریزی ودفن فيها عبيد البلقيني سنة ٩٣٠ والحلوجي، وكانت
 تعرف به، بين المشهد الحسيني والجامع الأزهر (انظر زاوية عبيد البلقيني)
 — زاوية الحنفى بكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو، زارها عبد الغنى
 النابلسي سنة ١١٠٠ — زاوية الخضيرى سنة ٩٦٥ (خلف مسجد طولون
 بشارع الخضيرى) — زاوية الخلوقي (محمد كريم الدين سنة ٩٨٦) بشارع
 الجدرية حارة الجدرية — زاوية الخواص (على) بالحسينية — زاوية خوند
 على كشب من ضريح الشعراني بباب الشعرية على بابها إلى اليوم حجر منقوش
 عليه اسم فاطمة خوند تعبد فيها الشعراني فترة من الزمن — زاوية الدردير
 (العدوي) بخط الكعكيين بجوار ضريح يحيى بن عقب وبها عدة ضرائح —
 زاوية الدمرداش المحمدى سنة ٩٣٩ وقد دفن بها محمد بن عثمان دمرداش سنة
 ١١٩٤هـ — زاوية الديروطى بدمياط وقد دفن بها أبو العباس الحريثي ٩٤٥ —
 زاوية الذاكر (تاج الدين) سنة نيف وعشرين وتسعمائة بجوار حمام الدود
 خارج باب زويلة شارع السيوفية — زوايا رضوان: اثنتان من إنشائه، أنشأهما
 ١٠٦٠ إحداهما بشارع القرية والأخرى بشارع قصبة رضوان والخيمية
 والمغربلين جدها عبدالرحمن كشدوا والثالثة بها لوح من الرخام منقوش عليه
 أن الأمير رضوان أحيها بعد الاندثار سنة ١٢٠٦ بشارع سويقة اللالا
 (يبدأ عند انتهاء شارع الحنفى وينتهي بشارع الدرب الجديد) — زاوية الزاهد
 (أحمد) بجوار زاوية المناوى بخط المقسم — زاوية السحيمي (أحمد) بقلعة
 الجبل — زاوية السقاف (على العربي القامى) سنة ١١٨٣ على كشب من الفحامين
 وتسمى أيضا زاوية ابن العربي — زاوية الصفيحة (أحمد) سنة ٩٤٢ بشبرا قبالة
 القرية — زاوية سعودى المجذوب سنة ٩٤١ بسويقة العزى بقرب مدرسة السلطان
 حسن وبها قبره — زاوية السادات (الوفائية) بها عدة ضرائح كمحمد سنة
 ١١٧٦ وعبد الرحمن العريشى والزيات بحارة السادات الوفاية بجوار سراى

المرحوم مصطفى باشا أخى الخديوى اسماعيل باشا عن يمين السالك من رأس الحارة إلى بركة الفيل — زاوية شاهين (الخلوتى) بسفح المقطم شارع دير النحاس مصر العتيقة — زاوية الشامية أنشأتها الست الشامية سنة ٩٩٤ هـ بشارع الجدرية بقرب الفحمين — زاوية الشريبنى (عبد الوهاب) سنة ١١٨١ — زاوية الشناوى (محمد) سنة ٩٣٢ بمحلة روح وله زاوية أخرى بخط بين الصورين وقد دفن بالأولى — زاوية الشعراى (عبد الوهاب) سنة ٩٧٣ بباب الشعرية — زاوية الشمعة (أو الصارم أو عانوس) أنشأها الأمير شمعة أول القرن الثالث عشر الهجرى بشارع البيومى تجاه عطفة الخواص — زاوية الشنبكى (أحمد) أنشئت سنة ٩٣٣ شارع بين الحارات جهة باب الشعرية — زاوية عابدين أنشأها الأمير عابدين سنة ١٠٨٤ بشارع جامع أصلان بالتبانة — زاوية عبدالرحمن المجذوب سنة ٩٤٤ بالحسينية قرب جامع الملك الظاهر — زاوية عبید البلقينى ، مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بقرب الجامع الأزهر بالخلاوية (هى زاوية الخلو جى) — زاوية عصفور (ابراهيم عصيفير) سنة ٩٤٢ بخط بين الصورين تجاه زاوية أبى الحمايل — زاوية العجمى (بسفح الجبل) — الزاوية القادرية فى السكة الجديدة دفن فيها أحمد الجوهري سنة ١١٨٧ وهى بدرب شمس الدولة شارع الوراقين — زاوية الكليبانى (أبى الخير) أنشئت سنة ٩٢٧ — زاوية الكشنية — زاوية المتبولى (ابراهيم) شارع درب السماكين شارع كلوت بك وبها ضريحه وله زاوية أخرى بالحسينية على يسار الخارج منها إلى جنينة الشماشر جى المعروفة بجنينة السبع والضبع ولا صحة لزعم الناس القائل بأن فيها ضريحه ، فان قبره باسدود بأرض الشام — زاوية مدين الأشمونى كانت موجودة سنة ٩٥٢ كما قال المناوى بجوار زاوية الزاهد والمناوى — زاوية مرشد + ٩٤٠ شارع جامع أصلان — زاوية المرصنى (على) سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بقنطرة الأمير حسن بمصر — زاوية مصطفى أغا وكيل دار السعادة بشارع درب الجمامين سنة ١٢٠٧ — زاوية المناوى (عبد الرؤف) سنة ١٠٣١ بخط المقسم زاويتا أحمد الزاهد ومدين الأشمونى — زاوية المنزلاوى (محمد ابن داود) بالسمية

قرية في بلاد المنزلة - زاوية المنزلاوى (عبد الحليم) مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة - زاوية المنير (أحمد) المعروف بأبي طهية سنة ٩٣١ بخطط المقسم بجوار زاوية الشيخ مدين - زاوية المنير أنشأها محمد بن حسن السنودى المعروف بالمنير آخر القرن الثانى عشر بداخلها ضريح منشئها شارع اللبودية حارة مكسر الحطب بالقرب من قنطرة الموسكى على يسار الذهاب من السكة الجديدة إلى الحزاوى - زاوية المجذوب (على المصرى) سنة ٩٦١ داخل باب الشعرية - زاوية المهمندار أنشئت كما يقول المقرئى مدرسة وخانقاه سنة ٧٢٥ ثم جددتها سليمان أغا الفازوغلى وجعل بها منارة ومنبراً بخطط البرادعية من الدرب الأحمر - زاوية الموافى السندوبى ودفن بها ابن أخيه سنة ١١٤٠ كانت في مؤخر الجامع الكبير بالمنصورة - زاوية النشيلي (شهاب الطويل) مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة بمصر العتيقة - زاوية نور الدين بن العظمة المجذوب عمرت له بشارع سويقة السباعين - زاوية يوسف بك شارع الحوض المرصود بجوار مدرسة السلاح وأنشأها الأمير يوسف بك وأقام بجوارها سبيلا وحوضا لشرب الدواب سنة ١٠٤٤

هذا بعض ما صادفنا من أسماء الزوايا إبان هذا العصر ، أما عن حياة المجاورين في ظلها ، فقد تشابهت في أصولها وإن تفاوتت في مظاهرها وسعتها وعدد مجاوريها وألوان العيش بها ، وما من شك في أن الثبت الذي عرضناه بأسمائها ناقص ، وليس أدل على هذا من أن جميع الطرق التي هدتنا المصادفة إلى أسمائها قد تجاوزت الثمانين .. !

فلنعرض موجزين طرفا من العبادات التي زاولوها في رحاب هذه الزوايا :

العبادة في رحاب الزوايا :

وقد كان أكبر ما يشغلهم من أمر هذه العبادات ، الانقطاع للتهجد وذكر الله وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن . وبلى هذا الاطلاع على

كتب التصوف والعلوم الدينية إجمالا ، فلنعرض طرفا من رأيهم في ذكر الله ، وهو أكبر هذه العبادات خطرا ، ملتزمين في هذا العرض تصوير الجو الروحي الذي عاشوا فيه كما توهموه هم ، لا بالقياس إلى هذا الجو في غير عصرهم :

الذكر :

كلمة تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل بأفعاله^(١) ، وذكر الله المندوب اليه في السكتاب والسنة هو التوجه لله تعالى بكليته سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق به ، واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، وسواء كان في ذلك قائما أو جالسا أو نائما فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم^(٢) ، ولا يراد بالذكر تنزيه الله فان الله الكمال المطلق ، وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه ، ومتى قصد الذكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوهمه — تعالى الله عن ذلك — وليس يراد به طلب الحق فأنه موجود أبدا والمفقود هو الذي يطلب ، هو معكم أينما كنتم^(٣) ، وإنما يراد بذكر الله أن يشهد الذاكر ليلا ونهارا أنه بين يديه ، وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرننا^(٤) ، وكل ما خلا ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب^(٥) ولهذا أريد بالإكثار من الذكر حصول الأنس للبريد حتى لا يغفل قلبه ويشهد الله دواما فيراه بقلبه أو يرى نفسه في حضرته تعالى وكلا الحالين إذا دام منع صاحبه من الوقوع في المعاصي

(١) الرسالة المنصورية ٤٤٨ والغزالي يقصره على العبادات باللسان .

(٢) التعليم والارشاد ص ٦٤ وبيت الصديق ص ٢١

(٣) الشعراني : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ص ٢٦

(٤) العهود المحمدية ص ٣١٤

(٥) ردع الفقراء ص ٢٧

وكفاه مواطن الزلل (١) والذكر عمدة الطريق كما سنعرف - والغرض من الطريق هو القرب من حضرة الله الخالصة ومجالسته فيها من غير حجاب (٢) لأن المتصوف يحب الله لذاته لا لإحسانه (٣) ولهذا وجب على الذاكر أن يجعل ذكره للتعبد لا لطلب المقام (٤).

سندهم في ذكر الله :

مرد سندهم في هذا إلى رسول الله ، الذي قيل إنه لقن صحابته ذكر الله جماعات وأفرادا ، وقد حفلت المصادر ببيان هذا وتفصيل الطريقة التي اتبعها في الحالين (٥).

قيمة الذكر عندهم :

كان الذكر أثر العبادات عند أهل التصوف جميعا إبان هذا العصر - وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى (٦) فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز فقال قائلهم إن الذكر أثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه (٧) ولا عبرة بما يراه البعض من إيثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعا ، واتفقوا جميعا على أن ذكر الله والاشتغال

(١) الشمراني : المهود المحمدية ص ١١٣

(٢) : قواعد الصوفية ص ١١٤

(٣) : الجواهر والدرر ص ٢١٠

(٤) : درر القواس ص ٨٢

(٥) قواعد الصوفية ص ٨٩ وآداب النقشبندية ص ٤١ ودلالة السائرين لاسمنودي ص ٤٠

(٦) الأحياء للغزالي ج ١ ص ٦٤

(٧) قواعد الصوفية ص ٢٥

بريضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم (بالدين)^(١). على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون للمريد شغل إلا بربه ، وقالوا إن الذكر منشور الولاية أى أنه مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا مرسومات ، بالحق كبار الموظفين في الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصوف في هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللجاجة في تقديره وتقدسيه ،^(٢).

ولم تكن هذه اللجاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وحدهم ، وإذا كان ملوك الدنيا لا يأذنون لكل إنسان بالمشول بين يديهم ، وإن اشتهى ذلك ، فأحر بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله .

ومن هنا اشتدوا في حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين ، ومن ارتكب ذلك وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه ، وترك الاعتذار استهانة بمجالس الله^(٣).

طريقة الذكر :

كان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ما وسع الذاكر ذلك ، حتى لقد حدد البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التي يميل فيها عند نطق كل كلمة^(٤). وإن صرح البعض بأن هزة الرأس والذقن في الذكر ليست كل شيء فأهم منها احتراس القلب من الاسترسال في خواطره ومزيد مراقبته للحق في باطنه

(١) العهد المحمدي ص ١١١ والبحر المورود ص ١٠٣

(٢) أنظر مثلاً قواعد الصوفية ص ١٤ — ١٥ والبحر المورود ص ٢٧٤ — ٢٧٥

وردع الفقراء ص ٢٧ وقواعد الصوفية ص ٢٠٦

(٣) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٦

(٤) قواعد الصوفية ص ١٧ ودلالة السائرين ص ٢٨ والسير إلى الله لمحمد البكري

ص ٥١٩ وفي دلالة السائرين ص ١٤٤ شرح آخر لطريقة الذكر والنطق .

وظاهره^(١) وكلامه لا ينفي اهتمامهم بعنف الحركات وجمهورية الصوت . وقد شاعت الدعوة إلى هذا واستجاب لها الذاكرون كما سنعرف بعد قليل ، وكانت حجتهم في رفع الصوت جمع شتات القلب وتجنب الحياء من الناس في ذكر الله^(٢) .

ويلاحظ أن الجهر بالذكر كان غير محبب إلى الكثيرين من العلماء وحملة الشريعة ، فاستنكروه ورموا أهله بالكفر والزندقة والعبث باسم الله ، ولهذا كثرت الرسائل التي وضعها العلماء في ذلك — وسنعرف شيئاً منها فيما بعد . وغنى بعض المتصوفة باستفتاء الفقهاء الذين يبيحون الجهر بالذكر وحملوا إلى الناس فتاويهم يبررون بها طريقته^(٣) . ولدينا الكثير من الفتاوى بهذا الصدد وقد ثار العلماء يوماً على البيومي وجماعته لأسباب منها رفع أصواتهم في الذكر . واتصلوا ببعض الأئمة وكادوا أن يمنعوا الشيخ وجماعته من إقامة الذكر بالمشهد الحسيني كما اعتاد ذلك كل ثلاثاء ، ولولا أن الشيخ الشبراوي تدخل لنصرتهم ورفع البيومي عند الباشا لتم لخصومه ما أرادوا^(٤) .

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يكرهون الجهر بالذكر في المساجد ، فقد وجد بين المتصوفة من لا يبيحونه إذا نشأ منه تشويش على الذين يقيمون الصلاة أو يستمعون إلى حديث الوعاظ ، بل حرموه إن كان فيه إقلاق لراحة نائم^(٥) . وقد صرح بهذا (الشعراني) وإن كان قد حتم على من أراد منع الجهر بالذكر التزام الحكمة في طلبه ، وسياسة الذاكرين بالحنكة وحسن المعاملة ، واستشهاد

(١) الرسالة المنصورية ص ٤٤٨

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٢

(٣) عبد الغني النابلسي : رحلة النابلسي ١٣٣ إلى سنة ١٣٧

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩

(٥) البحر المورود ص ٢٢٧ — ٢٢٨

بالجنيد حين وقع له مع الإمام أحمد بن صريح جدال بهذا الصدد انتهى بانتصار شيخ الطريقة (١) والظاهر أن الشعرائي قد انساق إلى هذا التحذير من فرط ما ناله من الوعاظ الذين ساءهم جهره بالذكر مع جماعته كما سنعرف بعد (٢).

على أن الجهر بالذكر كان في الجملة أحب إلى أهل التصوف وفاء بحق الملائكة الكائين، فانهم رسل الله إلينا يكتبون أقوالنا وأفعالنا فنجهر بذكر الله رغبة في إشاعة السرور في قلوبهم ، لأن الملائكة تتفاخر بأعمال أصحابها كما يقول الشعرائي (٣) ثم إن الذكر سرأ قد يؤذى صاحبه ويشوى كبده ويحرق بطنه... وقد وقع ذلك لجماعة الشيخ عمر ببلاد العجم — وهو شيخ الشيخ دمرdash بمصر — حرم كبير المفتين على جماعته الجهر بالذكر وكانوا يبلغون الخمسة آلاف عدا ، فلما فرغوا من مجلس الذكر الذي التزموا فيه السرية حملوا منه في ذلك اليوم نحو نصف ألف أدركهم المرض واحترقت أكباد نحو أربعة عشر نفساً وخرجت من جنوبهم...!! وقد زعم راوى الحكاية للشعرائي أنه حسس بيده على أكبادهم فبين أنها مشوية محروقة كالسكب المشوى على الجمر...!! (٤) وقد سارت البكرية على الجهر بالذكر من قديم الزمان فهي اليوم تبيحه للفرق ، وقدما كان الحنفى + ٨٤٧ يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالذكر في الأسواق والشوارع والمواضع الخربة المهجورة حتى تشهد للذاكرين يوم الدين (٥).

وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون يفسدون الأشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين وإن كان بعض الصوفية الذين زاروا

(١) المهود المحمدية ص ١١٢

(٢) المناقب الكبرى ص ١٤١ انظر كتابنا عن الشعرائي

(٣) البحر المورود ص ٢٣٣

(٤) المهود المحمدية ص ١١٢

(٥) الشعرائي : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٧

مصر في العصر العثماني وكانت لهم مكانة ملحوظة عند أهل التصوف، يرون أن إنشاد أشعار العارفين — من ابن العربي والتلساني وغيرهما من السادة الصوفية — لا يجوز لغير القادرين على فهمها الذين لا تلهيهم بالطرب النفساني وإلا كانت مجرد لهُو وبطالة^(١) ويقول (عبد الغني النابلسي) إن الصعق والزرق والصياح والاضطراب والتواجد عند سماع المغنيين في مجالس الذكر جهل من أصحابها، إلا إذا قام الذاكر للتواجد قومة المضطر الذي استفزته المعاني الإلهية الواردة على قلبه وخاطره في ذلك الوقت — والكمال دوماً في السكون^(٢) والظاهر أن هذا الرأي لم يكن شائعاً بين الذاكرين في مصر، فقد وصف النابلسي في كتاب آخر مجالس الذكر في جامع عمرو بن الفارض فذكر الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمام ونزع الثياب والزحام ونحو ذلك^(٣).

وكان يملأ الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات، وقد رأى النابلسي أنها لهُو وجهل وبطالة لا ينبغي للشيخ المرشد أن يقر عليها أصحابه^(٤).

آداب الذكر:

وضعوا للذكر كثيراً من الآداب يسبق بعضها الذكر ويصحب بعضها ويعقبه بعضها الآخر، فأولها التوبة والتطهر والصلاة ونحوها، وثانيها يحدد طريقة الجلوس والجلو الذي يختار لذلك، وحالة القلب والخاطر واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك، وثالثها التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد^(٥)... الخ

(١) النابلسي: كشف النور ص ٩٢ (٢) كشف النور ص ٩١

(٣) رحلة النابلسي ص ١٤٠ — ١٤١ (٤) كشف النور ص ٩١

(٥) قواعد الصوفية ص ١٥ (وكل نص لم يذكر مصدره في آداب الذكر فهو مأخوذ عن هذا الكتاب ص ١٥ — ١٨ وقد نقل صاحب كتاب (آداب النشيدية) هذه الآداب ص ٤٩ وما بعدها وكذلك فعل صاحب دلالة السائر ص ٢٤ وما بعدها السير إلى الله ص ٥١٩ وتحفة المالك ٤٥٩ والوجه المقابل لصفحة ٤٥٩ (في المخطوط)

ثمرات الذكر :

يؤدي الذكر إلى التزام الطاعات وتجنب المعاصي، بل يسلم الذاكر إلى حضرة الله، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه، فينبثق العلم في نفسه، ويزيله الشك في أمره، ويصبح باتصاله بالله قويا بعد ضعف آمنا بعد خوف، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل !..

هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة، الذين أعوزهم العيش على ما يحبون، وجعلوا الاتصال العلي، الذي يربط بين المعلولات وعلمها، فصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون !..

الخلوة :

كان المراد بالخلوة اعتزال المريد للناس للتفرغ لذكر الله والانقطاع لعبادته، ولهذا كثرت الخلوات بين جدران الزوايا وخارج جدرانها، روى النابلسي في رحلته إلى مصر أنه لما زار زاوية الدمرداش رأى خارج ضريحه نحو خمسين أو ستين خلوة ذات أسوار وأنوار، وهي التي تسمى مساجد الأنوار يختل بها المريدون، وصعد إلى سطح هذا القصر العالي (الزاوية) فوجد هناك رواقا كبيرا يتلأأ نوره وفيه كذلك كثير من الخلوات (١).

ولعل انتشار الزوايا في أرض مصر يساعد على تصور كثرة الخلوات التي عرفها أهل التصوف أيام العثمانيين، بل لم تكن الزوايا وحدها مقر الخلوات، فقد وجد بين المتصوفة من أخلص العبادة لله أو لمنفعة نفسه دون أن تكون له زاوية يقيم فيها مع مريديه. وقد أقام بعض هؤلاء مغاور، يختلون بها للتعبد والذكر. وكان بعض هذه المغاور رحبا ملحوظ التناسق. فكانت مغارة الشريف أبي عبد الله المغاوري، منقوشة في الجبل مستوية مهندمة طولها داخل الجبل نحو خمسة وستين ومائة قدم وعرضها

أكثر من عشرة أذرع^(١) وكانت الخلوات تقام أحيانا في المنازل وتزدان جدرانها بالكلمات المساثورة وقد كانت خلوة جلال الدين البكرى بداره قاعة صغيرة جدا بايوانين متقابلين وهي لطيفة البناء ظريفة الفناء بها النور الساطع والسر اللامع المقاطع ، وعلى جدرانها اثنان وعشرون بيتا من الشعر نظمت بتاريخ عام ٩٧٩ هـ^(٢) .

التزامات الخلوة :

ولللخلوة التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المريد نفسه قبل دخولها نذرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته ، لأن الجوع يحلل من جسمه الأجزاء الترايبية والمائية . أما الشبع والارتواء فيجلبان النوم ويصرفان عن ذكر الله . ومن الأدب تيقظ القلب في حضرة الله ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارض :

إذا ما بدت ليسلى فسكلى أعين وإن هي ناجتني فسكلى مسامع^(٣)
ومن آدابها صفاء النية والرغبة في السكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره^(٤) وانقطاع المريد عن زوجته وولده وعشيرته وسائر الناس^(٥) ، وإدامة تفكيره في شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين كما يقول الشعراني والمنير^(٦) وإن تفاوت أهل التصوف في ذلك^(٧) ،

(١) رحلة النابلسي ص ١٤٠

(٢) رحلة النابلسي ص ١٣٠ وبيت الصديق للسيد توفيق البكرى ص ٦٢ — ٦٣

(٣) العهود المحمدية ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٤) على البيومي : خواص سورة الفاتحة ص ١٣ و ١٤ ودلالة السائرين ص ٦٠

(٥) على البيومي : خواص سورة الفاتحة ص ١٤ (مخطوط)

(٦) دلالة السائرين ص ٧٠

(٧) انظر خواص سورة الفاتحة ص ١٣ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٧

و ص ٧٩ والسكواكب الدرية ودلالة السائرين ص ٦٩

هذا بالإضافة إلى آداب المريد نحو الصور والأشباح التي تتراعى له، وعلى المريد ألا يكتف عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته^(١) مما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه، وهذا فوق شروط الخلوة^(٢) ونحوها.

ثمرات الخلوة:

إذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأنت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل، منها أن يكشف المريد عالم الغيب المحجب، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة فيمشى على الماء ويطير في الهواء ويقتحم الزيران ويفعل كل ما لا يقوى عليه سائر البشر^(٣)! أقام المنزل لاوى في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختما وفي النهار ختما ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عدداً ويتعهد بالانفاق وجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المدارس ومد الأسطمة وغير ذلك^(٤) وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب في زحمة الحياة، والظفر من الدنيا بأوفى نصيب، فالتمسوا في عالم الخيال تحقيق ما يشتهون..!

أركان الطريق:

قالوا إن العصر العثماني قد أقبل وللطريق في مصر أركان أربعة لا يستقيم بغيرها، ولا يتولى المشيخة واحد من أهلها إلا إذا توفرت فيه خصائص هذه الأركان — التي تهيأت لأرباب الطريق قبل العصر العثماني في عرف الداعين إليها — وهذه الأركان هي: تلقين الذكر، إدخال الخلوة، إرخاء العدة^(٥)

(١) أنظر عبد القادر العيدروسي: تكميل النور السافر ص ٢٣٨ والجبرتي ج ١ ص ٣٤٠

(٢) دلالة السائرين ص ٦٢

(٣) كتب الطبقات والمناقب حافلة بهذا النوع من الكرامات .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

(٥) الشعراني: الجوهر المصون ص ١ (مخطوط)

— وهي الزيادة المدلاة من العامة — وإلباس الخرقة . وهي عرقية وجبة ورداء^(١) ، أو طاقية من القطن^(٢) ، أو هي الأثر قميصا أو رداء أو جبة أو عمامة...!! وللشيخ الذي يقوم بهذه المهام الأربعة شروط تخرجه في عرف المنطق عن نطاق البشر^(٣)...!!

هذه هي الأركان الأربعة التي هيأها الوهم لأرباب الطريق ، وفي الحق لقد كان لهذا الوهم ما يبرره ، فقد فشى الدجل واستشرى داؤه وكثر أدعياء التصوف واستفحل أمرهم ، وقد بلغ عديد الطوائف التي هدتنا المصادفة الى معرفة أسمائها نحو الثمانين طائفة . لكل منها معسكرات في القرى والأقاليم ، وهذا خلا الذين ادعوا التصوف مستقلين عن الفرق وشيوخها...! ومن الخير الآن أن نبسط الحديث في هذه الطوائف وليكن ذلك في الفصل التالي :

(١) انظر قواعد الصوفية ص ٢٠ و ٢٣٦ — ٧ والجوهر المصون ص ٣ و ٤ ودرر

الفواص ص ٧٢

(٢) المناقب الكبرى لمحمد الملبجى ص ٢٧

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٥ — ٦٦

الفصل الثالث

في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية — حال الطرق في وقتنا الحاضر —
الطرق أيام العثمانيين . احصائية ببعض أسمائها —
مميزات الفرق — تلاشي الفروق بين الطوائف

نشأة الطرق الصوفية :

يرى الأستاذ ماكدونالد أن المسلمين قد أثقلهم الجزع من الله الذي تخيلوه في صورة المستقم الجبار، وضاقوا بالحياة لأن الفناء يدركها والشر يملأها، وتصوروا الخير الأبدى في الآخرة وحدها فمالوا إلى الزهد في طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها، مخافة أن ينزل بهم غضب الله، وانطلق بعضهم هائما على وجهه لا يعرف لنفسه مقصدا ولا لحياته غاية، وكان هذا أظهر آيات الصوفي الصادق يومذاك، ثم استسلم الصغار لقيادة من يكبرونهم سنا وخبرة، فتألفت جماعات صغيرة تضم تلامذة يلتفون حول شيخهم الموقر، وبذلك ظهر نظام الإخوان في الإسلام وأنشئت الخوانق — في غير مصر — منذ القرن الثاني للهجرة^(١). وكان كبار الناسكين والأولياء يجمعون حولهم طوائف من الاتباع (ال دراویش) يحملون اسمهم، ومن أقدم هذه الفرق : القادرية التي أسسها عبد القادر الجيلاني سنة ٥٦١ والرفاعية التي أنشأها أحمد

(١) وقيل في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (انظر ص ١٠٨ في كتاب الحياة

الروحية في الاسلام لزميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمي)

الرفاعي + ٥٧٦ والشاذلية التي نسبت إلى الشاذلي + ٦٥٦ والاحمدية التي أنشأها أحمد البدوي + ٦٧٥ والنقشبندية التي أنشأها محمد النقشبندی + ٧٩١ والمولوية التي أسسها الشاعر الفارسي المعروف جلال الدين الرومي + ٦٧٣ هـ. ولا تزال هذه الطوائف وغيرها من الفرق التي نشأت بعدها قائمة إلى يومنا الحاضر. وثمة فرق اندثرت بعد أن قامت بفترة من الزمن، فابن سبعين كان له أتباع يحملون اسمه بعد مماته ولكن الزمان قد عفى عليهم فيما يلوح.

وكما ادعى المتصوفة أنهم ينحدرون من سلالة أنقياء المسلمين — ولاسيما العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة — فقد وجد من يدعون أنهم ينتسبون إلى الخلفاء الأول، وفي مصر من هؤلاء سلالة أبي بكر الصديق ولها نفوذ على شتى الطرق الأخرى كما أشار ما كدونالد^(١).

وقال علي مبارك إن أغلب الطرق منسوب إلى أربعة من كبار الأولياء: عبدالقادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، فإن لكل منهم طريقة واحدة خاصة ثم تعددت الطرق بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بالوساطة ونسبت إلى الآخذين عنهم لتفرعها عن الأصل — أحد السادة الأقطاب الأربعة — وتعددت الفروع حتى بلغت الاحمدية ستة عشر فرعاً وفي البرهامية فرعين. وقامت طرق أخرى مستقلة عن الأقطاب الأربعة كالسعدية والنقشبندية والشاذلية التي تفرعت إلى أربعة عشر فرعاً تفرع أحدها مرة أخرى (الخلوتية) إلى أربعة فروع^(٢) ولكن الأستاذ لين، يذكر السعدية على أنها فرع من فروع الرفاعية^(٣).

وفي طبقات الشرنوبى + ٩٩٤ أحد متصوفة العصر العثماني قصة خيالية طريفة أوضح فيها كيف اقسام هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم فكان لكل قطب ربعها، وقد صور في القصة النزاع الذي قام بينهم عند اقتسام الأرض

1. D. B. Macdonald : Muslim Theology (1903) page 177 (١)

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ (٣) لين Lane ص ٢٤٨

وتدخل الله وملائكته ورسوله وأوليائه للفصل في قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء وأخوانا^(١).

ولعل ما أسلفناه في هذا الفصل وما قبله يبرر الظن بأن تأسيس الطرق كان أمراً مردّه إلى شخصية الشيوخ ومهارتهم ، فقد ينتسب الشيخ إلى إحدى الطرق الأربعة أو غيرها فيجذب إليه كثرة من الاتباع والمريدين يحملون اسمه في حياته ، فإذا مات خلفه ابنه أو أحد مريديه أو أقاربه كما عرفنا من قبل ، وتسلسلت الخلافة واستقلت طريقته ، وحمل أهلها اسمه بعد مماته ، وقد تتفرع عن طريقته فيما بعد طرق أخرى بأسماء جديدة - كما أشار على مبارك وكما سنعرف بعد قليل .

ولسنا نعرف التاريخ الذي قامت فيه الطرق الصوفية في مصر على وجه التحقيق ، والراجع عندنا أنها نشأت بعد قيام الخوارج والربط والزوايا التي أسلفنا الحديث عنها في الفصل الأول ، ويؤيد هذا ما عرفناه الآن من أن نشأة الفرق في الإسلام كانت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وفي هذا التاريخ نشأت الخوارج في مصر كما عرفنا من قبل ، وأكبر الظن عندنا أن مصر لم تسكد تشرف على العصر العثماني ، حتى كانت تضم كثرة من الطوائف الصوفية نرى أسماءها تتردد كثيرا في كتب المخضرمين من كتاب العصر ، وفي طليعتهم الشعرائي .

حال الطرق في وقتنا الحاضر :

والآن نحاول تأريخ بعض الجوانب في الطرق الصوفية التي كانت قائمة في مصر إبان العصر العثماني فنحصى أسماءها ونحددميزاتها ونكشف عن علاقة شيوخها بالبلاد النائية عن مقرهم ، ولما كان ميدان هذا الحديث مظلمًا حالك الظلام ، وكان الكثير من الأمور تراثا يرثه الخلف عن السلف ،

(١) طبقات القرنوبى لمحمد البلقينى من ص ٣٩ إلى ٤٧

فقد أثرت الاستعانة على توضيحه بذكر تمهيد موجز يبين حال الطريق في يومنا الحاضر :

الطرق الصوفية القائمة اليوم في مصر خمس وأربعون طريقة^(١) لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى^(٢) لكل منهم مريدون يسلكون على طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب وبعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم على أكمل وجه يقتضيه الشرع^(٣).

قد هداني اتصالى ببعض كبار شيوخ الطرق في وقتنا الحاضر إلى أن الفوارق التي تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم ، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها . سألت صاحب السباحة السيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق السالف في مصر : لماذا كثرت الطرق ولم يقتصر شيوخها على طريقة واحدة .. ؟ فقال ولماذا كثرت في الدين المذاهب ولم يقتصر شيوخه على مذهب واحد .. ؟ قلت إن الفقهاء في كثير من المسائل على خلاف جوهرى أدى إلى وجود المذاهب المختلفة ، قال لعل أكبر الفوارق بين الطرق أن بعض شيوخها قد أثر العزلة عن الناس والابتعاد عن مشاغلهم محتليا بنفسه لينصرف إلى العبادة ويتفرغ إلى ذكر الله — وهؤلاء هم الخلوتية ومن سار سيرتهم . وآثر البعض الآخر ألا يقنع بعبادة الله بل يتصل بالناس ليتولاهم بالنصح والإرشاد

(١) من احصائية أمدنى بها صاحب السباحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى شيخ المشايخ السابق .

(٢) المادة التاسعة من الباب الثانى من لائحة الاجراءات الداخلية ص ١٣

(٣) وضع سباحة السيد توفيق البكرى شيخ المشايخ السابق مع فريق من رجال التصوف كتابا دينا أسماه «التعليم والارشاد» ليستعين به مشايخ الطرق وخلفاؤهم على ارشاد المريدين .

ويرفع عنهم ما هم فيه من غي وضلال ، وأولئك هم الشاذلية ومن سار
سيرتهم .

وإني لأذكر عند كتابة هذا شيخ الطريقة الحفنية (الحفناوى) + ١٨٨١
وأذكر ما رواه عنه الجبرتي من أنه أخذ الطريقة الخلوتية عن السيد مصطفى
البكرى ومع ذلك فقد كان قطب رضى الديار المصرية ولا يتم شئ فى الدولة
إلا بأذنه .. (١)

والمطلع على لائحة الطرق الصوفية فى وقتنا الحاضر يتبين من موادها
أنها ألغت أكثر الفروق التى كانت تميز الفرق بعضها عن بعض منذ القدم كما
سنعرف بعد قليل . هذا حال الطرق فى وقتنا الحاضر فماذا كان حالها أيام
العثمانيين ؟

إحصائية بالطرق أيام العثمانيين (٢) :

هدتنا المصادفة الى العثور على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدداً ، فقد روى
صاحب المناقب فى معرض الحديث عن الشعرانى أنه أخذ الطرق « كلها » عن
مشايخه وهى ست وعشرون طريقة هى طرق الرفاعية والقادرية والأحمدية
والبرهانية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية
والمدينية والفردوسية والخلوتية والهمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية
والأحمدية والعريزية والسعودية والمصاخرة والطيلسان والرداء والمنزر
وإرخاء العدة (٣) .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٥

(٢) وازن بين هذه الاحصائية وما يذكره الأستاذ « لين » Lane فى كتابه السالف
الذكر من طرق صوفية فى مصر ، وما يورده الأستاذ ماسينيون فى مادة Tarika فى دائرة
معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion & Ethics عن الطرق الصوفية
فى الاسلام .

(٣) المناقب الكبرى ص ٦٦

والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ما قام في مصر إبان العصر الذي عاش فيه الشعراى ، فان فى الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر فى هذا الثبت ، نذكر منها الآن ما لم يذكر فى ثبت المناقب السالف . ذكر الشعراى فى أكثر من موضع فى لطائف المتن فرقا منها : المطاوعة بالشرقية والصعيد (١) وفى قواعد التصوف يذكر طوائف البسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية (ولعلمها البرهامية) والملامنية والحيدرية .. (٢)

وفى العصر العثمانى وجدت فرق تصادفنا اسمائها فى غير كتب الشعراى منها ما رواه الجبرتى عن أصحاب البدع كجماعات العفيفى والسيان والعربى والعيسوية (٣) وأخرى رواها فى مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية (٤) والشعيبية (٥) ثم الشناوية (٦) والشعرانية (٧) والمولوية (٨) ثم البراهمية والقدرية (٩) . وذكر عبد الغنى النابلسى فى رحلته إلى مصر فرقا

(١) الشعراى : لطائف المتن ج ١ ص ١٢ و ٢٣٤

(٢) : قواعد التصوف ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٤١

(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٦

(٥) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت الوفائية للسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٦) الجبرتى ج ١ ص ٢٨٩ والنابلسى فى رحلته ١٣٣ و « لين » ص ٢٤٩

(٧) الجبرتى ج ٢ ص ٢٢٦ (ترجمة لشيخ سجادتها الشيخ عبد الرحمن الشعراى سنة

١٢٠٥ هـ وذكرها الأستاذ لين ص ٢٤٩

(٨) الجبرتى ج ١ ص ٣٦٦

(٩) (والراجع أن المراد بالأولى « البرهامية » وقد كثر تحريفها واختلف المؤرخون فى اسمها فالسيد توفيق البكرى (٢٧٣ من بيت الصديق) والسيد عبد الحميد (فى الاحصائية السابقة الذكر) والشعراى أحيانا (١٢ و ٢٣٤ ج ١ لطائف) يذكرونها « البرهامية » وصاحب المناقب السكبرى يذكرها البرهانية (ص ٦٦) . أما الجبرتى (ج ٣ ص ٦) وعلى مبارك (الخطط ج ٣ ص ١٣٠) والشعراى (العهود المحمدية ص ٢٨١) فيذكرونها البراهيمية والأصح فيما نعلم « البرهامية » والراجع أن الجبرتى يريد بالقدرية طائفة القادرية المعروفة .

أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرداشية^(١) والبكتاشية^(٢) والكشنية^(٣). وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية^(٤) (ولعلها جماعة العفيفي التي ذكرها الجبرتي من قبل).

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هي : المرازقة والكناسية والانباية والمنايقة والحمودية والسلامية والحلبية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) والبيومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلها جماعة العربي السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ « لين » طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية^(٥).

وقال إن الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هي البازية والملكية والحبيبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيخا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد ، وأما القادرية فلا فروع لها ولا بيوت^(٦). وأما البراهمة (أى البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرانية (ولعله يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبي صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٩٤٠ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هي الجوهريّة والقاسمية والمدنية (ولعلها المدنية التي رواها صاحب المناقب) والمسكية والهاشمية والفروسية والتهامية والهندوشية والإدرسية والقاروقجية ، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هي

(١) رحلة النابلسي ١٣٣ و « لين » ص ١٤٩ (٢) رحلة النابلسي ص ١٠٣

(٣) رحلة النابلسي ١٠٦ ويرى على مبارك (في خطه ج ٣ ص ١٢٠) أنها تنسب إلى إبراهيم سنة ٩٤٠ هـ

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٨ (٥) الأستاذ « لين » ص ٢٤٩

(٦) الحطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ . وقد ذكر السيد توفيق في « بيت الصديق » ص ٣٧٣ فرعين لهذه الطائفة هما الغارضية والقاسمية وذكر الأستاذ « لين » أن السعدية فرع من فروع الرفاعية كما قلنا منذ حين .

السمانية والعفيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إلى السيد مصطفى البكرى^(١) وقد تفرع عنها أربع طرق هي الحيفية (المنسوبة إلى الحفناوى + ١١٨١ هـ) والسباعية والصاوية والضيفية^(٢) .

والظاهر أن الدر داشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية (المتفرعة عن الشاذلية) فان عبد الغنى النابلسى يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمعالجة الكيمياء فنفر عنه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمر داش حتى استقر شيخا للخلوتية في الديار المصرية^(٣) . وينصر صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلقى قد تلقى الخلوتية عن دمر داش المحمدى + ٩٣٣ هـ^(٤) . ولا ينبغي أن ننسى البكرية التي تزعمت الطريق فيما بعد .

وقد حاول السيد توفيق البكرى أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة في العالم الإسلامى كله ، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تحمله على الاكتفاء في تأريخ أكثرها بأن يقول : منسوبة إلى فلان ، أو موجودة بمصر الآن^(٥) وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التي تحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما في العصر العثمانى ، فقد كتبت الخطط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية فيه قد أخذ يضمحل — وإن كان ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضممحلال السلطان

(١) هذا رأى على مبارك والراجح أنه غير صحيح فالطريقة الخلوتية كانت قائمة في مصر قبل مصطفى البكرى وكان زعيمها في مستهل العصر العثمانى دمر داش المحمدى وتلاه تلميذه محمد كريم الدين الخلقى .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠

(٣) رحلة النابلسى ص ١٣٩

(٤) تكميل النور السافر ص ٧٥٣ (ويروى صاحب طبقات الشاذلية ص ١٣٦ أنه مات سنة ٩٣٩ هـ) ولعل الأول أصح .

(٥) بيت الصديق ص ٢٧٤ — ٣٨٦

الذى كان لأهلها فإن عددها في السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من احصائيتين نراهما في مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة في الزوال بمرور الزمان.

مميزات الفرق :

الخصائص التي تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لا تكاد تذكر، وأولها ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة؛ فأما عن الأول فقد عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى الأسمر كما يقول على مبارك « والأستاذ لين »^(١) أو الأسمر والأبيض كما يقول السيد توفيق، وعرفت القادرية بالزى الأخضر وإن قال الأستاذ لين أن يبارقهم وعمائم بيضاء^(٢) وعرفت بالزى الأخضر كذلك السعدية^(٣) ويقول على مبارك إن أعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم وزيهم الذي يميزهم هو الفاروق، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب المعتاد قراءتها ليس لها علم وزيهم الخاص هو التاج^(٤) وكان التاج من مميزات الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر^(٥)

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفيلا بتمييزهم، فإن الزى الأخضر مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية - بفرعها وكذلك نقول في الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع. وكان أولاد

(١) « ابن في كتابه » ص ٣٤٨ يقول أن رايات الرفاعية سمراء وعماماتها سمراء أو اللون الأزرق القائم

(٢) « ابن » ص ٢٤٩

(٣) بيت الصديق ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٩ و ٣٨٨ — الخطاط التوفيقية ج ٣ ص ٩٣٠

و« ابن » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٤) الخطاط التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ .

(٥) تكميل النور السافر ص ٧٥٣ .

نوح صغاراً يرتدون جميعاً طرايطير تزيئها من القمة خصل من الخرق ذات الألوان المختلفة ، ويتقلدون سبوا من الخشب ويمسكون سوطاً يسمونه «فرقة» (١)

فأما وجه الخلاف بينها في طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثرنا عليه بين ثنايا السطور بما ذهب أشتاتا في بطون كتبهم ، إذ لم نهتد إلى مصدر عرض لوجه الخلاف بينها بإسهاب ولا إيجاز .

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها — كما يقول «لين» ، لكل طائفة ورد أو حزب أنشأه شيخها وحرص عليه أتباعه في حياته وبعد مماته ، يرددونه في الأوقات التي حددها لهم ويتلون جماعته دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم ، لأن مدد الشيخ في ورده كما يقول الشعرائي ، ولهذا كان من أعظم ما يقع فيه المرید من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذي رتبته صباحاً ومساءً ، وقد حتموا على المرید إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينبيء شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فإن كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه أمام إخوانه والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذراً يحتج به من قصر في حضور مجالس الورد (٢) بل لقد اعتبر بعضهم التغيب عن مثل هذه المجالس سبباً يبرر طرد الشيخ للمرید الذي يقدم عليه (٣) ، وقد جرت العادة بأن يعتز الشيخ بورده ، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده أن يقرأ ورد غيره ، فمن ذلك أن الشيخ محمود الكردي قد سلك على طريقة القصيرى ولكننه رأى الحفناوى + ١١٨١ هـ في رؤيا وقيل له هذا شيخك ، فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية ، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة

(١) «لين» ص ٢٤٩ .

(٢) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٣) دلالة السارين ص ١٢٦ .

أوراد شيخه «القصيرى». فعاتبه فى هذا شيخ شيخه «السيد مصطفى البكرى»، وكان الكردى قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بارشاد المریدین وتریتهم، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى، فطلب اليه البكرى أن يستخير الله، ولما استجاب لمطلبه رأى فى منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره، وقال القصيرى للرسول: أليست طريقتى على طريقتك، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك...؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى...؟ فقال البكرى: يا رسول الله، رجل سلك على أيدينا وتوليننا تربيته، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا...؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل فى أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة...!! ورأى الكردى فى رؤيا وقعت له فى الليلة التالية. أن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى، ورأى بين السماء والأرض ورده وقد كتب بحروف مجسمة من النور، فأنشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك^(١)

على أن الأحزاب فيما نرى لا يميزها إلا اختلاف واضعيم لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه، وهى فى الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليبلغ الثمانين— كما فى نرى حزب الشناوى^(٢) أو الثلاثين كما نرى فى حزب الشعرائى^(٣) أو الثلاث مرات كما فى حزب الجارحى وغيره^(٤) بل لقد هدتنا المصادفة إلى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله— ماعدا خاتمه— من حزب الخصوصية للساداة الوفاية^(٥) أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب

(١) الجبرقى ج ٢ ص ٦٥ — ٦٦ ومن الواضح أن القصة مردها إلى حالة الكردى النفسية أثناء يقظته، فى إعجابه بالحقاوى ومخاوفه من القصيرى واعتقاده فى البكرية... الخ

(٢) مجموعة الأحزاب ص ٣٤ (مخطوط)

(٣) مجموعة لأحزاب ص ٢٨

(٤) مجموعة الأحزاب ص ٣٣

(٥) مجموعة الأحزاب ص ٣٣ ثم ص ١٧٨ — ١٨٠

الوفائية هذا — ونلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكري^(١) ومحمد أبي الحسن البكري^(٢) وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى في بيت السادات البكرية والوفائية^(٣) ووجوه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر في غير الصياغة اللفظية . ولهذا فإن أظهر الفروقات الأحزاب فيما يلوح لنا هو اختلاف منشئها .

وبلى هذا في وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها في بطون كتبهم ، منها ما رواه الجبرقي عند الكلام على أهل البدع كجماعة العقيفي والسماني والعربي والعيسوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم في ذكر الله ففهمهم من يتخلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات ، ومنهم من يقول آياتنا من بردة المديح للبوصيري ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي . وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صفيين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم ، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون ويتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم

(١) مجموعة الأحزاب ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٣

(٢) مجموعة الأحزاب ص ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢٥٣

(٣) تنظر مجموعة الأحزاب السالفة الذكر ، (فهرس رقم ١ المطبوع بدار السكتب في التصوف والعلوم الدينية) .

وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تبين الأخرى، (١).

ويمتاز فقراء الخلوتية في ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي، ولهم في ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه الطريقة (٢) أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها تردد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفي فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى في الأذن اليسرى وهي: لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم: الله - هو - حق - حي قيوم - ثم الاسم السابع في الأذن اليمنى وهو قهار - وقد أبان الدردير الطريقة التي تلقنها بها من الحفناوى المعروف (٣).

ولقد كان للسادات الدر داشية والخلوتية والشناوية طريقة في ذكر الله، فقد رويناها عن عبد الغنى النابلسي وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض، وذكروا الله في رقصة يسمونها الهوية قائلين هو هو هو هو (٤) وكان بعضهم يركبون أياديهم إلى الوراء أمام رؤوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفييل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك. كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى (٥).

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله، حتى إذا طاب لهم الذكر تواجدوا واضطربوا واستأقظوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيوخهم، ومن كرامات بعضهم في هذه الحال

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٢) الطريقة الصاوية ص ١٦ وما بعدها

(٣) الطريقة الصاوية ص ٣١ وما بعدها

(٤) رحلة النابلسي من ص ١٣٣ إلى ١٣٥

(٥) الصاعقة المحرقة ص ٢

إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى في أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك...!!^(١) ولعله العرق الناشئ عن الجهد، قد لوثته قذرة البشرة أو الدم الذي ينبثق من جروح تنشأ عن عنف الحركات...!

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز في عبادتها بذكر الله بصيغة يادائم، فقد قال الشعراني في ترجمة عبد العال المجذوب: «ورأيت مرة وهو صاعد كوم بلده فقلت في سري ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يا دائم يادائم يشير إلى أنه برهامى^(٢)».

ويرجح الدكتور عفيفي القول بأن الملامتية ولم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إتهام أهل الطرق المتأخرين، ولكن كانت لهم صفات وآداب تكفي في التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى ممن عاصروهم أو عاشوا بعدهم^(٣).

وفي السهروردي^(٤) والمقريزي^(٥) تفرقة بين الملامتية والقلندرية جاء فيها «أن الملامتي يعمل في كتم العبادات والقلندري يعمل في تخريب العادات واللامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه تستر للحال حتى لا يفتن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ولا يعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامتية لم يتغير كثيرا في العصر العثماني عما كان عليه أيام المقريزي، فالشعراني يقول إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور^(٦) وإن كان قد ذكرهم في كتاب آخر بين الفرق التي لا تتقيد بمظاهر الكتاب

(١) النصرة الإلهية للطائفة السعدية

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦١

(٣) أبو العلاف عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٤

(٤) عوارف المعارف ص ٣٠٤ (على هامش ج ٢ من الأحياء)

(٥) خطط المقريزي ج ٤ ص ٣٠١

(٦) البحر المورود ص ٢٨١

والسنة^(١) وإن كان ابن عربي « يرفعهم — في فتوحاته — إلى مقام في الولاية لا يدانيهم فيه أحد » فيما يقول الدكتور عفيفي .

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون في حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون السكّووس وأولاداً يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوه من الخلف تيمناً وبركة ، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رؤسهم أو على جنوبهم « ملاحف وسراويل » ، فإذا انطلق الفقراء في الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكبهم ضجة عظيمة ، وقد كانوا يتخذون « أباريق » يملأونها بالماء ويحملونها في أيديهم كلها ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين ، وسبحا كبيرة من الخشب أو العظام أو نحو ذلك ، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواق من السعف وطراطر يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها^(٢) .

ويعبر الجبرتي عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأَشَاير^(٣) والمراد بالأشَاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسرون من منازلهم ليلاً وبأيديهم الشموع وهم رافعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد ، ول بعضهم عادات من الحلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة^(٤) .

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التي تقوم على طعن النفس بالمدى في حالة الغيبوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدرداد

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٥ (مخطوط)

(٢) فتوى الشيخ على الصعدي (مخطوط)

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٨٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٣١

الآفაცი وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه ^(١) وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمتها على فاعليه .

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر ، وكانت طريقتهم في الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية التوبة والإجابة ثم يجلس المرشد (الشيخ) مستقبلاً القبلة جاثياً على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصقاً ركبتيه ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ... ثم يأمر المريد بأن يقول : أستغفر الله — أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسي عما نهى الله ، ورضيتك شيخاً لي ومرشداً لطريقة الرفاعي — فيقول له المرشد : وأما أقتك مريداً بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم مريداً في هذه الطريقة . أما طريقتهم في تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث تردد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين ، وإن رأوا مد الصوت في أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح — تحت الثدي اليسرى . حتى يقرء هاء ، لفظة الجلالة في القلب الكائن تحت الثدي اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع جبهته على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والاختلاص والبركة . !! ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو الطريقة بهذا الصدد مع ذكر أوراذهم الخاصة بهم والأدعية التي ألفوا تلاوتها ^(٢) .

أما الطريقة النقشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدي شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيمين له الشيخ محل القلب

(١) الأستاذ « لين » ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، الغارة الإلهية في الانتصار للسادة الرفاعية ص ٣٣ و٣٦ والكتاب كله منصب على منكرى هذا النوع من الكرامات .
(٢) القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية .

الصنوبرى الشكل الكائن تحت الثدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمرید يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الاخلاص ثلاث مرات ويهدى مثل ثوابهما الى صحيفة النبي وصحيفة إمام الطريقة محمد الادريسي المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المرید أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه اليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعدادة من أذكار نراها منشورة في الكتب التي تناولت آداب هذه الطريقة (١) ومن هذا نرى أن الفوارق في هذا الصدد شكلية تافهة .

وفي كتاب الأستاذ زين ، وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية في المولد النبوي وغيره من موالد كبار الأولياء .

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية في هذا العصر ، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذي يبررون به هذا المسلك . فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسيني + ١١٨١ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية (٢) وجمع على البيومي + ١١٨٣ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية (٣) وجمع الشعرائي + ٩٧٣ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيما سلف ، وجمع الدردير + ١٢٠١ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية (٤) .

نملشى الفروق بين الطوائف :

وعما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا في وجودها ما نراه من التطور الذى آلت اليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها ، فان لأئحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيذا لله ، صريحا قياما أو قعودا مع

(١) آداب النقشبندية ص ٤٠ — ٤١

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٣٢٩ وطبقات الشاذلية ١٤٣ .

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٥ — ١٥٦

الخشوع والوقار^(١) وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر ميز لها كما روينا عن الجبرتي وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة الى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفي فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية^(٢) وكذلك نقول في الرفاعية التي عرفنا الآن أعظم خصائصها، فان اللائحة السالفة الذكر تقول: يبعد عن الطرق الصوفية « كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والهوم ودرس الانام بالانعام ونحوها والذكر بهيمة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغاني المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار في الأضرحة ونحو ذلك^(٣) وفي ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم ميزا خاصا بهم في طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغنى النابلسي وغيره من قبل.

ولعل شعور أهل التصوف بمنالة الفارق بين طريقة وطريقة، هو الذي حملهم على أن يضعوا في لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة « يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لاتشابه طريقة من الطرق الموجودة في اسمها واصطلاحها^(٤) » فكأن الخلاف الوحيد الذي يبرر استقلال طريقة أو قيامها هو الاسم والاصطلاح. بل إن وجود لائحة تسيير عليها جميع الطرق وتحديد طرق العبادة على النحو الذي أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض. وقد أسلفت رأى صاحب السباحة شيخ مشايخ الطرق السابق في هذا الصدد.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التي وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء ؟

(١) لائحة الاجراءات الداخلية المادة الثالثة من الباب الخامس من ١٨

(٢) المادة الرابعة من الباب الثاني من ١٢

(٣) المادة الثانية من الباب الخامس من ١٧

(٤) « الخامسة » الباب الثاني من ١٢

أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به ^(١) . فما هي دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك ؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق التي تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها ، فكيف لا يصعب البحث عن المميزات التي كانت للطوائف منذ مئات السنين ... ؟ وأي طوائف ... ؟ هي التي هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها ، فكيف لا يتعذر على الباحث معرفة الفروق التي تميز كلا منها .. ؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التي بلغت هذا العدد الرهيب رئيس عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل في مشاكلها .. ؟ ذلك ما نتناول الحديث عنه في الفصل التالي :

الفصل الرابع

مشيخة مشايخ الطرق الصوفية

بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان في نشأتها بمصر ومبلغ الخطأ في مزاعمه —
رأى السيد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه — نشأة هذا اللقب في مصر
قبل العصر العثماني — تلاشى اللقب في العصر العثماني .

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية في مصر حتى بلغ عديد أسمائها التي هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة في القرى والأقاليم، واستبد نفوذها بهوى الآلوف من الاتباع والمريدين، وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد ونظم الدولة...!! ودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلباء الدين وعامة الشعب جميعا، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة في توحيد الزعامة التي تخضع لها هذه الطرق، حتى تأمن شرها وتبقى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض البلاد...!! ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس واحد يتخيرونه، ليتكلم باسمهم ويفصل في مشاكلهم وينظم علاقاتهم .

ومشيخة مشايخ الطرق في وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكي، شيخ السجادة البكرية (والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكرى بين المشيختين) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت التصوف في مصر وأقدمها جميعا، فهو منجدر عن أبي بكر الصديق، وتاريخ نشأته في مصر يرجع إلى الفتح الاسلامي كما يقول على مبارك^(١) ويؤكد

السيد توفيق البكري^(١) . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن يجتمع مشايخ الطرق في القطر المصري في هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رئاسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيسا للمجلس ، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية^(٢) وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل في منازعاتهم الخاصة بالطرق ، والحكم في الشكاوى التي تثار في هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية^(٣) . هذا مظهر التوحيد في رئاسة الطرق الصوفية في يومنا الحاضر . فهل توحدت رئاسة الطرق الصوفية في مصر إبان العصر العثماني ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق في مصر ، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأتها قبل العصر العثماني ، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون ؟

رأى جرجي زيدان ومناقشة مزاعمه :

قال جرجي زيدان : ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تتكثر بسبب ذلك الفتن ، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان .. وما زالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع الهجري ، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، قال الشعراني عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير

(١) بيت الصديق ص ١٩

(٢) المادة الثالثة من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ ، ٤

(٣) المادتان الأولى والثانية من لائحة الطرق الصوفية ص ٣

أبو السرور البكرى ، وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولا تزال إلى الآن في البيت البكرى الصديقي بمصر ، (١) .

وهذا كلام سطحي ينطوى على أخطاء تزيد على الثمانية فيما يلوح !.. فلنشرح هذا قليلا :

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مغالطتين ، لأنها تفرض قيام الزوايا في مصر قبل خانقاه سعيد السعداء — وذلك غير صحيح فيما نعلم — لأن هذه الخانقاه قد استحالَت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسمائة للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التي ذكرها المقرئ في خططه — وبلغت الست وعشرين عدا — ليس بينها زاوية واحدة نشأت في مصر قبل القرن السابع الهجرى ، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهملها في تأريخه للزوايا . ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التي كان يثيرها أهل التصوف في هذا العصر ، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة لا خطر لها . كان التصوف في جملته إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية ، لم تتحول بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن يكون بهذا مثارا للفتن ومصدرا للخطر . ولما أنشئت أول خانقاه جعلت للواردين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا ، وجل الزايا والربط والخوانق التي عرضنا للكلام عنها في الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأحباش وغيرهم من نزلاء مصر . وقد ظل عدد الدراويش المتجولين في شوارع مصر من الفرس والآثراك أكبر من عدد المتجولين من الدراويش المصريين إلى ما بعد انقضاء العصر العثماني — كما أشار إلى ذلك الأستاذ لين ، (٢) — ولا تظن أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة في هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، بيت الصديق ص ٣٧١ — ٣٧٢ .
وردد هذا الرأي زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمي في كتابه « ابن الفارض والحب الالهى » ص ١٥ — ١٦ .

وترهب فتنتهم ، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجي زيدان عن استقلال الزوايا أو خطورة الفتن قبل خائفاه سعيد السعداء .

والفقرة الثانية من كلامه تنطوي كذلك على مغالطتين أخريين : فأنها تنص على أن صلاح الدين قد أنشأ ، خائفاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، وأدق من هذا أن يقال إنه حولها إلى خائفاه ، فقد كانت داراً معروفة منذ العصر الفاطمي . وثاني الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخائفاه شبه تقدم على غيره من المشايخ (أى مشايخ الطرق التى يتحدث عنها فى فقرته الأولى) والراجح أن شيخ الخائفاه كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون فى الخائفاه ، إذ كان كل فقير منهم شيخاً لأنه يدرس الدين وينقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه ، ولم توجد فى الوقت الذى أطلق عليه هذا اللقب خوائق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوائق والربط والزوايا الأخرى .

أما الفقرة الأخيرة فتنطوي على أربعة أخطاء : لأنها تنص على أن رأسه الصوفية قد توحدت فى القرن التاسع ، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلى من حديث ، وتزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكرى قد تولى هذه الرئاسة فى القرن التاسع ، وأنه والد أبى السرور البكرى ، مع أن محمد شمس الدين الذى عاش فى القرن التاسع (+ ٨٤٧ وهو الحنفى)^(١) لم يكن أباً لأبى السرور البكرى (ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧)^(٢) فان أباه هو السيد محمد أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤ هـ على ما يروى على مبارك^(٣) وهو الشهير بالبكرى الكبير فى كتب التاريخ والطبقات والمناقب ، وهو الذى قال فيه الشعرانى إن الناس قد أجمعوا على أن

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤٨٩ بيت الصديق ص ٢١٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦

(٣) بيت الصديق ص ٧٤ ، الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢٦ والكواكب السائرة

ج ٣ ص ١١٢ ولكن العبدوسى يقول إنه مات سنة ٩٩٣ هـ (النور السافر ص ٤١٤) .

ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علماً من مصر ولا في مصر مثله (١) فإذا عدنا إلى الذين ترجموا لهذين الرجلين والتمسنا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان ، رجع عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فإن كتاب التراجم في هذا العصر وما بعده ، كانوا أسخياء في خلع الألقاب على من ترجموا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على لقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجموا حياته ، ولدينا من عرضوا لترجمتهما — الشعراني والمنأوى ومحمد أبو السرور البكري وعلى مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بأعلام بيت الله الحرام والسيد توفيق البكري ... الخ وليس في كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان (٢) . وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين نصوصاً تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين في عصرهما ..! وقول الشعراني عن السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه ، ليس دليلاً على أنه كان شيخاً للمشايخ ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، وسنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويتوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ .

رأى السير توفيق البكري ومنافسته : هذا الكلام السطى الذى لا ينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط في خطأ آخر ، قد صادف قبولاً عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكري الذى يرويه على علته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه في تأريخ البيت البكري ويؤثر ما جاء به على ما ذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات . فترجمو القرون التاسع (السخاوى) (٣) والعاشر (الغزى والعيدروسى والشبلى) (٤) والحادى عشر

(١) بيت الصديق ص ٧٥

(٢) بيت الصديق ص ٧٣ — ٧٨ أمثلة لذلك .

(٣) الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع (تسعة أجزاء) .

(٤) السكواكب السائرة بمناب أعيان المائة العاشرة (ثلاثة أجزاء) والنور السافر في أخبار القرن العاشر ، السنا الباهر بتكميل النور السافر .

(الحجى) (١) والثانى عشر (المرادى) (٢) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرى وابن اياس وأبى السرور البكرى والشعرانى بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمناوى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم ، لم يشيروا قط إلى وجود شىء اسمه مشيخة المشايخ فى البيت البكرى أو غيره من بيوت التصوف فى مصر . ولكن السيد توفيق البكرى يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث : مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف (٣) . ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من « حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة المشايخ الصوفية » ، ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ فى عرفه « قديم الزمان » الذى استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب .

على أن السيد توفيق وإن كان يروى رأى جرجى زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكرى وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه ، وإنما تبرع بخلعه على بعض من عاشوا فى مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى ، والغريب أنه ضمن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر ، بل بخل به حتى على الذين أثرت الضجة التى أسلفناها الآن من أجلهم ، من محمد شمس الدين البكرى (٤) ، وأبى السرور البكرى (٥) ومحمد شمس الدين الحنفى (٦) مما يشهد بضعف ثقته فى مزاعم المرحوم جرجى زيدان ، وإن لم يصرح بذلك .

فلنعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ فى دعواه :

(١) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (أربعة أجزاء) .

(٢) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (أربعة أجزاء) .

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٦ (٤) بيت الصديق ص ٣٦٦

(٥) بيت الصديق ص ٧٣ (٦) بيت الصديق ص ٧٠

(٦) بيت الصديق ص ٢٠٤ وما بعدها .

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثاني عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف^(١) والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف^(٢) والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف^(٣) والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف^(٤). فلاحظ أن السيد توفيق يضع في عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ! فإذا أنعمنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم رأينا أنه يقول في ترجمته الأولى «هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام تولى السجادة البكرية التي من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر في المعقول والمنقول وعلوم القوم توفي سنة ١١٢٥ ودفن بزاويته»، ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذي استقى منه كلامه كما فعل في أكثر التراجم التي ضمنها كتابه، ولهذا دلالة ومغزاه. ويروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى، نص ما ذكره الجبرتي في ترجمتهما دون أن يزيد عليه كثيرا ولا قليلا، وما يقوله الجبرتي عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التي تبرع السيد توفيق بخلعها عليهما في عنوان الترجمتين من غير مبرر! ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير^(٥) نص ما يقوله الجبرتي كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب، بل يقطع وجه الشك في أمرها فيقول «ولما توفي ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاها بعده باجماع الخاص والعام مضافة لنقابة الأشراف فحاز فخار المنصبين

(١) بيت الصديق ص ٤٠

(٢) بيت الصديق ص ١٦٠

(٣) بيت الصديق ص ١٤٠

(٤) بيت الصديق ص ١٣٨

(٥) قال علي مبارك في خطه ج ٣ ص ١٢٦ ان الكبير لقب يطلق في كتب التاريخ والطبقات والمناقب على محمد أبي المكارم زين العابدين أبيض الوجه المتوفى سنة ١١٩٦

وأكمل له فضل الشرفين ، ولم يقيم في ذلك إلا نحو سنة ونصف وتوفي ، فلو أنه تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتي أو أشار إليها . وكذلك يقول في السيد محمد البكري الصغير + ١٢٠٨ والذي وضع السيد توفيق في رأس ترجمته لقب شيخ المشايخ ، ثم أورد نص الجبرتي فيه من غير نقص ولا زيادة ، فإذا فيه « السيد محمد البكري أفندي الصديقي شيخ ساجدة السادة البكرية ونقيب الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين » (١) وكذلك الحال في السيد خليل البكري + سنة ١٢٢٣ هـ (٢) .

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ المشايخ ويضعه في عنوان ترجمته ، وليس في التراجم قط إشارة بتربر وضعه .

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين ، أن العصر العثماني قد انقضى بقرونيه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف في مصر رئيساً فذاً لهم ، يوحد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم .

نساء اللقب قبل العصر العثماني :

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان ! منذ القرن السادس للهجرة ، أي قبل دعوى جرجي زيدان بثلاثة قرون أو أربعة !.. بيد أن المعنى الذي يحمله كان يختلف عن المعنى الذي قصده به الأستاذ زيدان والسيد توفيق . قال المقرئ : فكانت « سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدورية الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر في ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة واتضعت الأحوال وتلاشت الرتب فللقب كل شيخ خانقاه « بشيخ الشيوخ » (٤) ويقول في

(٢) بيت الصديق من ١٣٢ — ١٣٣

(١) بيت الصديق من ١٣٧

(٣) خطط المقرئ ج ٤ من ٣٧٣

خانقاه سرياقوس ، قرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصر اوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء ،^(١) وكان ذلك عام ٧٢٥ هـ .

والظاهر أن المقرئى أراد أن يقول إن شيخ خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرتا بتنازعان هذا اللقب إلى أن زحفت المحن وتلاشت الألقاب في مستهل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الخوانق التي كانت قائمة بمصر في هذا العهد .

وقد أيد القلقشندي كلام المقرئى فقال : إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها ، والأمر على ذلك الآن ،^(٢) — وقت كتابة صبح الأعشى .

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ ، لا في مصر وحدها بل في الشام وغيرها ، فقد أورد القلقشندي نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها : فلذلك رسم بالأمر الشريف ... أن يفوض إلى المشار إليه (الشيخ نظام الدين الأصفهاني) مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس — فدى الله روح واقفها ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الاسلامية المحروسة على عادته في ذلك ، وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للبشار إليه ، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لاديوان المواريث معه في ذلك

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٥

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠

حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بأذنه على العادة في ذلك... (١)

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ في مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلي كان مقصورا على الصوفية المقيمين بخانقاه سرياقوس وحدها. والدلائل التي تحت أيدينا تنفي نفيا باتا وجود شيخ مشايخ — طوال العصر العثماني خصوصا — وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل في مشاكلهم على نحو ماذهب السيد توفيق ورجي زيدان، ولا بأس من أن نسرد بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى (٢) أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمري فاستغاث أقاربه بالشعراني ووسطوه لانقاذ السجين، فكتب الشعراني بطاقة إلى محمد شاه قال فيها : إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا..... وثانيهم بيت سيدي محمد شمس الدين الحنفى (وهو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) (٣)..... وثالثهم بيت سيدي مدين الأشموني (تلميذ الحنفى) (٤) ورابعهم بيت سيدي أبي العباس الغمري (سنة ٩٠٥) (٥).

وفي هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن في بيت واحد.

(١) صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٥

(٢) المناقب الكبرى ص ٨٤

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ وجاء في طبقات الشاذلية ص ١٢٧ أنه ولد

سنة ٧٥٥ ومات سنة ٨٤٧ هـ

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ إلى ٩٠

(٥) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٧

ويقول المناوى + ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوقي سنة ٩٨٦ هـ وصار هو وشيخنا الشعراني (سنة ٩٧٣) ^(١) شيخنا (يريد شيخنا) الديار المصرية، وكان بينهما ما يكون بين الأقران ^(٢)، ويلاحظ أن الشعراني والخلوقي اللذين كانا يتنازعا في الرياسة، قد عاصروهما فيها محمد البكري (٩٩٦ هـ) الذي عزأ إليه جرجي زيدان مشيخة المشايخ في أول أمرها.

ولقد كان الشعراني إذا تحدث عن كبار الشيوخ في القرن العاشر، قال لهم محمد البكري (الكبير) ومحمد كريم الدين الخلوقي وخليفة الشيخ دمرdash وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين . . . وكل واحد من هؤلاء لو انفرد في مصر وقراها، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا، ^(٣) ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم، ما أهمل ذكرها الشعراني أو المناوى أو غيرهما.

أما في القرن الحادي عشر فقد روى عبد الغنى النابلسي ^(٤) المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ أن محمدا أبا المواهب زين العابدين البكري ^(٥) كان له وحكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية، وأن نائبه في بلدة الخانقاه

(١) السكواكب الدرية للمناوى ص ٤٠، خلاصة الأثر للمحبي ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر للشلبلي ص ٦٥٧، مادة Alsha'rani بدائرة المعارف الإسلامية للاستاذ شاخت (وإن كان قد أخطأ في تاريخ ميلاده فجعله سنة ٨٩٧ هـ) وطبقات الشاذلية ص ١٤٢ — ولكن الغزى في كواكب السائرة ج ٣ ص ٢٧٦ قال إن الشعراني قد مات في حدود السبعين وتسعين.

(٢) السكواكب الدرية ص ٥١٩

(٣) بهجة النفوس ص ٨

(٤) روى السيد توفيق أنه مات سنة ١١٤٣ (ص ٤٠ بيت الصديق) وكذلك روى علي مبارك ج ٣ من خططه ص ١٢٥ وروى المحي أنه مات سنة ١٠٣٢ ص ٤٣٣ من ج ٢ خلاصة الأثر وذكر المرادى في سلك الدرر ج ٣ ص ١٣٧ أنه مات سنة ١١٤٣ هـ

(٥) روى الجبرتي أنه مات عام ١١٠٧ هـ وولد عام ١٠٦٠ (ج ١ ص ٦٩) وروى السيد توفيق أنه ولد عام ١٠٥٠ (بيت الصديق ص ٤٠) والأول أرجح وروى المرادى في سلك الدرر ج ١ ص ١٥١ أنه مات سنة ١١٠٧ هـ

كان الميقاتى على ما عرفنا (١) وحسبنا فى الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب ، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين (٢) رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة ، واقتبس منها جزءا فى كتابه ، وكذلك لم يشر على مبارك فى ترجمته إلى هذه المشيخة .

وقد تهباً للشيخ السادات (المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، وترجمة شتى الجبرتى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه فى أمرها (٣) . وقد أظهر الجبرتى فى هذه الترجمة — التى اطلع عليها السيد توفيق ونقلها فى كتابه عن بيت السادات الوفائية (٤) — أن السيد محمد البكرى الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملا لا حساب له ، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ .

ولعل هذا يفسر لنا نصا خداعا رواه الجبرتى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال « ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشراف البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل بقوانينهم العادية » (٥) فان ما يشبه هذا السلطان قد تهباً للشيخ السادات (الوفائى) بعد ممات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشيعية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد ، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين .

وسنعرف فى الباب التالى أنه بلغ من السطوة أن كان يمثل السلطتين التشريعية والتنفيذية لابين طوائف المتصوفة وحدها ، بل بين عامة الناس .

(١) رحلة النابلسى ص ٩٠

(٢) بيت الصديق ص ٤١

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٥

(٥) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

كذلك كما سنعرف عن « الأقطاب » الذين ظهروا في هذا العصر واستحوذوا على الزعامة في عصرهم ، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء في مختلف بقاع البلاد ... !

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة ، سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك ، ولعل أغلب الفترات التي مرت بمصر إبان هذا العصر ، كانت خلوا من هذه الشخصية التي تذكره مشايخ الطرق على السعي لمرضاتها ، والانقياد لأمرها والسير في ركبها .

بل لقد ورد في الإجابات التي رد بها حسين أفندي الروزنامي على الأسئلة التي وجهها إليه « ستيف » عقب الفتح الفرنسي ، أن أرباب السجاجيد في مصر أربعة ، هم الشيخ البكرى وجده أبو بكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام علي والشيخ العناني وجده عمر بن الخطاب والشيخ الحضيرى وجده الزبير ، وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة ، وأن المشورة لهم في جميع الأمور ... ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق ^(١) وقد أشار الأستاذ « لين » إلى أصحاب السجاجيد الأربعة ، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف في مصر ^(٢) ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا ، فإن الأستاذ « لين » قد نزل بمصر بعد انقضاء العصر العثماني بسبعة وثلاثين عاما (١٨٣٥ م ١٢٥٠ هـ) وقد أورد السيد توفيق البكرى فرمانا بتولية الوالى محمد علي باشا للسيد محمد البكرى عام ١٢٢٧ هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها ، وقد أهمل الجبرتي

(١) مقال الأستاذ الجليل شفيق غربال بمجلة كلية الآداب المجلد الرابع العدد الأول

سنة ١٩٣٨ ص ٢٥٠

(٢) كتاب الأستاذ لين السالف ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٩

ذكر هذا فرمان^(١)، ولكن نص الأستاذ لين، يرجح صحة هذا فرمان، وعلى هذا يكون قول «لين»، إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف.

ولابأس من أن نشير الآن إلى أن التعبير بمشيخة المشايخ لم يرد في فرمان محمد علي ولا في فرمان الذي تلاه في عهد سعيد باشا عام ١٢٧١ هـ وإن نص فيهما على العمل الذي يقوم به اليوم شيخ المشايخ.

فهذا اللقب حديث عهد، ونسبته إلى العصر العثماني أو ما قبله نسبة بادية الخطأ، إذا أريد باللقب المعنى الذي يحمله في عصرنا الحاضر، ولعل السبب الذي أدى إلى وجوده في العصر الحديث، مرده إلى الرغبة في القضاء على البدع التي كانت شائعة بين أهله، وفشو الضيق بأساليبهم بعد أن تفتحت أذهان الناس ونزعوا إلى النقد، وإذن فقد كانت الفرق في مصر أثناء العصر العثماني مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة — إذا استثنينا فترات تقضت وبين أهل التصوف — رجال أوتوا الشخصية التي تكفل لأصحابها السيادة وتضمن لهم بعد الصيت وسعة النفوذ، وتبدد المطامع من رؤوس المتنافسين وتستعبد لهم بسلطانها فإذا هم خدام أمناء وعبيد أوفياء.

ولكن كيف كان هذا النفوذ...؟ وما مدى تغلغله في طبقات الشعب وتسارعه إلى هيئات الحكم...؟ ذلك ما انفصل الحديث عنه في الكتاب التالي...

الكتابُ الثاني

نفوذُ شيوخِ الطرق

أحياءًا وأمواتًا

الكتاب الثانى

نفوذهم أحياء وأمواتا

ذكرنا فيما أسلفنا بعض ما انتشر فى أرض مصر من طرق الصوفية وزواياهم ، وعرضنا شيئا عن الحياة التى عاشوها ، والعبادات التى زاولوها ، ونريد أن نفصل فى هذا الكتاب مائتيا لهم — أحياء وأمواتا — من نفوذ استوعب وجوه الناس وطغامهم ، واستبد بعلماء البلاد وحكامها ، ونعرض بعض آثار النزاع الذى ثار بينهم وبين بعض الفقهاء ومن جرى مجراهم ، لنتبين مبلغ قوتهم ومدى تأثيرهم فى بيئتهم ، حتى يتيسر لنا أن نشرح فى الكتاب التالى أثرهم فى توجيه الحياة المصرية إبان عصرهم وما تلاه من عصور ، على قدر ما تسمح المادة وتسعف الملاحظة .

نفوذ شيوخ الطريق

١ - أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان — تحررهم من عرف البلاد ودينها —
مفارقات مصر — تحررهم من نظم الدولة وقوانينها — تمردهم على العرف
السائد عند أرباب الطريق .

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان:

حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم والمساجد والزوايا باجتماعاتهم، وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورهم عرشه، وتسرب إلى قصور الحكام فعبث بالقوانين، واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحي الفقراء في مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة .. !! وكانت مصر دولتهم في الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون في هذه الحياة الفانية كثيراً ولا قليلاً، وأن دولتهم إنما تقوم — كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق الممدود الرحاب — في جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس في شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والتأييد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين وألوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمهم النصر في أكثر المعارك التي أثار عثورها في وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته

وتطيعه جنوده ، أو لعالم يحمله تلامذته وطلابه ، وما كان الجندى الذى يتمرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرما — فى عرف الفقراء — من المريد الذى يسىء الظن بشيخه أو يتردد فى امتثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجته وفراق أولاده أو يمنع عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحتمه من شعائر وعبادات !..

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية ، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدما . وبالإيمان تذود الأولى عن عرشها ، وتقر فى القلوب سلطانها ، وتخيف خصومها وأعداءها . ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدما وأعظم نفوذا وأقوى سلطانا من دولة بنى عثمان — تلك الدولة التى كانت مطامع الممالك — ولا سيما فى النصف الأخير من العصر العثمانى — تثير فيها القلق والاضطراب ، بل لقد كانت فرق الجيش التى جاءت فى ركبها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائما ، وحرب يوشك أن يكون متصلا وكان الأعراب ، فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها ويشيعون الفرع فى نفسها . وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقا الخاطر نابية المضجع تنفق وقتها فى تدبير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المسكائد ، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عامر بالاطمئنان ، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها لانهتز لانكار المنكرين — وما كان أضعف نفوذهم — فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن روح العصر ، — بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الامن وظلم الحكام — عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس !..

تحررهم من عرف البلاد ودينها :

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلا على أن الأولياء كانوا فوق العرف

وفوق القانون — وقبل أن نعرض للكلام في ذلك ينبغي أن نشير إلى أن الأمثال التي تشهد بخروج الفقراء على الدين، تصلح أن تكون شاهداً بخروجهم على العرف كذلك ، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاعفت حتى كادت أن تزول وتتلاشى ، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر في القاهرة ، لا يعتبر خارجاً على العرف ، وإن عُدد خارجاً على الدين ، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثماني ، لأن الدين قد تغلغل إبانته في العرف حتى كاد الرأي العام في كل شيء أن يكون قائماً على الدين وحده ، وكانت مصر في عزلة عن العالم الأوربي الذي كانت النهضة الحديثة تتمشى في أعصابه وتشيع في كيانه ، فأضحت الحضارة القائمة في مصر حضارة دينية بحتة . فكان الناس لا يعرفون علوماً أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالغناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ، ولا رجالاً أخلق بقيادته في حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله ، وبهذا أصبح زعماءهم في ميدان السياسة وقادتهم في الحياة العامة وأساطينهم في مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق ، وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف ، وأضحى الخروج على قواعد الدين ، استهانة بالرأي العام وجرحاً لشعور الناس .

والآن نبسط بعض الشواهد التي تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط مبادئ العرف معاً ، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتنانهم لأقدس مواد القانون ، لنرى صدى ذلك كله في نفوس الناس ، ولنعرف مبلغ الصدق في قولنا إن الأولياء كانوا في مصر — إبان هذا العصر — دولة داخل الدولة :

يروى الجبرتي عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفاية عام ١١٨٢ هـ ، أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة ،

واستيقظ جشعه وعدم اكترائه برأى الناس في سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى، ويتنازل له في مقابلها عن نظارة وقف الشافعى، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف، نقض هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا... ١١ بل زاد فطمع في المشهد النفيسى والمشهد الزينى وباقي الأضرحة، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة وعلى الإيرادات ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم... ١١، وطلق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله. وأقلهم (كان) فى رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره فى طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهئية الرفاهية فى بيته، واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والماليك والعبيد والجوش والخصيان والتأق فى المأكل والمشرب والملابس وتعاضم فى نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج وحضور الحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور فى مجلس وردهم وصار يلبس قاروقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء... (١)

وكذلك كان ابراهيم المتبولى. كان يبيع فى بدء حياته الحصص، وقد مات أبوه فكفيلته أمه وتعهدت بتربيته (٢)، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية (٣)... وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرانى عن رأيه فى الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد فى الدنيا أول أساس يضعه المريد فى الطريق، فان أعوزه الزهد فى لذاتها والإعراض عن مباحجها أخفق فى تصوفه، وكان ما يبينه فى الطريق هباء منشورا (٤)...

(١) الجبرقى ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢٠٤

(٢) الأخلاق المتبولى للشعرانى ص ١٤ (مخطوط)

(٣) لطائف المنن ج ٢٢ ص ١١٩

(٤) الوصية المتبولى ص ٤ (مخطوط)

كان الشيخ على أبو خوده يحب الغلمان ، ويعبث بهم بحضرة آبائهم بالغاما بلغت مكانتهم (١) وكان كلما رأى امرأة «حسب يده على مقعدها» (٢) وما أكثر وقائعه معهن ... (٣)

وكان المجذوب محمد بن أبي بكر المغربي الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتنهات عليه نساء البلد ، فأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن «أهل الفضل كانوا يحترمونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويحمله الأعيان وتنهل عليه الهدايا ولا يرد له الوزراء شفاعة ، كما يقول الجبرتي (٤) وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، أجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوه من الخلف إذا اشتدت حماسة الذاكرين ، فإن أنكر عليهم ذلك أحد من الناس ، قالوا لا جناح على من مس دبر غلام ، وإنما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها !. وكان وجود الغلمان في حلقات الذكر ومواكبه جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة (٥).

وكان الشيخ «عبدالله + سنة ٩٣٧ هـ» يصحن الحشيش ويبيعه بخرائب الأزبكية فلا يناله من الناس أذى ولا ضرر ... بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كفّ عن تعاطيه ... !! كما يزعم المناوى والغزى (٦) . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوى أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، قائلين إن الغريبة بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه ، فكل ما نأخذه حلال لنا !. وكان «الشناوى» + سنة ٩٣٢ أول من نادى بإبطال هذه البدع ... (٧) وكان الفسء اللاتى يتصلن بالفقراء معرضات للزنا ،

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣ (مخطوط)

(٢) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

(٣) أنظر مناقب العلماء ص ٢٤٤ ب (مخطوط)

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٥) فتوى الشيخ الصعدي على فقراء المطاوعة (مخطوط)

(٦) ارغام أولياء الشيطان ص ٨٨ (مخطوط) ، السكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩

(٧) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

وقد اشتهر فقراء الأحمدية والبرهانية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتي يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشعراني بالذكر في معرض الحديث عن وقائع الزنا التي تحدث من جراء اختلاط الجنسين^(١) وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهم المغربية، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراءهم — فيما يقول الجبرتي...^(٢) وروى الشعراني في ترجمة الشيخ عبد القادر السبكي أنه كان يتكلم بما يستحي منه الناس ولا يرضى عنه العرف، وقد خطب مرة عروسا ورأها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهي في حضرة أبيها، لكي تطمئن على خلوه من البرص وبراءته من الخشونة وغيرها مما قد يستدعي الشكوى بعد الزواج، ثم تناول قضيبه في يده، وطلب إليها أن تمنع النظر إليه، لتطمئن على حجمه ومنظره...^(٣)

ويصف الأستاذ إدوار لين، هذه الحال ويشرح علتها في عرف الناس فيقول: إن المعتوه أو المجنون في عرف الجمهور، كائن عقله في السماء وجزؤه الكشيف على الأرض — إنه حبيب الله، ومهما ارتكب من الفظائع فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه، ولكن العلة في ذلك عند الناس، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله، مما أدى إلى العجز عن التحكم في العواطف — والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر، يحفظون في الحبس، أما الذين لا يخشى منهم الضرر، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله... ! ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون، يسير بعضهم في الشوارع عاريا كامل العري، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير — حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل

(١) المهود المحمدية ص ١٨٠

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٩

يأذن لهؤلاء الجبناء أحيانا بأن يكونوا معهم على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية — ولئن كان هذا نادر الحصول إلا أنه لا يعتبر في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة... (١)

هذا رأى «لين» الذى زار مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بنيف وعشرين عاما، ولعله احتاط فى التعبير أكثر مما ينبغى، فإن الحوادث التى رويتها عن مؤرخى العصر العثمانى — من الجبرتى إلى الغزى والشعرانى والمناوى — وهم من أهل هذا العصر جميعا — تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نادر الحدوث، ولعل الأستاذ قد أراد بهذه النادرة فظائهم مع النساء على قارعة الطرق، وليست الطبقة الدنيا وحدها هى التى كانت ترضى عن هذه الفظائع، وكثيراً ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء...

مفارقات العصر :

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يثير غضبهم، بل كثيراً ما كان يملأهم رضا واغترباطاً — على نحو ما عرفنا فى التعليقات التى صور بها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادئ العرف، وما كان السر فى هذا أن «روح العصر» كان يسمح بالتهاون ويوجب على الناس التسامح، فإن رأى العام فى هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطقوس والرسوم، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير، إذ بينما نرى هذا التهاون المفزع فى حساب من يعتبرون أولياء، نرى الطالب الذى لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي مالك السلطان حتى يمضى إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعاً عن دينه (٢) ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات فى رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح وإلقاء جثثهم فى اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفساً ومن المسلمين أدنى من

(١) كتاب الأستاذ Lane ص ٢٣٤

(٢) لطائف المتن ج ٢ ص ٤٣

ذلك بقليل^(١) ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة، فإن أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية^(٢). ونرى كيف يفتى العلماء بإحراق الذمي إذا سب مسلماً^(٣) ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كباراً وصغاراً^(٤) وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله في الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشدد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطعامه الحجر الذي يضع فيه الدخان والنار^(٥) وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الانتفاع بشمها كما هو الشأن في ثمن الخمر^(٦) ونرى كيف يلام الشبراوى لأنه أفتى بإباحة الحج للنصارى إلى بيت المقدس، وكيف يخرج الشعب والأزهريون اليهم فيرجمونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصاراً للدين^(٧) على نحو ما يفهمون — ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنباطى في الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمشون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم ويحطمون أوانيها ويضربون شاربها ولا تهدأ لهم نائرة حتى يفتى علماء آخرون بإباحتها^(٨) ونرى كيف يرضون عن قتل المرأة العاهر جزاءً وفاقاً^(٩) ونرى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشاً ورعونة وينحط قدر الشيخ البشيشى عند الجبرقى ووالده من أجل ذلك^(١٠) وأمثال هذه الحوادث التى تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيها العدد. وإن كان هذا التعصب لا ينفي انحلال الأخلاق عند أهله — على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان «روح العصر» يملئ على الناس التعصب في أحكامهم ويحملهم على فداء

-
- | | |
|-----------------------|----------------------------------------|
| (١) الجبرقى ج ٢ ص ١٧٣ | (٢) الجبرقى ج ١ ص ١٥١ |
| (٣) » ج ٢ ص ٩٦ | (٤) » ج ١ ص ٤٢١ |
| (٥) » ج ١ ص ١٢٧ | (٦) » ج ١ ص ١٦١ |
| (٧) » ج ١ ص ١٩٥ | (٨) أنظر كتاب عمدة الصفوة في حل القهوة |
| (٩) الجبرقى ج ٣ ص ٥١ | (١٠) الجبرقى ج ٢ ص ٢٦٢ |

عقائدهم بالروح وما ملكوا، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالتهاون في ظاهر الدين أو تخطى قواعد العرف، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للأذى وقادها إلى مهاوى الهلاك — وكان هذا معنى الدين في رموس الناس إبان هذا العصر — أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف — وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاعتباط، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية، فجاز لهم ما حرم على غيرهم، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته... فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردمهم عن غيرهم ويوجههم إلى أقوم سبيل.

وكان جمهرة الناس في مصر تخاف سلطان الأولياء الروحي وتخشى إن أساءت إليهم أن ينالها أذاهم ويصيبها «تصريفهم»، فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود «العرف» وتحرير شهواتهم من عقائد الدين، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون في بعض الأحيان ما يثير سخط الناس، فكان «أبو خوده» يأمر عبيده — وكان من غواة العبيد — أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه عطاهم... كما يظن الشعرا^(١) ولو صحت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمنكرين واحتقارا لسخطهم، ولا بأس من أن نشير الآن إلى أن المصادر التي أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء

الأولياء ، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث في معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم .. ! ولم يملأها عليهم حق ولا حسد ولا غير ذلك مما يجوز على الحق ويغير معاملة . !

تحريرهم من نظم الدولة :

وما كانت استهانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استهانتهم بعرفها ودينها ، فقد كانت أولى الأغراض التي حملت الأتراك على غزو مصر ، الطمع في خيراتها والرغبة في ابتزاز أموالها ، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن يجبي من الضرائب أعظم قدر ممكن — وكان الناس لا يمانعون في هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال ، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل في القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية^(١) . ولم يكن الإصلاح والعمل على رقي الشعوب من عمل الحكومات في عرفهم — فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغي أداؤه ، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء في أكثر الأحيان من أخذ الضرائب^(٢) . قال الشعراني إن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاوئته من ظلمة الحكام في مصر والريف ، فلا يعارضه ولا يعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحمايته^(٣) . وقال الجبرتي في معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها ، أنه كان يرأسل ويكتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر ، بل يرون أن أخذا منه من الكبائر ، وكذلك دواوين المسكوس المبنية على الإجحاف ، فكل ما نسب له

(١) شفيق بك غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ص ١٤ ، الحركة القومية

لرافعي ج ١ ص ٣٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٦٢

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ ، المناقب الكبرى ص ١٠٧

فيها فهو معاف^(١)، فان تعنت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان في أمره، « رسم » السلطان باعفاء أوقافه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرائي بعد مماته^(٢).

بل لقد كانت الدولة تمتد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز في زواياهم، فمن ذلك ما يرويه الجبرتي عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه، إذ حدث الوالي في ذلك. وكان محمد علي باشا المعروف بالمعزقي المتوفى سنة ١١٩٠ هـ، فكتب الوالي الدولة في هذا الشأن، وسرعان ما ورد الأمر باطلاق خمسين كيساً لمصرف العمارة من خزينة مصر، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لا يكفي عمارتها، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيساً أخرى، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التي في حوزته من الالتزام من المال الميري الذي يدفع إلى الديوان في كل عام، فأجيب التماسه^(٣)، وفي دار السكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التي أصدرتها الدولة التركية لرفع المظالم التي كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفاية^(٤).

والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني — أي في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغى الجنود، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة، وكثرت الأتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس، وبينما كان الضنك والظلم

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) المناقب الكبرى ص ١٠٧

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠١، بيت السادات الوفاية ص ١٦، طبقات الشاذلية ص ١٠٨ وكان تحويل الزاوية إلى مسجد سنة ١١٩١ هـ كما جاء في هذه الطبقات.

(٤) أنظر « فرمان رفع المظالم عن كفر طرشوب السكان في تصرف الوفاية » وآخر « بمنع التعرض لبعض أوقاف على زاوية الوفاية » و « شكوى من بعض علماء الأزهر إلى قائمقام مصر بمنع من يتعرض للسيد أحمد البكري في نظر وقف زاوية الوفاية » و فرمان سنة ١١٩٦ من ديوان مصر برفع المظالم عن جهة زفتى جواده... الخ الخ.

يتمشى في البلد طولا وعرضا ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في خوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاورها ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم (الترك) في طلب الدنيا ويلتمس لهم « أفضل الدين » العذر في ذلك فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا في بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا ^(١) ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يعيشون الوسطاء للسعى في تحقيق المطالب ١٠٠ وقد فاخر الشعراي بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا يرضى به هوأنا بالدنيا ومتاعها ^(٢) .

وكان البكرى الكبير المتوفى سنة ٩٩٤ هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه ، وللسلطان سليمان خان مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المراتب الخاصة له ولذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس ^(٣) . ١٠٠ وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم وتخشى بأسهم وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانونا بنى كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيئون لشفاعتهم - بالغا ما بلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة - وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاععة عند الحكام والأمراء ١٠٠ وبذلك تعطل تنفيذ القانون في البلد ، و أصبح الفقراء وأكثر من يلوذ بهم في أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة ١٠٠ وان كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم .

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم ، وترسم

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٣

(٢) » » ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠

(٣) بيت الصديق ص ٧٦ ، ٧٧ ثم قارن هذا بما ورد عن الشعراي في المناقب

الكبرى ص ٩٦

الحدود والمعالم في حياتهم الدنيا ، ولا دخل للدولة في أمرها . قال الجبرتي في ترجمة محمد أبي السعود البكري + ١٢٢٧ هـ واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم ، ويتجأكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشار كالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم^(١) والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق في القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والأتباع^(٢) وفي دفترخانة السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣ هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم . وقد جاء في هذا الصك ما نصه :

« واذا رفع اليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكري كالإشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وأن الأمر في المهمات ... لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد^(٣) ، ... وكان البلد خلوا من القوانين التي تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتزود عن الحرمات . ١

ولا ينبغي أن يقال إن هذا الشاهد الذى رويناه قد وقع بعد انقضاء العصر العثماني بخمسين عاما ، فإن ذلك حجة لنا لا علينا ، إذ كان الناس إذ ذاك في عصر اسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا إلى التفكير في شئون المدنية الغربية التي صجبت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون في غزوته ، ونمت واشتد بأسها في عصر اسماعيل ، وانشغل أكثر المستنيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكمش سلطانه عما كان في أيام العثمانيين ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٢) جرجي : زبدان تاريخ المدن الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢

(٣) بيت الصديق ص ٣٤ — ٣٥ .

في التقاضى أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة ، سائرين في ذلك على ما جرى عليه العرف منذ القدم ، وان قولهم « فيرد الى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة ، لذو دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع في يده السلطتين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه . . . ! فقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم - كما يروى الجبرتي - وأخذوا في السخرية من أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطايير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل في طلبهم جميعا وعزهم بالضرب والاهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضوه في شيء بل يوافقوه ، وكذلك فعل بأحد أعظم المباشرين من الأقباط ، توقف معه في أمره فأحضره ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو اذ ذاك أمير البلدة ، ولما شكك الى مخدومه ما فعل به ، قال له وماتريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ، (١) . . . ! وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما في عهدتهم ، فيضربهم بالجريد الحمص على أرجلهم . . . ! وكان إذا أراد الايقاع بشخص وخشى عاقبة ذلك ، مهد الطريق سرا قبل الايقاع به ، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالايقاع والضرب جهرا أمام الناس (٢) . . . ! وكان البلد من غير حكومة أو قانون ، . . .

النمرود على العرف عند الفقهاء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذي جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان . فان التصوف لا يستقيم بغير الزهد في الحياة والإعراض عن مباحجها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم ، والعيش في جو بعيد عن الأغراض الدنيا والنزعات الأرضية ، ولكن الذي يثير عجب الانسان من

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٢ .

هؤلاء الفقراء ، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب ، وقد يفعلون هذا كله جهاراً أمام الناس ولا يرون فيه سُبُة ولا معرة ، مما أدى بالمؤلفين في هذا العصر إلى الاكثار من تحذيرهم من الوقوع في هذا الشر ، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الحشونة والتقهف (١) .

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدسون في زاويته ، ويزيد عددهم بين الحين والحين ، وينفضون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصاب الحرص نقيها ، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتعب بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ — في الجملة — يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقاً من حقوقهم يستحذون عليه إن شاءوا ويتنازلون عنه إن أرادوا . وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش في كنفه (٢) . والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن التماس الأعذار لمن ينعم منهم بالملبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المريد لا يجوز له ذلك العيش في ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات . ! وقد روى الشعراني حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلاً : فلو لا أن الشيخ أقام البرهان على طعمه اللذيذ بالكرامة ، لفارقه تلك المرأة وهي منكرة عليه (٣) . . . !

ومن هذا نرى أن أرباب الطريق في هذا العصر قد توردوا على عرف البلاد وتحرروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التماذي في التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان ، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق في مصر

(١) أنظر في تفصيل ذلك ، كتابنا عن الشعراني إمام التصوف في عصره

(٢) لطائف المتن ج ٢ ص ١١٩

(٣) المهود الحمدي ص ٢٣١

كانوا دولة داخل الدولة...؟ وفي الحق لقد كانت دولتهم غريبة في تاريخ الدول، لأنها أعطت أهلها الكثير من الحقوق والامتيازات، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا... فان الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا! فهل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة...؟

إن من واجبتنا أن نسهب في بيان هذا السلطان الذي أتاح لأهله أن يحطموا الأغلال ويتحرروا من القيود ويملاؤوا الدنيا بهذه الإباحة المطلقة، في عصر تثقله القيود والسلاسل والأغلال، فلننتبع مظاهر هذا السلطان عند مختلف الطبقات وشتى الهيئات، وسنرى من معجزاته ما يشير العجب. ولنبدأ ببيان مظاهره عند الشعب :

بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها — تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ — القطبانية ونفوذ أهلها في مصر — آفاق نفوذهم في مناطقهم — بعض مظاهر نفوذهم عند المريدين — عند الحكام —

دنيا الصوفية الروحية وعظماؤها:

وفي الحق لقد ضاق العالم الاسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوى عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهلها ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي تعيش في رحابها ونكرع من آثامها وشرورها . وكان طبيعيا بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام ، فصنفهم بطريقة تحسفية في طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ويسّرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم (١) . . .

وقد عرفت مصر في العصر العثماني من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما القطب والأولياء بوجه عام ، وقد ضاق الشعب المصري بدنيا الفاقة والظلم ، فانساق بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلنى إلى الله — ولما كان الأولياء في هذا قد أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيا لهم

(١) كارادى ثو في مادة Wali بدائرة المعارف الاسلامية ، الأستاذ أحمد أمين بك في ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، نيكلسون في Mysjics of Islam ص ١٢٣ وما بعدها ، المناوى في طبقاته الصغرى من ص ٨ الى ١٢ وغير هؤلاء كثيرون .

سلطان روجى ونفوذ دنيوى معا . . . ١

تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ :

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها ، وافتسموا مناطقها فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها ، فيقيم الولايم فى بيوت ملاكها وبطالهم بالأتاوات ينظم منها موالد الأولياء - وكان الناس يخفون إليهم سرعاً كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ، ويستجييون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله . . والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تناسب فى سعة مساحتها طردياً مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه . وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين له وحده ^(١) وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لا ينافسه عليها أحد ، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمغادرته بلاد العجم ، سمع هاتفاً يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر ، فظنه شيطاناً وأهمل أمره ، بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة ، فقال يوسف : اللهم إن كان هذا وارد حق منك فأقلب هذا النهر لبنا أعرف منه بقصعتى ، وتقول الرواية إن النهر قد انقلب لبنا . . . ! فأيقن أن الهمتاف الذى سمعه وارد حق لا شك فيه . . . فلما أقبل على مصر وجد « الشيخ حسن التستري » وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد ، فقال له يوسف : إن الطريق لا تكون لأكثر من واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الإلهية ، فإما أن أتصدر أنا وتكون وزيرى وخادى ، وإما أن تتصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك ، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته ، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه

في ذلك وهو على قيد الحياة...! وأظهر في الطريق العجائب، ودانت له الملوك وخضع لنفوذه الأمراء (١)...

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون المشيخة دون أن يبائعهم أولياء الدائرة، ويدخلوا في طاعتهم كما كان ينبغي، وكانوا يجلسون للمشيخة وفي بلد من هو أقدم منهم هجرة في الطريق فلا يعباؤون به، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له، وطلب الإذن منه بإرشاد المرشدين نيابة عنه، إن أحسوا في أنفسهم بأنهم أعلم منه (٢)، ولقد أدى بهم هذا الادعاء إلى أن يجور بعضهم على حقوق بعض، ويعتدوا على مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ما ليس لهم فيه حق. ولكن الأولياء كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن ينفصوا من حوله ويلتفوا حول غيره، ولعل هذا جائز ومحتمل في رأى المنطق وحكم العقل، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق في هذا العصر كانوا يطمعون في أن يقتصر على صحبتهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم بقصد التبرك والتميم، ولهذا نرى الدردير العدوى، يحذر الأشياخ من شر ذلك، ويقول إن المريد الصادق المحبة. هو وحده الذي لا ينبغي له أن يزور ولياً ولا صالحاً من أهل عصره إلا باذن شيخه، ولا يحضر مجلساً غير مجلسه ولا يستمع إلى أحد سواه...! أما الذين يتلقنون الذكر بقصد التيمم وحده فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته، ومن طمع في ذلك كان غير صالح لأن يكون شيخاً في طريق الله (٣). ونرى الشعراى يقول إن أشياخ عصره قد ضلوا حتى عز عليهم التمييز بين من يحبهم مكثفياً بهذا الحب، ومن يطلب التربية على يدهم، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى إليه قمحاً وأرزاً وعسلاً وذهباً، وأقبل

(١) العهد المحمدية ص ٢٠٥

(٢) قواعد الصوفية ص ٢٥١ (مخطوط)

(٣) السيد محمد البكرى: السير إلى الله ص ٥١٨ (مخطوط)

عليه إقبالا عظيما ، فقال الشيخ : إن كنت تصحبني فلا تصحب فلانا ، فنفرت
نفسه من هذا التصديق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا
مريداً ، ثم مضى الى الشعراني واجتمع به ، فظن الشيخ الأول أن الشعراني
هو الذي حرصه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من
أجل ذلك^(١) . وما كان الأشياخ ليطمعوا في امتداد نفوذهم إلى هذا الحد ، لو
أن الشعب كان على استعداد للإعراض عنهم لو تجاوزوا حدودهم - ولعل
رواية الشعراني لا تنقض ما نقول ، فليس يبعد أن يكون الشعراني - بما
عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه - هو الذي حول شيخ
العرب عن شيخه الأول ، ولولا ذلك لرضخ شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ
واستجاب لرأيه ..

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولي إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته
التي تخضع لنفوذه ، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يبعضون من لم يكن
من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم في بلده لغير شيخه ،
ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار ، كما ظن الواحد منهم أن
من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه^(٢) . وما كان المريدون وحدهم
هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ
إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم ، وأدركت
الكرامية نفوسهم حتى حذر الشعراني الشيوخ من شر ذلك ، وأشار على
من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة
الاخلاص ، فيشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد
أعوزه الاخلاص لطريقه^(٣) .

(١) بهجة النفوس والأخلاق ص ١٦٨ (مخطوط)

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١٠٣

(٣) العهود المحمدية ص ١٢٩

كان اعتداء الولي على منطقة غيره من الأولياء عدواناً بالغاً وامتهاناً لحرمة الطريق ، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا ولياً أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعاً وأمضى نفوذاً وأرحب سلطاناً، خضعوا له وساروا تحت رايته ، فإن أجمعوا على الإذعان له ، عرضوا عليه « القبطانية » ودانت له الأرض بما رحبت ، وخضعت له الرقاب بما حملت .. وكان وحيد عصره ! ..

القطبانية ونفوذ أهلها في مصر :

والقطبانية التي جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوز ، قد ظفر بها في مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر .. أصابها محمد الحفناوى الخلقى المتوفى سنة ١١٨١ هـ الذي « دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ العهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها ، وأنقذ من ورطة الجهل مهجاً من غي نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له في كثير من قرى مصر — قبل أن يكون قطباً — نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره في ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار السكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولي من أهل عصره إلا أذعن له ... وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى ... ، وأكثر فيه الشعراء من المديح ، وبموته « ابتداء نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، لأن « الرحي لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رحي الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه ، (١) .

بل لقد كان الولي إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأبى القبطانية إذا عرضوها عليه ! .. فن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكرى الذى « أوتى مفاتيح

العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه في مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود ، فان قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأبأها (١) ١١٠٠

وبلغ من خطر القطبانية في العالم الاسلامي أن أشيعت عند المغاربة عن الزبيدي + ١٢٠٥ في مصر — وهو صاحب الشرح الوافي لإحياء الغزالي (٢) وتاج العروس في شرح القاموس وغير ذلك — فكان إذا وفد أحد هؤلاء المغاربة إلى مصر حاجاً ولم يصله بشيء ، لا يعتبر حجه كاملاً ١٠٠٠ وكانوا أيام الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء ، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء من علماء بلده وأعيانه ، فان ظفره بقطعة ورق ولو بمقدار الأتملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالنيمة ، ورأى حجه مقبولا ، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة وأحاطة باللوم أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده (٣) ١٠٠٠

ومن الخير أن نشير إلى أن الكتاب في هذا العصر كانوا يسرفون في إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم ، على سبيل التمجيد والتعظيم ، ولم يكن صغار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلون إلى هذا الإسراف ، وكان الناس — في مصر — يزعمون أن الأقطاب أربعة — وقال بعضهم بل اثنان — وقد عرض للحديث عنهم الأستاذ «لين» Lane وصور فكرة المصريين عنهم بشيء التفصيل (٤) .

على أن الأولياء كانوا في مصر يعلنون استقلالهم إذا لم تجد القطبانية من هو أهل لها ، قال الجبرتي معقبا على ممات الحفناوى : إن البلاء قد نزل بالبلاد

(١) الجبرتي ج ١ ص ١٧٢

(٢) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين للسيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى — طبعة مصر في عشرة أجزاء وطبعة المغرب في ثلاثة عشر جزءا .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) لين E.Lane في كتابه السالف ص ٢٣٦ وما بعدها .

المصرية والحجازية والشامية بعده ، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد
أقطار الأرض ، وهذا هو السر الظاهري ، وهو ولا شك تابع للباطني ،
وهو القيام بحق ورائة النبوة وكمال المتابعة وتمييد القواعد وإقامة أعلام الهدى
والإسلام وإحكام مباني التقوى . لأنهم أمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم ،
أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ، ^(١) وظاهر من
نص الجبرقي أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد ممات الخلفاء لما أصاب
البلاد الإسلامية هذا البلاء . ولعل هذا الرأي يخالف ما انفق عليه جمهرة
الباحثين في القطبانية ، إذ انعقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة
من ولى يتولاها ويقوم بأعمالها ^(٢) .

آفاق نفوذهم في مناطقهم :

كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه
الناس وتكاثروا حوله عديدهم ، وسدوا طريقه وانهاوا على يديه وقدميه تقييلا
ولثما ، ومن كان خروجهم إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد المبكرى ،
كما يقول صاحب السكواكب السائرة ^(٣) . بل لقد روى صاحب النور السافر
في ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتمكنين في علوم اللغة وقواعد الشعر
ومذاهب الإنشاء ، كانوا يقصرون إليه بقصائدهم المليئة بالمدائح ، وأنه كان إذا
قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره ، تقدم الناس
لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتمن بالقرب من موضعه ، وكان الازدحام يقع
بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس — وكان يحيط به جماعة من جند
السلطان التركي وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى
الازدحام ، وربما أخذ أحدهم بيده الشريفة وهي ممدودة لتقبيل الناس

(١) الجبرقي ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) مادة Wali في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) السكواكب السائرة ج ٣ ص ١٠٨

لطول زمن مدتها لهم إذ كان يمدّها لهم بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية في الازدحام عليه إلى أن يصل إليها ، كما يقول صاحب النور السافر^(١) ، بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب الناس إليه ، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولداً قد اشتد به الظمأ حتى قتله ، فهاهنا ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه وحفر في الأرض بئراً وأقام زاوية له فسرعان ما تهاافت عليه الفقراء وعمرّوا لهم بيوتا على كسب من زاويته ، فأضحى المكان الفقريّة عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزّة أو يعودون إليها من هذه البلاد^(٢) ، وكان أبو النجاة القوي « إذا سافر إلى بلده » فوه ، ثم عاد إلى مصر ووصلت مركبه إلى بولاق إذ ذهب الناس أفواجا يتلقونه كأنه سلطان ، ويكون ذلك يوم عيد عندهم ، كما يقول المناوي^(٣) .

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين... فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيومى + ١١٨٣ مريدون وأتباعاً له .! ومنهم من صار من السالكين .! وقد كان يؤثّمهم أحياناً في أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد ، وتارة يضع الطوق في رقابهم أو يؤدّبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية .! وكان إذا ركب إلى المشهد الحسيني في جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصى والأسلحة في موكب له روعته وجلاله^(٤) ، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى ، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير في ركابه .! وقد ارتقى بعض

(١) النور السافر ص ٤١٥ — ٤١٦ وقد ذكره في وفيات سنة ٩٩٣ هـ أما أبو السرور البكرى وعلى مبارك والغزى فقد ذكره في وفيات سنة ٩٩٤ هـ (ينظر بيت الصديق ص ٧٤ نقلاً عن أبي السرور البكرى ، الخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦ ، الكواكب السائرة ج ٣ ص ١١٢) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

(٣) الكواكب الدرية ص ٤٨١

(٤) الجعري ج ١ ص ٣٤٠ ، طبقات الشاذلية ص ١٤٤

هؤلاء اللصوص التائبين حتى صاروا من أعيان جماعته^(١) . . .

ومعنى هذا أن الشعب كان لا يعبأ بماضى الفقراء الذين يحسن الظن بهم، ويؤمن بصدق ولايتهم، ولعل هذا ليس أغرب من أن نقول إن حاضرم كان لا يعنى الناس فى أكثر الحالات . ١

سار على البكرى + ١٢٠٧ هـ عاريا فى الأسواق يهذى فى حديثه ويخلط فى كلامه، فيؤول الناس هذيانه تأويلا يلائم أحوالهم ويتفق مع أغراضهم، واستغل أخوه سذاجة الناس فمنعه من الخروج إلى الشوارع والأسواق — مكشوف الرأس والسواتين كما كان يفعل فى أغلب أحواله — وحبسه فى بيته وروج له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس على الإسراف فى الإيمان به والمسارة إلى تقديم الهدايا والنذور إليه حتى أئرى أخوه من ورائه، وقد بلغ من اعتقاد الناس فى هذا الدرويش أن تبعته امرأة ولزمته فى الشوارع والأسواق، فسرعان ما آمن الكثيرون من الناس بصدق ولايتها، وأشاعوا أن الشيخ قد لحظها وجذبها، فأضحت من أولياء الله الصالحين، ثم ارتقت فى درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع فى زى الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس . . . ! ومنهم من اقتدى بهما « ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته » فقبل إن الشيخ قد جذبته أومسته فصار وليا . . . ! وكثر أتباع هذا الرجل المعتوه حتى كان إذا مر بشارع ملاءه ضجيجا، ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع . ! وكانت المرأة تصعد أحيانا على درج عال وتفحش فى القول فيزداد إيمان الكثيرين بها ويقبلون يدها تيمنا ببركتها . . . ! ومر موكبهم ذات يوم ببית جندى يسمى « جعفر كاشف » فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب — ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس وأطلق الشيخ إلى حال سبيله . ثم أخذ يضرب المرأة والمجاذيب حتى طير

الولاية من رموسهم ورد الرشد إلى عقولهم ، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فإنه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين ، ولبثت على هذه الحال حتى إذا جددت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فاذا هي شيخخة على أففرادها ، يحسن الناس الاعتقاد فيها ، ويؤمن النساء بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد — بعد مماتها — وقدمت إليها الهدايا والندور (١) . . . ١١٠

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق في الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيههم ، إذنا عاما على عموم الطرق ويأذن لهم في أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم في أمر عموم أهل الطرق . . . كما يقول صاحب طبقات الشاذلية (٢) .

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستيرين ، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات في يده السلطين : التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعي المذنبين والأثمة في رأيه ، ويفرض عليهم العقاب الذي يشاؤه ، وينفذه على مرأى من الناس ومسمع من الحكام ، فلا يغضب لذلك أحد . ! والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد . . . ١٠٠

ولم يتوافر له هذا النفوذ عند عامة الناس وطغاهم فحسب ، بل كان له سلطان ممدود الرحاب على ذوى المكانة الملحوظة من رفقاته وجلسائه الذين كانوا لا يتكلمون معه إلا بميزان ، وملاحظة الأركان ، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية ، وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة حتى إن السيد حسين الميزلاوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخاطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا

(١) الجبرتي ص ١١٣ و ١١٤ ج ٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ج ٣ وطبقات الشاذلية ص ١٥٣

و ١٥٤ (مع سذاجة في تحليل الظواهر)

(٢) طبقات الشاذلية ص ١٧٢

فيها بالمشهد الحسيني وبزاويتهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب حتى أني سمعت قائلاً يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات^(١) . . . او كذلك كان شأن هذا الرجل المادى الوصولي مع أعظم المدرسين في ذلك الوقت ، قال الجبرتي كذلك ، وبالغوا في تعظيمه وتقديره ومدحوه بالقصائد البليغة طمعاً في صلاته وجوائزه وحصول الشهرة لهم ، وزال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر ، وزاد هو أيضاً وجهها ووجاهة بمجالستهم وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته يا مولاي يا واحد ، فيجيبه هو بقوله يا مولاي يادائمه يا علي يا حكيم ، فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه ، وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . . . الخ^(٢) . بل حسب هؤلاء الشيوخ نفوذاً عند الشعب ، مرضاته عما كانوا يرتكبونه من الزنا بالفساء والفسق في الغلمان ، وتعاطى المخدرات واستيلائهم على أموال الناس ، وحرصهم على الدنيا باسم الزهد في الدنيا والاستهانة بشهواتها والرغبة في الاتصال بالله . ١ .

...

بعض آيات نفوذهم عند المريدين :

أوجب شيوخ الطريق على المريدين آداباً شملت إرادته وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل تجاوزت به هذه المرتبة . . . الخ^(٣) فن

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٥ ، بيت السادات الوفاية ص ٢١

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٣) أنظر كتابنا عن الشراني في الفصل الذي عقدناه على علاقته بالمريدين

ذلك ما يراه السيد محمد البكرى الكبير + ٩٩٤ هـ فى رسالة له يصرح فيها بأن من واجب العبد — أى المريد — أن يذكر أنه بين يدى أستاذه ، فى كل نفس من أنفاسه ^(١)، ولكنه يصرح فى رسالة أخرى بأن الله قد جعل أسبأبا يصل بها عبده إلى حضرته الربانية ، منها مراقبة الحق وتذكر العبد أنه بين يدى الله فى «سائر أوقاته أو غالبها» ١١٠٠ ^(٢).

بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ولو قضت بعصيانه لله وتمرده على قواعد دينه ، بافطار رمضان أو الإهمال فى إقامة الصلاة ١١٠٠ ^(٣) ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ ، لأن الترقى لا يكون بالاستمتاع بالمباح من اللذات ، بل بالزهد فيما أحل الله من وجوه اللذة ، والتزام الجانب الوعر فى السلوك إلى الله ^(٤) . واتباع نصائح شيخه — بالغا ما بلغ وجه الإجحاف بها وقلة الذوق فيها . ١٠٠ ^(٥) بل إن السنة المروية عن رسول الله — فيما يدعون — لا تبرر اعتراض المريد على شيخه فى أمر أو نهى ١٠٠ ^(٦) وإذا أشرك المريد بشيخه شيخاً آخر ، كان كمن يشرك بالهة ١١٠٠ ^(٧) إلى آخر هذا الهذر الذى فشا فى آثار هؤلاء الشيوخ ١٠٠

بعض آيات نفوذهم عند الخاطم :

وقد استبد سلطان هؤلاء الشيوخ بنفوس الملوك والولاة والأمراء ، فتنافس هؤلاء فى الاتصال بهم والظفر بمرضاتهم وإصابة الطيبات من دعواتهم ، واستغلال نفوذهم عند الشعب فى اكتساب مرضاته عن جور هؤلاء الحكام : فمن ذلك أن كان الولاة يتقربون إلى بعض هؤلاء الشيوخ ويتخذونهم أصدقاء

(١) هداية المريد ٤٦٠ (مخطوط) (٢) تحفة السالك ص ٤٠٨ (مخطوط)

(٣) السير إلى الله ص ١٥١٩

(٤) الشمرانى : قواعد الصوفية ص ١٢٠٧

(٥) قارن المصدر السالف ص ١٢٦ و ١٣١ و ٢٠٧

(٦) المصدر السالف ص ١١٣٠

(٧) المصدر السالف ص ١٥٤ و ١٥٥ وقارن الجيرى ج ٢ ص ٦٥ — ٦٦

وندماء^(١) ويتردد نواب مصر وقضاة عساكرها وحكامهم على الدمرداش + ٩٥٤ هـ ويلتمسون تقبيل يده فلا يلقي لهم بالا^(٢)، بل كان الأمراء والولاة في بلاد العالم الاسلامي يحسنون الظن بالسيد البكرى + ٩٩٤ هـ ويكاتبونه ويهادونه ويلتمسون عنده النصيح والإرشاد، ويستجيب لشفاعاته ولاية مصر ونوابها، ويختلف لزيارته الوزير سنان باشا كل يوم جمعة، ويقبل يده ويأتمر بأمره وينتهي بنهيه^(٣). وكثيراً ما كان الأمراء يساهمون في إقامة أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم الملائى بالفساد من الزنا بالنساء واللواط بالغلمان ونحوه^(٤)، وكان نساء الأمراء يحسنن الظن بالدجالين من هؤلاء ويغمرنهم بالهدايا والنذور - كما كان شائهن مع المخبول وعلى البكرى^(٥) صاحب الضريح والمزار القائمين في الرويعى بالقاهرة إلى يومنا الحاضر. ولم يكن هؤلاء الحكام في موقفهم من شيوخ الطريق - صادقين كانوا أو دجالين - يمتازون عن طغام الناس كثيراً أو قليلاً، وأحاديثهم التي تشهد بهذه السذاجة أكثر من أن يحصيها العد، فن ذلك أن الوزير على باشا ابن الحكيم قد اشتد به الضيق في إحدى رحلاته، فرأى في منامه أحمد البكرى + ١١٥٣ هـ، فلما استيقظ اشتد إيمانه بولاية هذا الرجل، فاذا زاره الشيخ تلقاه الوزير باحتفاء بالغ، وخر على الأرض وأخذ يقبل قدميه، ويطلب إليه أن يأذن له في زيارته بين الحين والحين، وراح يرسل إليه الهدايا بغير حساب^(٦). بل كان الأمير إذا تعنت مع أحد هؤلاء الشيوخ، ثم أصابه شر، نسبوا، ما أصابه إلى الشيخ المبيض، واشتد إيمان الأمراء بولايته. وهذا النوع من

(١) أنظر مثلاً « الحقيقة والحجاز » للنايلسى ص ١٤٧

(٢) المحي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ٣ ص ٢٥٤ والحقيقة والحجاز

ص ١٠٠

(٣) توفيق البكرى : بيت الصديق ص ٧٦ - ٧٧ وانظر ص ١٧٨ عن أبى المواهب البكرى .

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٥ عن موقف الأمراء من العففى .

(٥) الجبرتي ج ٧ ص ٨٤

(٦) الجبرتي ج ١ ص ١٦٣ وبيت الصديق ص ١٦٠

الشواهد يملأ كتب الطبقات والتراجم ، وإن كان الكثيرون منهم يرون أن التصريف بالمقدرة الالهية — وهو القدرة على العزل والإيذاء والتنكيل — لا يكون لغير واحد من أولياء الله ..

فلم يكن غريباً بعد هذا أن يلتبس الحكام معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية ، وضماناً لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إليهم عند المحن والأزمات ، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام ، أو في الانتصار على الخصوم والأعداء ، روى الجبرتي أن إبراهيم بك قد مضى إلى البكرى + ١٢٠٨ هـ والعروسي + ١٢٠٨ هـ والدردير + ١٢٠١ — حين أقبلت إلى مصر الحملة التأديبية التركية بقيادة حسن باشا الجزايرلى القبودان — وأنه أخذ يبيكى لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعاية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً^(١) . وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف في مصر إبان عصرهم^(٢) . وإن جمع العروسي والدردير بين الفقه والطريق .

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكرى ، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام فتح نابليون ، كانوا — فيما يقول الجبرتي — يلوذون به ، ويجتمعون في بيته ، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة^(٣) .

وقد بلغ من نفوذ الشعرائى عند الحكام ، أن كان يسعى لتعيين القضاة

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١١٨

(٢) اقرأ تراجمهم في الجبرتي ج ٢ ص ٢٦٦ — ٧ للأول و ٢٦٧ — ٢٧٠ للثاني

و ١٥٧ — ١٥٨ للثالث وقد ذكرت طبقات الشاذلية ترجمة قصيرة للعروسي ص ١٥٩

(وحدثت تاريخ وفاته خطأ بعام ١١٠٨) وترجمة أخرى للدردير ص ١٥٥ — ٦

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٩٢ وبيت الصديق ص ١٣٢

والمحتسبين وشيوخ العرب في وظائفهم^(١) كما كان الحفناوى قطب ربحى الديار المصرية، «ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه»^(٢).

وقد كان هؤلاء الشيوخ، يعملون من جانبيهم على إيهام هؤلاء الحكام بسطوتهم وسعة نفوذهم، لأن هذا يعلى من شأنهم في نظر الناس، ويكثر من أتباعهم، وبدر عليهم المال الطائل، ويحقق لهم السمعة الطائرة، فكان الشيخ يقول لنقيب زاويته: إذا أقبل الأمير الفلانى لزيارتى، فقل لى على مسمع منه إن الباشا قد أرسل اليكم السلام مع أحد أفراد جماعته، وهو يطلب اليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم. فإذا سمع الأمير ذلك، نقله إلى سائر الأمراء فيعلو شأنه عندهم، ويكثر ترددهم على زاويته، ويقوى اعتقادهم فى ولايته...^(٣) وكان الشيخ السادات + ١٢٢٨هـ يلتبس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء، فكان يدعوهم إلى زيارته فى بيته، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الاحمدية والسعدية والشيعية بأن يمرؤا بمواكبهم تحت داره، حتى يدرك الحكام مبلغ نفوذه عند أرباب الطريق...^(٤).

...

ومن الأرزاق التى أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين، عاش هؤلاء الفقراء فى ترف ورخاء — لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق — ولكنهم كانوا يدعون أنهم ينفقون من الغيب، لأن الصادقين من شيوخ الطريق، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات، ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا^(٥). والرزق إنما يكون مما يفتح الله، فإن العبد إذا صدقت نيته، وأخلص فى عبادة ربه، أدناه الله من

(١) الشعراى: البحر المورود ص ٢٢٣

(٢) الجبرئى ج ١ ص ٣٠٥

(٣) الشعراى: لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢

(٤) الجبرئى ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت السادات الوفائية للسيد توفيق البكرى ص ١٩

(٥) الشعراى: تنبيه المغترين ص ٢ و ٣ ب (مخطوط).

حضرته ، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه ، حتى ليرتفع فوق
نواميس الطبيعة وقوانينها ١١٠٠

ووجه الغرابة في هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخي ذلك
العصر ، وفانت حقيقته ذوى الحجى منهم ممن سبقوا عصرهم بأزمان طوال ،
فالجبرتي يؤرخ لمحمد القايني الأزهرى + ١١٦٤ هـ فيقول إنه كان من أصحاب
الكرامات والمآثر ، منها أنه كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد
ولا ملك ولا وظيفة ، ولا يتناول من أحد شيئا ، وينفق إنفاق من لا يخشى
الفقر ، وإذا مشى في السوق تعلق به الفقراء ، فيعطيهم الذهب والفضة ، وإذا
دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه ١١٠٠ (١) ويقول المحبى في ترجمة أحمد بن
سلام المصرى ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء ، ويحب الفقراء ولا
يقبل من أحد صدقة مطلقا ، بل كان في غالب أوقاته يُرى متصدقا ، وليس له
وظائف ولا معالم ، وعلى ذلك كان في أرغدعش وأطيب نعيم ١١٠٠ (٢) ويقول
الشعراني عن الشيخ الدويب ، إنه — حين وافته منيته — خلف مائة ألف
دينار ، لا يعلم أحد مصدرها ، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا في جاهها ١١٠٠ (٣)
ومرد الأمر كله — فيما نرى — إلى الأرزاق التي يجريها الأمراء ومن
إليهم من المحسنين خفية عن الأنظار ، وهو تقليد حبذه الاسلام وحض
المحسنين على اتباعه ، ومن هدايا الملوك ومن إليهم عاش هؤلاء في وفرة من
الرخاء ، وتيسر لبعضهم أن يبرز الملوك في مظاهر الجود والسخاء ، كما كان حال
الحقناوى + ١١٨١ هـ (٤) والدردير (٥) والسادات والشعراني (٦) وغيرهم .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) المحي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٧٥

(٣) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٩

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٩٢ والدردير في «الطريقة الصاوية» ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٧ — ٨ (وهو بشرح قصة حجه وبناء زاويته من صلات

سلطان المغرب) .

(٦) في كتابنا عن الشعراني تحليل ما وقع له في هذا الصدد .

ومن الانصاف أن نقول إن هذا النفوذ الذى تهيأ لشيوخ الطريق عند
حكام البلد، كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة، وبهذا تجلت إرادة
الامة حتى فى أسود الأيام التى سجل فيها التاريخ استكانتها لاستعباد الحكام.
وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئاً آخر، هو رد الظلم والسكف
عن البغى ودفع العدوان، ذلك أن شيوخ الطريق كانوا حلقة الاتصال بين
الشعب المظلوم وحاكمه الجائر، وكان وساطة الشيوخ مجابة وشفاعاتهم مقبولة
فى أكثر الحالات.

وهذا بالإضافة إلى أن الأرزاق التى أجراها على شيوخ الطريق الأمراء
ومن اليهم من الحكام، كانت تنفق فى أكثر الحالات على الشعب المنكود
الذى أرهقهم هؤلاء الحكام بضرائبهم الجائرة الظالمة، ابتز هؤلاء أموال الشعب
عنوة واقتداراً، وردوا جانباً منها إلى شيوخ الطريق هدايا وأرزاقاً، أنفقت
فى الترفيه على أصحاب هذه الأموال...

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام، انتصاراً لظلمهم
وتأييداً للجائر من تصرفاتهم، فأدى هذا إلى إضعاف روح الترد على هؤلاء
الظلمة، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين^(١).

(١) فى كتابنا السالف الذكر، فصلنا الحديث عن هذا فى فصلين عقداهما على

٢ - نفوذهم أمواتا

جلال الموت — الأميون من مدعى الولاية —
العلماء من مدعى الولاية — نظرهم إلى من أخذ
العهد على موتى الأولياء — الطوائف التي سلكت
الطريق على موتى الأولياء .

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم، واستأثر بالأميين والمستنيرين، وكلما تقادم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة في ذلك، فإن الشعوب — والمتأخرة منها بوجه خاص — تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل في تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر. وللموت حرمة ورهبة، تفضى بالناس إلى الاسراف في تقدير من تخطفهم من الصالحين، والاشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الأتقياء... والصادق من شيوخ الطريق، بالغاً ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين، ولكنه إذا أضحي في ذمة الله، سكنت عنه خصومه وحساده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت حرمة الموت سمواته، واكتفى الناس بتناقل حسناته عملاً بالقول المأثور: اذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الأميون من مدعى الولاية:

وقد عرفت مصر أثناء العصر العثماني طائفة من جهلة الشيوخ ومشعوذهم الذين اتخذوا الولاية وسيلة للظفر بالدنيا وأداة للعيش الهنيء، وأحسن السكثرون من الناس الظن بهم والاعتقاد في ولايتهم، وعاش إلى جانب هؤلاء المنكرون لهم الساخرون بهم، فلما أصبح هؤلاء الشيوخ في ذمة الله، خفت صوت المنكرين وتلاشت صيحة الساخرين، وخر الناس جميعاً ساجداً أمام حرمة

الموت الرهيب ، وشيدت ضرائح هؤلاء الأولياء وارتفعت قبابها وأقام العلماء والكبراء موالدهم في كل عام ، وساهم فيها خاصة الناس وعامتهم !!.. وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني في مصر على البكرى + ١٢٠٧^(١) الذى أشرنا اليه من قبل ، إذ كان رجلا مخبولا يمشى في الأسواق والشوارع عاريا مكشوف الرأس والسواتين في أغلب حالاته ، أو يلبس قيصا وطاقية ويسير حافي القدمين يخلط في أحاديثه ، فيتبعه الأطفال والصغار وطعام الناس ويسيرون وراءه بين منكر عليه ومصداق لولايته ، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه ، وصحت عندهم ولايته ، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، كما يقول الجبرتي ..! وكان له أخ صاحب دهاء ومكر ، فبدا له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه ، عسى أن يكسب من وراء لوثته ، فحجر عليه وحرّم عليه مغادرة البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ... الى غير ذلك من وسائل التضليل ، فأقبل الرجال والنساء على زيارته والتميم به وسماع الفاظه والانصات الى خلطه وتأويلها بما فى نفوسهم ، وأفاضوا عليه الهدايا والنذور وخصه بالكثير منها نساء الأمراء والأكابر ، حتى أترى أخوه واغتنى ، ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل ابو العظيم ، ولبث على هذا حتى مات سنة سبع بعد المائتين والآلاف من الهجرة ، فدفنوه بمعرفة أخيه فى مسجد الشرايى على كُثب من مسجد الرويعى من غير مبالاة ولا اكتراث . وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما ، ورتب له المقرئين والمداحين وأرباب الأشار والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم وكانوا كما يقول الجبرتي « يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى عباهم وجيوبهم » قال البدر الحجازى شاعر العصر فى بعض مقطوعاته :

(١) سمى البكرى نسبة الى سوقة البكرية التى كان يقطن بها .. فهو لا يمت بصلة الى أسرة البكرى المدروسة .

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا كل ذى جنة في الناس قطبا
علمهم به يلوذون بل قد اتخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يهرعون عجما وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبله وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم تبتغي بذلك قربا
إلى أن قال في تصديده الحافلة بالأخطاء:

كل ذا من عى البصيرة والوي ل لشخص أعمى له الله قلبا
والحجازى حسنا ينظر ما خالف الشريعة صعبا
وهرع لزيارة هذا الدعى المخبول النساء والرجال، محملين بالندور والشموع
وضروب الماء كولات. وصار ذلك المسجد مجمعا وموعدا^(١).

العلماء من مدعى الولاية:

وإذا كان هذا موقف المصريين من رجل جاهل معتوه كعلى البكرى، فليس
غريبا أن يشتد بهم الإيمان برجل جمع بين العلم والتصوف كالشيخ عبد الوهاب
بن عبد السلام العفيفي + ١١٧٢ هـ. فقد كان هذا الرجل عالما على طريقة
أهل عصره، وقد اشتهر بينهم بصدق الولاية وصحة الكرامة. وقد سحت
السماء مطرا غزيرا بعد مماته بست سنوات، فتهدم قبره وامتلأ بالماء، فتحرك
في القبر سره وأحس أبناؤه ومريدوه بذلك، خفوا لنصرته سراعا...
شادوا له قبرا على كثر من عمارة السلطان قايتباى ونقلوا اليه عظام الفقيد،
وعقدوا على القبر قبة وأقاموا له مقصورة تضم مقاما عليه عمامة كبيرة، فأضحى
قبر الميت مزارا عظيما بعد ست سنوات بلى فيها جسمه ونخرت أثناءها عظامه...
ثم أنشأوا إلى جواره قصرأ غالبا— عمره محمد كتحدا أباطة— وجعلوا حوله

(١) الحبرنى ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥، ج ٢ ص ١١٣ وفي طبقات الشاذلية ص ١٥٣

— ١٥٤ — رواية أخرى قائمة على التعبد والثناء.

رجبة متسعة تحيط بها الأسوار لتكون موقفاً للدواب من خيل وحمير يفد على ظهورها زوار المقام ، وضحووا في سبيل ذلك الكثير من قبور أكابر الأولياء وأقذاذ العلماء الأولين والمحدثين من المسلمين والمسلمات . . ثم ابتدعوا لهذا المزار المصطنع موسماً وعيداً يقام كل عام ، ويفد اليه الناس عند إقامته من شتى البلاد - بحريها وقلبيها - وينصبون كثيراً من الخيام والسرايق والمطابخ والمقاهي ، ويختلف اليها خاصة الناس وعامتهم من فلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والألعاب والراقصات والبغايا والحواة وأصحاب القردة وغيرهم حتى يضيق عنهم البستان وتمتلئ بمجموعهم الصحراء ، وهم يطئون القبور بأقدامهم ويوقدون النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمر ليلاً ونهاراً ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر .

وما كان العوام وحدهم الذين يسوقهم الجهل إلى تقديس الجثث التي أبلاها الزمن ، وإن العلماء ليساهمون في إكبار الموتي من هؤلاء الشيوخ وتقديس ذكراهم ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامّة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلاً عن كونهم يفعلونه ^(١) ولقد وصف الأستاذ « لين » E. Lane انتشار الأضرحة في قرى مصر وإقبال المصريين على زيارتها ولثم عتباتها وتقبيل نوافذها وحوائطها ومقاصيرها ، وتقديم النذور إليها وإقامة الموالد لها ، وشرح ذلك كله في كتابه الذي وصف فيه رحلته إلى مصر بعد انقضاء العصر العثماني بوضع عشرات من السنين ^(٢).

نظر تلاميذهم إلى ممه أخذ العهد على موتى الأولياء :

هذا موقف الناس من الأولياء إذا طوتهم القبور . وإن الإنسان ليعجب

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ وطبقات الشاذلية ص ١٥٧

(٢) Lane, Manners and customs of Modern Egypt p. 244-6

لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد بهوى الناس أن كان يحمل بعضهم على التتلمذ على يد من أصبحوا فى ذمة التاريخ... كم عرف تاريخ التصوف فى العالم الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طواهم الرمس منذ سنين طوال ! ولم يقدر لواحد من هؤلاء المريدين أن يرى هذا الولى أو يسمع عنه من عاصروه... وقد شاع فى مصر إبان العصر العثمانى هذا النوع من الولاية: يدعى المشيخة واحد من عامة الناس ويزعم أنه قد أخذ العهد على البدوى أو الرفاعى أو الجبلى... أو أى من هؤلاء الأولياء الذين لم يسعد برؤيتهم والاستماع عليهم، ولكن سحرته سمعتهم التى تتطير فى العالم الإسلامى كله... وسرعان ما يلتف حوله أرباب الحرف وغيرهم من سذج الناس.

ثم يعيش هذا الشيخ وهؤلاء الاتباع والمريدون على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم الولى الكبير الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه... إنهم ليستمدون منه السر ويستلمونه الولاية ويستعينون به على إتيان الكرامات، ويستمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغفروا به عن الله... وإن سلطانهم لقوى لا يخشى بأس منكر ولا ساحر، فلا يعاؤون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الشعوذة، أو الخروج على ظاهر الشرع، ففى شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأى غناء... ولقد كان التتلمذ على يد شيخ طواه القبر جائزاً حتى فى عرف من أنكروا على هذه الفرق تصوفها من غير شيخ حتى... لأنهم يستشون فى هجومهم من أخذ الطريق على ولى كبير غير مطعون فيه - كالسيد البدوى مثلاً - وفى هذا الاستثناء ما يبرر قيام هذه الفرق فى نظر أهلها.

قالوا إن الأموات فى البرزخ قد صارت وجهتهم إلى الآخرة وظهورهم إلى الدنيا فلا يعينهم خرابها ولا يهيمهم عمارها إلا إذا كانوا شيوخاً حسنت ولايتهم ووجب الاقتداء بهم، كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل. فإن

الاقتداء بغير هؤلاء اقتداء ناقص ، لأن لكل إنسان أمراضاً لا تعرف بغير المشافهة مع شيخ حتى يدل مريده على كيفية الدواء^(١) ، ثم إن المشيخة ليست تركة تنال بالميراث ، وإنما هي ثمرة الصبر والرياضة والمجاهدة والجد والاجتهاد^(٢) . على أن الصالحين من الموتى أولياء قد أوتوا القدرة على تربية الصادقين من المريدين ، وهم في البرزخ - كالسيد أحمد البدوي - فإن مريديه يسمعون صوته منبعثاً من قبره كما وقع ذلك للشيخ محمد الشنواي + ٩٣٢ هـ على مسمع من الشعرائي حين زاره في رmse واستشاره في السفر إلى مصر فأذن له وقال : سافر وتوكل على الله ، ويزعم الشعرائي أنه سمع ذلك بأذنه الظاهرة وكذلك كان عز الدين الأصفهاني يجتمع في المنام بشيخه أحمد الرفاعي ، فيأمره هذا وينهاه ويربيه ويشير عليه بما ينبغي اتباعه في حياته ومن صح له هذا المقام جاز له ألا يتعلم على يد شيخ حتى مكثياً بشيخه الميت . ! على أن من واجب المريد ألا ينصاع للأوامر التي يسمعها من شيخه في قبره إلا إذا عرضها على علماء الشريعة ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطاناً لا ولياً . على أن الذين يشترطون هذا الشرط يقولون إن صحة الاقتداء بالموتى من الأولياء وامتنال أوامرهم ونواهيهم لا يستلزمان رؤية صورهم الظاهرة ، ويقولون إنا اقتدينا برسول الله وصحابته والأئمة من بعده ، وما اجتمع واحد منا بأحد منهم . وما منع جمهور العلماء من ذلك^(٣) . . . وهكذا كان أهل التصوف جميعاً ، على اعتقاد في صحة الاقتداء بالموتى من الشيوخ ، وإن رأى بعضهم أن ذلك لا يجوز لغير كبار الصالحين من الأولياء ، ولا ينتفع به إلا الصادقون من المريدين والاتباع .

الطوائف التي سلكت الطريق على موتى الأولياء :

وقد حفلت مصر في العصر العثماني بهذه الفرق التي عاشت عالة على الموتى

(١) الشعرائي لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

(٢) قواعد الصوفية ص ١٧٣

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٩

من الأولياء ، كفرق الأحمديّة والبرهامية والمطاوعة والرفاعية . . وكانت تضم ألوف الاتباع المريدين ، فأكسبها هذا سلطاناً واسع النطاق ، وهون من شأن الحملات التي أثار عثيها خصومهم ، واستفز حفيظة بعض الشيوخ - من أمثال الشعراني والخواص والجارحي - وحملهم على الطعن فيها والخط من شأنها . . . قال الشعراني إنه لا ينكر على هذه الفرق إلا ما خالف صريح الشرع أو الإجماع ^(١) ، وأنه يحسن الظن بهذه الطرق جميعاً ، ولا يحكم على فقراء هذه الفرق التي أسلفنا ذكرها بأنهم خارجون على الشريعة لمجرد إشاعة تنظائر حولهم ، بل لا بد له من أن يرى بعينه حتى يستطيع أن يحكم حكماً نطمئن إليه نفسه ، فإن في كل طائفة من الفقراء الصالح والطالح ، فلا ينبغي أن يشمل الحكم كافة فقرائها ، لأن في ذلك غبناً على الصالحين فيها ^(٢) .

والظاهر أن الذي حمل الشعراني على الرفق في هجومه على هذه الطوائف هو مذهبه في تملق الناس ومجاملة الفرق ومسألة الخصوم ولا سيما إذا كانوا أقوياء ^(٣) . فإن رأيه فيهم كان سيئاً ، وقد ظهر ذلك في فقرات أخرى ذهبت أشتاتاً في مختلف مصنفاته ، منها قوله على لسان أحمد الزاهد : إن الملامية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمديّة والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصره لأن أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة ^(٤) . ويقول في مهاجمتهم إن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يتركون حرفتهم ويدورون في الزوايا كلا على الناس والاخوان يأكلون من الصدقات « وأوساخ الناس » بعد أن كانوا يقتاتون

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤

(٣) انظر شرح هذا في كتابنا عن « الشعراني إمام التصوف في عصره » .

(٤) الشعراني : قواعد الصوفية ص ١٧٥

من حرفتهم^(١)، وأن بعض فقراء الأحمديّة والبرهامية قد قنعوا بلبس الزى وجعلوا فروض الوضوء وشروط الصلاة، ومثل هؤلاء ليسوا شيوخاً بإجماع المسلمين. فقد أدرك الشعراى للأحمديّة والبرهامية شيوخاً كانوا على الكتاب والسنة^(٢) وقال إنه يكثّر من إرشاد هؤلاء الفقراء إلى التلمذ على يد شيخ من الأحياء، يريهم وينصّحهم بالآلا يكتفوا بالسوك على يد الأموات من الأولياء^(٣)، وروى المناوى عن أبى السعود الجارحى أنه كان يرميهم بقصور الهمة ولا يأخذ العهد على من تلمذ لهم من قبل... الخ^(٤).

وإن هذا الطعن كله لينى بما كان لهذه الفرق من نفوذ وما توافر لها من سلطان، ولعل من الانصاف أن نقول إن هذا الوهم الذى سلطته حرمة الموت على الناس كان إذ ذاك أمراً طبيعياً لا يدعو إلى دهشة ولا يثير عجباً، لأنه وليد عوامل كثيرة تضافرت على وجوده وتعاونت على بثه فى نفوس الناس، فمن ذلك ما ساد العصر من شعور دينى عميق كان يحمل الناس — خاصة وعامة — على الإيمان بقداصة كل ما يلصق بالدين من طقوس ورسوم وما يرتكب باسمه من بهتان وضلال. ثم هذه الجهالة التى تملكتم رموس الناس وأضعفت من تفكيرهم فى ظواهر الحياة وجرتهم إلى الخلط والاضطراب كلما عمدوا إلى تعليل إحداها حتى جعلوا العلة الأولى، سبباً مباشراً لكل ما نرى فى الحياة من شر أو خير. ثم هذا الضنك الذى كانوا يعانونه ويقاسون ضيقه، وذلك الجزع الذى ملأ هذا العصر الذى كانت فيه بيوت الأمراء فى تشاحن وانقسام حتى لانكاد نطلع إلا على وثبة من حزب على حزب أو فتكة من أمير بأمير^(٥). ولا شك أن ذلك كله كان كبير الأثر فى قلق الناس وجزعهم من عدالة الأرض، والتناسم الانصاف فى رحاب السماء، ومادام الإيمان بالله قد عمر نفوسهم، والجهل قد عشنش فى رموسهم،

(١) البحر المورود ص ٢١٦ — ٢١٧ (٢) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٤ (٤) السكواكب الدريصة ص ٤٧٨

(٥) محمد فريد أبو حديد: سيرة السيد عمر مكرم ص ٢.

والضئك قد أخرج صدورهم ، والخوف قد أنقض ظهورهم ، فإن إيمانهم بأولياء الله بعد الممات يصبح أمراً طبيعياً محتوماً لا مندوحة عنه ولا مفر منه ..

عرضنا فيما سلف من فصول هذا الكتاب مظاهر النفوذ التي تهيأ لأرباب الطريق — أحياء وأمواتاً — عند شتى طبقات الشعب ومختلف هيئاته ، وعرفنا كيف استعبدوا السادة واستبدوا بالطغاة وأذلوا الجبابرة وأخضعوا الخصوم وانتصروا على الحساد واستولوا على أموال الأثرياء ... ونريد الآن أن نعرف الأسباب التي هيأت لهم هذا النفوذ الواسع عند مختلف الهيئات .

اسباب انتشار التصوف

صلاحية مصر لانتشاره — الترف في معيشة أرباب

الطريق — سقوط التكاليف الدينية عن مدعى

الولاية — حالة مصر تحت الحكم العثماني —

حب الأثرak للدروشة

صلاحية مصر لانتشار التصوف :

يقول الأستاذ لين « Lane » ، إن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات ، وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين ، وكثير من خرافاتهم الشائعة بينهم يؤلف اليوم جزءاً من دينهم ، لأن القرآن قد قال بها وأيد وجودها . . . ! وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعفاريت ^(١) . ثم أسهب الأستاذ في شرح هذا النوع من الإيمان عند المصريين ، وعقب عليه بشرح نوع آخر من الإيمان الخرافي ، هو الإيمان بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو جنون أو دجل .

ويعيننا من النص السالف أن نلاحظ إطلاق الكلام فيه إطلاقاً لا يحده قيد ولا شرط ، لأنه يقرر أن العرب بطبيعتهم أهل خرافة ، وأن المصريين بفطرتهم عباد أوهام ، وربما انتهى بنا هذا التقرير إلى الدعوة العريضة التي حمل علمها في مستهل القرن الماضي رينان « Renan » ، وأشباعه ، يوم فرقوا بين الشعوب في قدرتها على الفكر والنظر ، بدعوى الاختلاف في حظهم من الطبيعة السامية والطبيعة الآرية . . . ! على أن النظرة التي أملاها التعصب في القرن الماضي ، قد أخذت تذوب وتلاشي في القرن الحاضر أمام الأبحاث العلمية التي يقوم بها مؤرخو الفكر البشري ، ولا سيما من اهتم منهم بدراسة الفلسفة الإسلامية .

والرأى عندنا أن انتشار الخرافات في شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوع الجهل، عكسياً مع انتشار العلم، وإذا فشت الجهالة في شعب وأصابته الفاقة وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة، كان هذا الشعب أصليح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام. وقد توافرت في المصريين إبان العصر العثماني هذه الصفات: ملأت الجهالة رؤوسهم وأنقضت الفاقة ظهورهم، وأخرجت المظالم صدورهم، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التي ثقلت على كواهلهم، وأقوى مظاهر الخيال الذي يميل إليه هذا النوع من الشعوب، ما كان له اتصال بالعقائد الدينية، لأن التدين يغذى هذا النوع من الإيمان الخرافي ويقويه في نفوس أهله. فرد الأمر في هذا الإيمان إلى الظروف التي أحاطت بالشعب المصري لا إلى طبيعته.

هذا فيما يتصل بالدجالين من مدعى التصوف، فأما المستنثرون فقد كان سبيل الاطلاع على كتب السلف من أهل التصوف ميسراً لهم، فالغزالي — على وجه الخصوص — كان ذائع الصيت في العالم الإسلامي كله، وقد انتشرت تعاليمه وشاعت مؤلفاته في التصوف وغيره، وتناولها الكتاب بالشرح والتلخيص والاعتراض والتأييد، وحسبنا أن نعم في هذا الصدد أن كتاب الوجيز قد كتب عنه سبعون شرحاً بعضها في ستين أو ستة عشر مجلداً^(١)، وقد ساهمت مصر بنصيبها في هذا الميدان، ومن مظاهر الاشتراك في فهم تعاليمه إبان العصر المملوكي أن محمد بن علي العجاوني + ٨١٣ قد قام

(١) الزبيدي ج ١ من أبحاث السادة المتقين ص ٤٣

وقد وضع كتاب الأنوار القدسية، ولخص فيه « الفتوحات المسكية » لابن عربي، وخص به العلماء الأكابر، إذ « ليس لغيرهم منه إلا الظاهر » ثم اختار منه كتاباً سماه « السكربت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر » في جزءين، « ووضع البواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكبر » في جزءين، حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشف والعيان وعقائد أهل الفكر والاستدلال، وأقام هذا الكتاب كله على أقوال ابن عربي في الفتوحات وغيرها من آثاره، ووضع كذلك « سواطع الأنوار القدسية » فيما صدرت به الفتوحات المسكية، وهو — فيما نعلم — لا يزال مخطوطاً، و... الخ.

بتلخيص كتاب « الإحياء »، وكان شيخ خانقاه سعيد السعداء، وقام أخوه باختصاره في كتاب وصف الشيخ زين الدين قطلوبغا الحنفى المصرى + ٨٧٩ هـ كتاباً أسماه « تحفة الإحياء » فيها فوات من تخاريج أحاديث الإحياء، ثم وضع الجلال السيوطى + ٩١١ مختصراً آخر « للإحياء »، وكان السيوطى طائر الشهرة قوى النفوذ بين معاصريه، وجاء الشعرانى فوضع رسالة فى كلمة للغزالى هى « ليس فى الامكان أبدع مما كان »، واطلع الشعرانى على كتب ابن عربى وتأثر بها تأثراً أدى به إلى أن يصبح « بوقاً » لابن العربى يردد فى كتبه آراءه بين الحين والحين^(١). ثم جاء « الزبيدى » فى أواخر العصر العثمانى + ١١٠٥ هـ فشرح الإحياء فى عشرة أجزاء كبار^(٢)، وقراء الجبرقى وغيره من مؤرخى العصر يعرفون أن كتاب الإحياء للغزالى والرسالة القشيرية وعوارف المعارف للسهروردى كانت شائعة منتشرة بين المستنيرين .

ومن الخير أن نعقب على هذا الكلام المجمع، بذكر ظواهر أخرى كانت من أعظم البواعث أثراً فى شيوع التصوف بين الناس :

كان الفقراء أرواح بالاولأكثر طمأنينة من الفلاحين فى حقوقهم والتجار فى متاجرهم والصناع فى مصانعهم، فقد كانوا كما أسلفنا من قبل فى أمان من تطبيق القوانين، ومنجاة من ضغط الرأى العام، واستعلاء على أبسط مبادئ الدين، وقل من الحكام من سوى يدهم وبين سائر طبقات الشعب فى جمع الضرائب وأخذ الأتاوات وإزعاجهم بالعدوان بين الحين والحين، كان الشعب يئن ولا سيما فى فترات الظلم إبان هذا العصر — من شدة الضنك والاعتداء على الحرمات وامتهان الحريات على أيدي فرق الجند التى كانت لا تجد لها رادعاً يردعها عن هذا الغى، وكان الحكام — فى الكثير من

(١) انظر كتابنا عن « الشعرانى إمام النصوف فى عصره » ص ٥٩ - ٦٣

(٢) طبعة مصر — أما طبعة المغرب فتقع فى ١٣ مجلداً (ومن الصعب على المصرى قراءتها للاختلاف فى رسم الحروف بين المصرين والمغاربة .

الآحياءين — إذا اهتموا بعلاج هذا الفساد عجزوا عن الضرب على أيدي
الآثمين والمعتدين ، فلبجأوا إلى الشعب الذي يئن ويشكو من هذا العدوان ،
وطالبوه باخفاء نفسه عن المفسدين ، وشددوا النكير على من لا يستجيب
لهذه الأوامر^(١) ، وما أكثر حوادث العبث بالمشايخ بخطف عمائمهم
والاستهتار بالناس والاستهانة بالحرمان بخطف النساء والصبيان من
الطرق ليلاً ونهاراً^(٢) . وكان التجار — في فترات الظلم — لا يأمنون على
بضائعهم وأموالهم من العدوان الذي يتوقعون نزوله بهم بين الحين والحين .
وقد كان من عادة الفرق العسكرية إذا فتحت بلداً شاركت أهل الحرف
في مكاسبهم ، فيمضى الجندي منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه في المحل
ويصبح شريكه في أرباحه...!! حتى ثقل على أهل البلدة هذه الفعلة لتكلفتهم
مالاً ألفوه ولا عرفوه^(٣) . وكان التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع
الناس يتصايحون ويتسابقون في العدو ، فسرعان ما يحسبها فتنة قد شبت
نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فراراً...!! وكثيراً ما كان يتضح له بعد ذلك ألا
فتنة ولا قتال ، فيعود إلى محله فيفتحه^(٤) . وكان الفلاح في قريته معرضاً
لنوع آخر من الفرع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه
بدفع الضرائب والأدوات ، فان عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه^(٥)
وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالاً : بالمقارع والكسارات وعصر الرأس
وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق
ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس^(٦) وما إلى ذلك من ضروب القسوة
البالغة ، وكان المباشرون — ولا سيما في بداية الفتح — كالمالوك يتصرفون

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٤٩ ، ابن أبياس ج ٣ ص ١٥٠ و ١٨٣

(٢) ابن أبياس ج ٣ ص ١٤١ و ١٨٣

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ (٤) الجبرتي ج ٢ ص ١١٩

(٥) الرافعي في الحركة القومية ج ١ ص ٣٠ (٦) المناقب الكبرى ص ١٣١

في أمور الدولة بما يشاءون « وليس على يدهم يد »^(١) وما كان الولاية والكشاف والأعراب وقطاع الطرق ومناصر اللصوص هم وحدهم الذين يقلقون بال الفلاحين والتجار بين الحين والحين ، فقد كان الأغنياء والفقراء ينزلون بضياقتهم فيبادر هؤلاء بإعداد الطعام الفاخر لهم ، وتهيئة الجو الصالح لضياقتهم ، ويتحملون في سبيل ذلك ما لا قبل لهم باحتماله^(٢) ، بل كان التقصير في أداء هذا الواجب يعتبر عند الناس فضيحة^(٣).

أما المجاورون في الزوايا فقد كانوا — حتى في أغلب فترات الظلم الفادح — في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم ويخشون سلطانهم الروحي ، ويؤمنون بانصالحهم بالله فيترلفون إليهم ويطلبون الرضاء منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيده في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال .

الترف في معيشة أرباب الطريق :

وكان للفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك ، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانتقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله . ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتأفة من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، وقد وصف مؤرخو العصر — من الجبرقي وابن اياس والشعراني ومن إليهم — حال المصري تحت الحكم العثماني ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك ، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر

(٢) ودع الفقراء من ١ ، ٢ ، ٢٠

(١) ابن اياس ج ٣ ص ١٨١

(٣) البحر المورود ص ٣٠٤

اليسر والهناءة . فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يشير الدهشة ويدعو إلى العجب (١) .

سقوط التكاليف الدينية عن معنى الولاية :

كان من العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأي القائل بأن الولي يسقط عنه كل ما أمر به ، ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله ، والأصل في الرأي أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى في الولاية . فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية ينقذهم من تكاليف الدين ، وينجيهم من فروضه وواجباته ، ويتيح لهم التمتع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات - وكان طبيعياً أن يشيع مثل هذا الرأي بين ناس قد انحلت أخلاقهم في عصر شاباه الذل وتمشى فيه الضنك وساده الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس - فنزع بعض الناس إلى الهرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأي العام على حرية الناس ، بالتماس الحرية في رحاب التصوف ، وإدعاء الولاية التي ترفعهم عن سائر البشر ، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد .

ولعل انحلال الأخلاق في هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية ، ولا عجب في أن تنحل أخلاق قوم يشتد في نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فإن تاريخ الأديان يقول إن عصور الاضمحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمي إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ، ونزعة ترمي إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنباً إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد . !! وبهذا وجد انحلال الأخلاق في مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره

(١) انظر في تفصيل ذلك الفصل الثاني من كتابنا عن « الشعراني » . وقد أدى الترف الذي ينعم به المريدون ومن إليهم من مجاورى الزوايا وروادها ، إلى إقبال الناس على اعتناق التصوف والافادة من ثمراته .

من تعصب شديد ، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقى شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة^(١) وشيوع الشذوذ الجنسي من عشق المرد والغلمان ، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعرائى عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهى تخادع زوجها وتستغل غفلته^(٢)!! وقد كان هذا الداء شائعا فى هذا العصر ، فقد انتشر الزنا بحيلة الجار أو من غاب زوجها ، حتى لم يسلم منه أحد ، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع فى الزنا فليحلف بالله على ذلك ، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابهم^(٣).

ومن أمثلة النوع الثانى ما رواه عبد الغنى النابلسى عن إمام مسجد السنانية ببولاق فقد حضر النابلسى مع زين العابدين البكرى + ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن فى خطبته وصلاته ، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسى وابتسم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه ، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين فى زاوية الكشنية وأخذ يتشفع عنده ، وفى أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها ، فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يتسم لكثرة لحنه فى خطبته وصلاته . « فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التى هى مناه ، ثم عدل عن ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون^(٤) ولو أن تعاطى الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته ؛ لالتبس هذا الامام عذرا للحنه غير

(١) كان الأفيون غير شائع بين المصريين وإن شاع بين الأتراك فى مصر وقد نشى الحشيش بين المصريين كما يقول كلوت بك فى «لحة إلى مصر» ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) العهود المحمدية ص ٢٧٩

(٣) العهود المحمدية ص ٣٤٧

(٤) عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز + ١٠٧ — ١٠٨

هذا العذر ، والجبرتي وابن إياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوزة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر^(١) .

والأمثلة على النوع الثالث (الشدوذ الجنسي) كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، فكثيراً ما ترى في كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يعشق الغلمان سماحه الله^(٢) وقد عرضنا بعض مظاهر هذا النوع من قبل . وليس أدل على شيوع الشدوذ الجنسي بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعه بك طهطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشرا بين أهلها . كأن انتشاره هو الشيء الطبيعي وغير الطبيعي حقا ألا يكون شائعا بين الناس^(٣) .

هذا الانحلال في الأخلاق قد ساعد الناس على التهافت على دخول الطريق وادعاء الولاية ، وعاون على تمهيد السبيل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة ، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل ، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء ، ويتساموا بأنفسهم عن تضليل الناس وينبذوا أن نشير الآن إلى أن العوامل التي أسلفناها لم تكن وليدة العصر العثماني وحده ، فقد قامت في مصر وعظم أمرها قبله ، وازداد خطرهما واستشرى داؤها إبان العصر العثماني ، وذلك متفق مع رأينا الذي أعلنناه من قبل حين قلنا إن التصوف الذي قام في مصر إبان العصر العثماني ، كان امتدادا طبيعيا للتصوف الذي شاع في مصر قبيل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن في نوع تياراته بل كان في قوتها أو ضعفها ، وسنزيد هذا الكلام وضوحا فيما يلي من حديث .

(١) في ابن إياس ج ٣ ص ١٣ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ،

١٩٨ أمثلة لتأييد ذلك .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٧٦

(٣) الذهب الأبريز لرفاعة طهطاوى .

هالة مصر تحت الحكم العثماني :

ساعدت الحالة في مصر تحت الحكم العثماني على نمو التصوف وازدياد انتشاره ، والرغبة في تأييد هذا الرأي لا تمنعنا من التصريح بأن الحالة في هذا العصر كانت فيما نرى امتدادا طبيعيا للحالة قبيله ، وأن الخلاف بينها كان فيما شمل التيارات من قوة أو ضعف . . لا نقول إن الحكم في العصر العثماني قد ساء ، ولكننا نقول إنه ازداد سوءا فترتب على ازدياد السوء فيه نتائج ، كان من أكبرها خطرا ما اتصل بالتصوف وموقف الناس إزاءه ، إذ أدى بهم شعورهم بنمو السوء في الحكم الجديد الى مضاعفة الرغبة في دخول الطريق واعتناق التصوف . . . ولكن هذه الآراء كلها أحكام عامة لا يحسن بنا أن نمر بها دون أن نحاول التدليل على صحتها :

إن الشعوب إذا مرضت بالفاقة والجهالة تناسب رضاؤها عن الحكم تناسبا طرديا مع رخاء العيش وصيانة العقائد الدينية في عهدهم ، فالحكم الذي ينجح في تحقيق اليسر لهم ويصون تقاليدهم الدينية من عبث الاستهتار ، يكون أحب للحكام إلى نفوسهم ، وأدناهم الى عواطفهم ، ولو امتنن حرياتهم واحتقر كرامتهم وداس كافة حقوقهم وحرمانهم ، فاذا نظرنا الى الحكم العثماني بهذا المنظار وقارناه بالحكم المملوكي في نهايته ، قلنا إن المصريين قد ساءهم حكم المماليك في أواخره ، ثم ازداد استياءهم في أيام العثمانيين سوءا بالغاً ، فلنشرح هذا في إيجاز .

فن ناحية الحياة الاقتصادية ، اضمحلت ثروة البلاد باكتشاف رأس الرجاء الحسن وتحول التجارة عن مصر ، وخويت خزانة بيت المسلمين في عهد الغوري حتى رشق جامع الضرائب بالحجارة في شوارع القاهرة^(١) وبلغ من شدة العوز أن اختار الأمراء بعد مماته « طومان باي » ليخلفه فامتنع عن قبول

ذلك وألح في الامتناع حتى استعان الأمراء عليه بأحد كبار الأولياء — هو أبو السعود الجارحي — فجمعهم به وجعلهم يقسمون على المصحف أمامه بأن يطيعوه وبهذا تولى « طومان باي » السلطنة على مصر^(١) ولكنهم حثثوا بأيمانهم وتخاذلوا عن نصرته في رد العدو الزاحف حين أعلن إفلاس الخزانة وعجزها عن مدهم بالمال الذي يتطلبه القتال^(٢) وكان الشعب يشعر بصدى هذا الإفلاس في معيشتة .

وأما من حيث الحرص على تقاليد البلاد الدينية فقد عجز الحكم المملوكي عن القيام بهذه المهمة في أواخر أيامه ، فقد كان الناس يجاهرون بارتكاب المعصية ، فإذا حرم عليهم ذلك وحتم على اليهود والنصارى ألا يبيعوا الخمر والبوزة والحشيش ، لم يمتثل لأمره أحد منهم ، ولم ينته الناس عما هم فيه — بالغيا ما بلغت القسوة في التهديد بالعقاب^(٣) .

كان طبيعيا بعد أن يشعر الناس بعجز الحكم المملوكي عن توفير أسباب الرخاء وصيانة التقاليد الدينية أن يبغضوه ويرغبوا عنه ويميلوا إلى حكم جديد ، فاغتبطوا بالحكم الجديد ولا سيما وقد اشتهر أهله بالجهاد الديني ، وذاع عنهم العمل على نشر الاسلام وبسط نفوذه ، ولكن اغتباطهم لم يدم طويلا ، لأن الحكم الجديد قد أثبت منذ وطئت قدمه أرض مصر أنه أعجز من الحكم القديم عن ارضاء الناس بتوفير اليسر لهم ، وحماية عقائدهم من عبث العابثين . فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، ازدادت أحوال الناس ضيقا لأن الحكومة الجديدة كان عليها — كما عرفنا في الكلمة التهديدية للرسالة — أن ترسل للسلطان خراجا يبلغ الستمائة ألف ريال وهدايا بنحو ستمائة ألف أخرى عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود في مصر وما يتقاضاه الوالي الذي كان يشتري الولاية على مصر بمبلغ يتراوح بين الأربعمئة ألف والخمسمائة ألف

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٦٩

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ٨١ — وقد أراد أن يتراضم بالقليل فرموه في وجهه ص ٨٤

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٨٥

ريال . ولما كان الأتراك يعتبرون مصر مزرعة تدر عليهم المال والخير الوفير فقد كانوا يقصدونها بين الحين والحين لتحقيق لهم مطالبهم ، وقد تباروا في نهبا منذ اليوم الذي وطئوا أرضها ، وقد عرفنا هذا في الفصل التاريخي الذي مهدنا به لهذا الكتاب .

وأما من حيث الحرص على التقاليد الدينية فإن الحكم الجديد قد عجز كذلك عن أداء هذه المهمة ، فكان ينادى بإبطال بيوت الحشيش والخمر والنبذ والبوزة ويحرم الزنا ويقتل كبيرات البغايا من أمثال « أنس » ثم يطالب العثمانيون بإعادة ذلك ويتعصبون مصريين على إجابة مطالبهم فلا يلبث ملك الأمراء حتى يستجيب لهم ويقر بأن « أولاد « أنس » لا يعارضون فيما يفعلون من جمع « بنات الخطا » كما كانت تفعل أمهم ^(١) » !! وقد عرف الناس هذه الاستهانة منذ استولى « سليم » على البلد ، فقد شاع بينهم أنه حين طلع القلعة رأى خيمة المولد فباعها للغاربة بأربعمائة دينار ، وباعها هؤلاء قطعا للناس ، مع أن قايتباي قد أنفق في صنعها عشرين ومائة ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك حتى كانت من عجائب الدنيا ^(٢) وقد كان العثمانيون في الجملة يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس ، وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم في المسجد صلاة - حتى صلاة الجمعة إلا قليلا . . . !! وكذلك كان أمراؤهم ووزراؤهم كما يقول ابن إياس ^(٣) . وبلغ من عدوانهم على الناس وحرمتهم أن كانوا يخطفون النساء ويفسقون بهن على قارعات الطريق والناس تنظر إليهم وتكظم الغيظ منهم ، وغير ذلك من ضروب الشذوذ الذي كان نادر الحدوث قبل العصر العثماني .

على أن المقارنة التي أسلفناها غير وافية لأنها تشمل فقرتين قصيرتين ، وقد أوردناها لتوضيح حالة الجمهور النفسية في أواخر العصر المملوكي وأوائل

(٢) ابن إياس ص ١١٢ ، ١١٣

(١) ابن إياس ص ١٩٧ ، ١٩٨

(٣) ابن إياس ص ١٣٤

العثماني ، ولنعرف موقفه من الحكم الجديد على وجه الدقة ، وينبغي أن نقول في معرض المقارنة بين العصرين أن المماليك كانوا يرتقون العرش بحمد السيف ، وأنهم كانوا بحكم مهارتهم في فن الفروسية أقدر على حفظ الأمن والفصل في قضايا الناس من الولاة العثمانيين الذين كانوا يشترون الولاية بالمال ، وكان الفائز بها منهم أقدر جميع الطامعين فيها على ابتلاعها ، وأن المماليك كانوا لا يعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر حتى كان السكثيرون منهم يفاخر بأنه مصرى ، وسماه بعض المؤرخين بالأمراء المصريين ، ولهذا أثره في عطف الحاكم على شعبه ، وكان عصرهم في الجملة أقل ضنكا وفاقا من عصر العثمانيين فان رأس الرجاء ، لم يكن قد كشف بعد ، وكانت التجارة تدر عليهم أموالا طائلة ، ولم تكن هناك دولة أجنبية تطالبهم بالخراج أو الضرائب ، فكان حكم المماليك في الجملة آثر عند المصريين من حكم العثمانيين الذين طغت فرقم العسكرية على الحقوق وامتنعت الحريات واستهانت بالحرمانات ، وهي المنوطة بحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، فكان الفتح الجديد نسكبة لا حيلة للمصري حيالها ، ف شعر بأن الأرض قد خلت من سند ينصره فراح يلتمس العون في رحاب الأخرى وأحس بأنه غير آمن على نفسه وماله وولده ، وأنه لا يملك في الدنيا شيئا نفيسا ولا نافعا ، فزهد في الدنيا ومال إلى جنات الآخرة التي يحميها حرس الله ويشرف عليها بعدله ولا تغفل عنها عينه ، وتكتمل للإنسان فيها طمأنينته ، أما ملوك هذه الأرض وطغاتها فسيعرفون يوم الدين كيف تذل الرقاب العاتية ، وتعلو رؤوس الضعفاء وتشمخ أنوف الفقراء ويتملك من كان بالأمس ذليلا . . . !

ومن طبيعة الفقر أن يحمل أهله على الإيمان بالله والاعتقاد في رحمته ، وتاريخ الأديان يقول إن الذين استجابوا الرسالات الأنبياء وخفوا النصرتهم سرا عاظم الفقراء والمعوزون والمحتاجون ، وقد كان تسعة أعشار الإمبراطورية الرومانية يزرع تحت نير الفاقة فاستجاب للمسيحية حين دعاها الداعي إلى اعتناقها دون تمهل ولا إبطاء . . . !

ضاق الجمهور المصرى بحاله فلاذ بالدين وزهد فى الدنيا ومتاعها ، واشتد ميله إلى المسرفين فى الروحية وعظم حبه للزهدة والقانعين بالتافه من شئون العيش . فكان المتصوفة فى عرفه أقرب إلى الله من الفقهاء — أصحاب الوظائف وأرباب الزلفى عند الحكام — وبهذا ازداد التفافه حول الدراويش وعظم إيمانه بكل من ادعى الولاية وأسرف فى التظاهر بالتصوف .

على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الحكم العثمانى فى مصر قد صلح حاله بعد بداية الفتح ، ولكن ذلك — على فرض صحته — لا يغير من رأينا كثيراً ولا قليلاً ، فإن الاضطراب الذى صاحب الفتح فى بدايته ، قد ساعد على اطراد نمو الدروشة واستمرار انتشارها ، فكان غير طبيعى أن يرتد هذا التيار الجارف بعد حين ، وإذا كان علماء المنطق يقولون إن الحكم إذا ثبت بعلّة فالقياس أن يزول بزوالها ، فإن علماء الاجتماع ليعرفون بطلان هذا الحكم عندما يطبقونه على الكثير من الظواهر الاجتماعية ، فكثيراً ما تصادفهم ظاهرة من الظواهر ، ويعرفون العلل التى أوجدتها ووجهتها فى تيارها ، ثم يرون أن العلل التى كانت السبب فى وجودها قد تلاشت واختفت ، ولكن الظاهرة التى نجمت عنها ما لبثت سائرة فى مجراها ماضية فى تيارها لا ترتد عن طريقها حتى يدركها الضعف فيوهن من سيرها وينتهى بها الوهن إلى الزوال ، فهى تسير مدفوعة بالقصور الذاتى . . . وقد يستغرق هذا الانحلال من الزمن أجيالاً طويلاً تمر بعد زوال العلل التى أدت إلى وجود هذه الظاهرة . . .

حب الأتراك للتروية :

كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم ، ولئن كان الولاة قد قربوا العلماء واعتمدوا عليهم بعض الاعتماد فيما يتصل بالشعب من شئون الحكم ، فذلك لأنهم أوفر علماً من أرباب الطريق .

فأما موقف الحكام العثمانيين وجنودهم من المتصوفة فقد أعلنه الجبرتي عندما عرض للكلام على عمارة التنكية المجاورة للقصر العيني المعروفة بتسكية البكتاشية ، إذ قال إن الذى قام بتجديدها بعد خرابها رجل من الدراويش قابل حسنى باشا وهو فى هيئة الدراويش وطلب إليه العون فاستجاب لمطلبه وساعده على تعميرها من رشوات مناصب المكوس التى توسط لأربابها هذا الباشا ، وقال الجبرتي إن الذى حمى على هذه المساعدة أن الأتراك «يميلون لذلك النوع - أى الدراويش - فصار صاحب الخانقاه من أخصائه لأنه من أهل عقيدته» (١).

والمعروف أن الجنود على شجاعتهم فى ميدان الوغى يستعبدهم سلطان الأولياء الروحي ، فيؤمنون بالأساطير والخرافات ، لأن القتال شدة تحمل صاحبها على الاعتقاد فى الله والإيمان بما وراء المادة ، وقد كان الجند فى مصر على هذه الحال . روى المناوى فى ترجمة ابراهيم الكلشنى العجمى الذى دخل مصر فى دولة بنى عثمان ، ومات سنة أربعين وتسعمائة . أن الجند تهافتوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتتلون على شرب الماء الذى بقى من غسيله فى الحمام .. وقد خافت الدولة من سلطانه وخشيت من تفكيره فى الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان فقررت نفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمان . فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امتثالاً لأمر السلطان (٢) .. وقد بلغ من تهافت الجند على الطريق أن كان بعضهم يأخذه الحال فيجذب ويصبح فإذا هو ولى من أولياء الله « وفرح » المجذوب أصدق مثال لهؤلاء (٣) وقد روى المحبى فى ترجمة محمد المرزناقى + ١٠١٤ أنه اشتهر بالتعويذات فراج حاله عند الأروام « بسبب اعتقاد المتقدمين منهم ونال بسبب ذلك وظائف ومعاليم كثيرة » (٤).

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٤ (٢) السكواك الدرية للمناوى ص ٤٧٢ ب

(٣) السكواك الدرية للمناوى ص ٥٠٩ ب (٤) خلاصة الأثر للمحبى ج ٤ ص ١٥٨

وقد روى المحبى والنابلسى فى ترجمة شاهين الدمرداش + ٩٥٤ أن نواب مصر وأمرائها كانوا شديدي الاعتقاد فى ولايته^(١) وأنهم كانوا يلتمسون تقبيل يده فلا يلتفت اليهم ولا يعبأ بهم^(٢).

وقد رويتا الكثير من أمثال هذه الحوادث من قبل، وكلها تشهد بمدى اعتقاد الحكام العثمانيين فى أرباب الطريق، وليس ينفي هذا أن حكام مصر قبل العصر العثمانى كانوا - فى الأغلب - أتراكا، فالفارق كبير بين تركى يعين فى الآستانة حاكماً لمصر ويفد عليها تركى العقل والروح واللسان، وتركى يفد على مصر مملوكاً صغيراً فيما أقلم فى أرضها ويعيش فى جوها ويتعلم لغتها ويصبح تركيا فى أصله مصرياً فى روحه وعقله ولسانه.

وليس من شك فى أن وجود العثمانيين حكاماً لمصر قد شجع الكثيرين من دراويش الأتراك على الهجرة إليها والإقامة فى أرضها، ولسنا نعرف على وجه الدقة متى تكونت فى مصر الفرق التى تنحدر من أصل تركى، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحكم العثمانى فى مصر لم يكن معدوم الأثر فى التصوف وطرقه ..

أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انتشار التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، وهى تغنيانا عن السبب الذى التمسهُ الأستاذ د. لين، وأشرنا إليه فى مستهل الحديث عن هذا الموضوع، لأن الطبيعة البشرية واحدة فى أصلها، وإن كان من المسلم به أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهى فى كل حالاتها تتأثر بالبيئة التى تعيش فيها، وتتغير بتغير هذه البيئة - اجتماعية وجغرافية معاً .. فمن الخطأ أن يقال بعد هذا إن الشعوب تختلف فى طبقاتها وتتفاوت فى الفطرى من ميولها ونزعاتها ..

حسبنا هذا من أسباب انتشار التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى، ولنعرض بعد هذا إلى الإبانة عن الحملات التى كابدها شيوخ الطريق لنعرف أثرها فى دولتهم التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل :

الفصل الثاني

١ - الإنكار على أرباب الطريق

حملات الناس : موقف المنكرين من الجنود والحكام
— النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق — الحق في
صدور العلماء — بعض مظاهر العملية — التناسب
الطردى بين حق الفقهاء وعلم أرباب الطريق —
بعض مظاهر الحق النظري — تصوف الفقهاء الذين
انتصروا لمشايخ الطرق — بعض مظاهر حب الفقهاء
لأهل التصوف — موقف المتصوفة من الفقهاء —
استمرار النزاع إلى اليوم — حملات أرباب الطريق
على لمخوانهم في الطريق — بعض مظاهر المقاومة
الفعلية ضدهم — بعض مظاهر المقاومة النظرية .

أبنا فيما أسلفنا كيف كان الفقراء دولة داخل الدولة ، يميزهم عن سائر
الناس عرف وقانون ودين !! وعرفنا شيئاً عن واسع النفوذ الذي تهيأ لهم
عند شتى الطبقات ، وكفل لهم السيادة على جميع الهيئات ، وأذل أمامهم
جبابرة وطغاة كانوا لا يعرفون في الحياة الدنيا مذلة ولا هواناً ، وهياً لهم
استعباد الأتباع استعباداً يقره الدين لحير الله على عباده . . . ولكن هذا
السلطان الواسع النطاق المبسوط الرحاب كان كثيراً ما يصادف المنكرين له
الساخرين بأهله ، وقد كان ذلك طبيعياً في شعب يكثر دجالوه ونفثوشعوذتهم ،
ويظهر فيه الأدعياء سافرين من غير حجاب ، لا يقنعون بالاعتداء على
الحريات ، والعدوان على الحرمات ، بل يستمرئون العيش على حساب الأغنياء
والفقراء معاً ، ولا يتورعون عن الظهور بمظهر الحياة المترفة أمام الناس كما
أبنا فيما سلف . وإن كان علينا أن نسارع بعد هذا إلى التصريح بأن

المنكرين وإن كانوا كثيرين — فيما نظن — فإن سلطانهم كان ضعيفا وجرأتهم على مقاومة هذا الضلال كانت كسيحة تعوزها القدرة على النهوض والحركة . ولعل هذا كان ما أغرى الدجالين بالظهور أمام الناس سافرين لا يستر دجلهم حجاب ، ولا يوارى استهتارهم بالدين والعرف نقاب ...

ومن الدلائل الشاهدة بظهور المنكرين في هذا العصر ، أن أرباب الطريق فيه قد أكثروا من الدعوة إلى احترام التصوف والتحذير من الإنكار على أهله ، وقد حفلت كتبهم بالإلحاح في الدعوة إلى التصديق بالكرامات والتسليم بمزاعم الأولياء ، والإسراف في تصوير المصير السيئ الذي ينتظر المنكرين ومن سار سيرتهم .. وهذا كله عميق الدلالة على أن دولة الفقراء كانت مهددة بضروب من المعاول تحاول هدمها وتسعى إلى تحطيمها — وإن كانت المعاول ضعيفة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق الوعر كما أشرنا الآن .

وكان الذين يحملون معاول الهدم في أيديهم فئات من : (١) الناس (٢) والجنود والحكام (٣) والفقهاء وحملة الشريعة (٤) بل أهل الطريق كذلك . فلنتناول مظاهر هذا التهجيم على دولة الفقراء مظهرا بعد مظهر .

محملة الناس :

حسبنا عن حملات الناس ما تشهد به النصوص التي وردت متناثرة في آثار أهل العصر ، فمن ذلك قول الشعرائي عن أدعياء الطريق من الدجالين : « وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى — فلان الآخر عمل شيئا .. إكأنهم لا يسلهون له بما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهوتها والتلذذ بمطامعها وملبسها ومناكحها والسعى على تحصيلها حتى أتى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني ؟ فقال : إن كان الشيخ شيئا فأنا الآخر شيخ ، فانه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد مني سعيًا على الدنيا لأنه يسافر إلى الروم (بلاد الترك) في طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحي وأنا لم آكلها بصلاحي فأنا أحسن منه حالا ،

فأردت أن أجيب عنه فربأيت الحس يكذبني،^(١) ويقول في كتاب آخر، وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته فاحتاج إلى طرحة ولحاف وليس معه مال فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا على الثمن، فسخر به التاجر وقال له: لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بجديد. فمكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويسخرون به مدة طويلة،^(٢).

وفي كتب المناوى والمحبي والشعراني والجبرتي كثير من الحوادث التي تشهد بوجوب هذا الإنكار عند كثير من الناس، فمن ذلك ما يرويه المناوى والشعراني عن إبراهيم عصفير + ٩٤٢ من أنه كان ينام مع النصارى فلما سئل في ذلك قال: نمت مرة بجامع الأزهر فسر قوا عمامتي ونعلی ولی عشر سنين أنام عند الرهبان ما سر قوا لی شیئا. ١٠، مع أنه كان كثير العطب لمن يؤذيه كما يقول مترجمو حياته^(٣) ١٠٠.

وروى المحبي، عن إبراهيم النبتيني، - من أهل القرن الحادى عشر الهجرى - أنه أقام بجامع اسکندر باشا نحو عشرين عاما كان الناس طواها يستخفون به ويتناولونه بالسب والتهزى. حتى كان بعضهم يطرده من المسجد مخافة أن يلوته بقذارته^(٤).

وقد صور الجبرتي موقف الناس من مدعى الولاية عند ترجمة على البكرى + ١٢٠٧ والمرأة التي لازمته فقال: وإذا جلس الشيخ في مكان وقف الجميع وازدحم الناس للفرجة عليه وتصعد المرأة على دكان أو علوة وتتكلم بفاحش القول ساعة بالعربي وساعة بالتركي والناس تنصت لها ويقبلون يدها ويتبركون بها وبعضهم يضحك ومنهم من يقول (ساخرا): الله الله. وبعضهم يقول

(١) قواعد الصوفية ص ٢ (٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٦

(٣) السكواك الدرية ٤٧٢، الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٢، تكميل النور

السافر ص ٤١٣، الخطط التوفيقية ج ٦ ص ١٧

(٤) المحبي: خلاصة الأثر ج ١ ص ٦٢

دستور يا أسيادى وبعضهم يقول لا تعترض بشيء^(١).

هذا بعض ما كان يقع من الناس بصدد الإنكار على هؤلاء الأدعياء

موقف المنكرين من الجنود والخطام :

أشرنا من قبل الى اعتقاد الجنود فى ما وراء الواقع وإيمانهم بالله تعالى وأوليائه ، بيد أن المنكرين للولاية قد ظهروا بينهم وكانوا قساة الأكباد مع من لا تعجبهم ولايته . وكثيرا ما أدى إنكارهم له الى ضربه أو قتله دون اكتراث ولا اهتمام .

روى الجبرقى عن على البكرى السالف الذكر أنه مر بموكبه بمنزل جندى اسمه جعفر كاشف فقبض على الشيخ وأدخله الى داره ومعه المرأة وباقي المجاذيب وأطعمه وطرده الناس عنه ثم أطلق سراحه أما المرأة والمجاذيب الآخرون فقد أثنهم طعنا وأمطرهم ضربا حتى طير الولاية من رءوسهم وردهم الى الرشد فاستغاثوا معاذين التوبة فأطلقهم الى حال سيئهم إلا المرأة فانه أرسلها الى المارستان مع المجانين^(٢).

وروى عن العليمى + ١١١٠ هـ أحد الأدعياء أن الناس كانوا يحسنون الاعتقاد فى ولايته ويجتمع عنده النساء والرجال وتفشأ عن اختلاطهم مفسد عظيمة ، فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا اليه وانهاوا عليه بسيوفهم حتى أجهزوا عليه ، وقد قال فيه حسن الحجازى شاعر العصر نظما جاء فيه :

ونساء مع رجال	جالسات بالبدية
سلط الله عليه	بعد هذا حاكميه
قتلوه مع ثلاث	بحسام صالتيه
طول ليل ونهار	أجل فسق تبتغيه
لثلاث بعد عشر	من جماد الثانى فيه
وكفى الله البرايا	شره مع تابعيه ^(٣)

وإنا لنأمل الاستهتار بدعوى الزلفى الى الله فى عبد الرحمن كمتخدا ، الذى

ذبح عنزة كان يدعى كبير خدام المشهد النفيسى أن السيدة أوصت بها خيرا حتى كانت تأتى الكرامات أحيانا مما أدى بالنساء الى أن يعتقدن فيها ويرسلن اليها القلائد الذهبية والأطواق والحلى والفسق واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير ذلك . . فدعى الأمير صاحب العنزة اليه وأدخلها الى زوجته بقصد التيمن بها ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها دون أن يعرف - ثم أعلمه بعد الطعام بنبتها وأمره بالانصراف بعد توبيخه على أن يضع جلد العنزة على عمامته ويزفه طوال الطريق أصحاب الطبول والأشعار على نحو ما يقول الجبرقى فى حوادث سنة ١١٧٢^(١) .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة، وكلها تنبئ عن قيام الانكار فى نفوس بعض الجنود والحكام .

النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

الحفر فى صدور الفقهاء :

تولى الصدارة بين الناس فى هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق ، ورغم ما كان بين الطائفتين من خلاف فى وجوه النظر فقد كان الدين سبيلهما الى ارتقاء الزعامة ، ولهذا كان طبيعيا أن يثور فى صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حيناً ولحيازة السلطة أحيانا . . وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة فى العصر العثمانى مظهرين عنيفين : مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم فى لهجة تتراوح بين العنف واللين . فلنتناول المظهرين فى إيجاز مبتدئين بالحقد الذى ربض فى صدور الفقهاء .

بعض مظاهر المقاومة العملية :

كان العلماء فى الكثير من هجماتهم قساة غلاظ الأكباد يتخطون أوامر

الدين ونواهيہ بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه ، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصوصهم بالتنكيل بهم أو تدبير المؤامرات التى تودى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم - وكان اتصاف الرجل بالتصوف - ولو قام تصوفه عن فقه بالدين - كفيلا فى أكثر الاحايين بيبغض العلماء له وقسوتهم فى معاملته وسعيهم للتنكيل به ، وتاريخ التصوف فى هذا العصر حافل بالمآسى التى تشهد بالتعصب الدينى وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس ، ومن أفضح هذه المآسى اغتيال د عبد الرؤوف المناوى + ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى الى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به :

روى د المحبى ، أن المناوى ، اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه ، ولما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية - وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة كما يقول الجبرتي (١) - وهالهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف . فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب وتأهبوا لانتقاده ، ولكنه شرع فى أقرأ مختصر المزنى ونصب الجدل فى المذاهب وأتى فى تقريره بما لم يسبقه اليه أحد . فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه ، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه ، وقد انتفع به جمهور كبير منهم ، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتي د أحمد الزاهد ، ومدين الأشموني . فأنار هذا الضغينة فى نفوس حساده ودسوا له السم ، وتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستملى منه التأليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته (٢) .

اغتيال الفقهاء المناوى وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعرانى + ٧٣٩ فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى التنكيل به والتشهير باسمه (٣) ،

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ (٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢

(٣) اليواقيت ج ١ ص

وكان الشعراى عالما من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الاطلاع واسع الحيلة ملها بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه . فتكفل هذا الاتهام ببغض العلماء له وسعيهم لتشويه سمعته ، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتلته وإراحة الناس من شره ... وقد كان الشعراى فى كافة كتبه يحتم على الفقراء التفقه فى الدين والتبحر فى شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته - كالواقيت والجواهر - ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشهرته ، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه ، وقد ظهر هذان الحزبان فى فتنة أثارها عليه فى الجامع الأزهر فى مصر والحجاز خصومه وحساده .

ثم سكنت الفتنة وخبث نارها ولكن الضغينة ما زالت رابضة فى صدور خصومه من الأزهرين تتمثل فى وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذى يهدد الدين بالخطر .. وقد أقاموا على بغضه طيلة حياته وتولوه بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه فى نفيه من مصر وكثيراً ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجهل فى الشريعة والحقيقة معا^(١).

التناسب الطردى بين فقر الفقراء وعلم أرباب الطرب:

وعلام هذه الضغينة كلها ؟ لقد كان الشعراى لا يكتب كتابا إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبراهته من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شئ والشريعة شئ آخر ، وما أ كثر الكتب التى حفلت صفحاتها

(١) افرأ تفصيل ذلك فى كتابنا « الشعراى » فى الفصل الأول من الباب الثانى .

بشرح مذهبه في هذا الصدد .. (١) لا بل لقد كان الفقهاء على حق في مناهضة هذا الرجل وأمثاله ممن يدعون الالتزام بظاهر الشرع ولا يلبثون حتى ينقضوا ما أسلفوه بنصوص أخرى تكشف عن نياتهم .

ولهذا كان الحق الذي يحمله الفقهاء لأهل التصوف يتناسب في قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم — فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحثموا على الفقهاء التبحر في الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجاهل وأنصاف الأئمة من أهل التصوف ..! وإذا قارنا موقف العلماء من المناوى والشعراني بموقفهم من محمد كريم الدين الخلوقي + ٩٨٦ ، وعلى البيومي + ١١٨٣ هـ عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول .

كان الخلوقي يمثل دعاة الجاهل من أهل التصوف خير تمثيل . وقد كان حريصاً على جهله وفراره من معرفة الدين وأحكامه واعتقاد مريديه الذين تضج بهم زاويته في سلامة مبدئه وسخريتهم من شيوخ الطريق المتبحرين في فهم الدين . ولكن كل ما نعرفه عن أذى الفقهاء له لا يتجاوز ما رواه المناوى في ترجمته حين قال إنه لم يسلم من مناوأة طائفة من الفقهاء سنة الله في الدين ، وأن فقيه الشافعية شمس الدين الخطيب الشربيني قد أنكر عليه في حياته الابتداء بالجلالة في الذكر وقال إنه مبتدأ ولا بد لكل مبتدأ من خبر فوضع الخلوقي في الرد عليه رسالة صغيرة حاصلها أن القوم ما زالوا على هذا المنوال وأن الخبر مخدوف تقديره المعبود والمطلوب أو الموجود (٢) وقال فيها إن الذكر على هذه الطريقة يؤدي إلى الفتح في باطن الذاكر ويؤتيه من نور الكشف ما لا تنتج عنه (٣) .

(١) مثل الجواهر والدرر ص ١٧٧ — ١٧٣ ، قواعد الصوفية ص ١٧٧ و ٢٣٤ ، درر الخواص ص ٥٦ ، البعر المورود ص ٣٤٧ ، ارشاد الطالبين ص ٦٧ ، لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ ، البواقيت والجواهر ج ١ ص ٢ و ٣ و ٢٣ ، ج ٢ ص ١١٥ ، وفي غير هذه الكتب .
(٢) الكواكب الدرية ص ٥٢٠ (٣) رد المتنوقف بلا محالة .

ويمثل على البيومي أنصاف الأميين ، رغم أن الجبرتي يروى في الدلالة على علمه موقفاً شبيهاً كل الشبه بالموقف الذي يرويه المحبي ، للدلالة على سعة العلم عند المناوى فان الفقهاء قد ثاروا عليه وعلى جماعته ، كما سنوضح ذلك الآن ، فلما قام بالتدريس في الطيرسية أقحمهم ودهشهم ولجم الشائرين منهم - كما فعل المناوى تماماً - واسكن الفارق بينهما فيما يبدو أن كتب المناوى تنفي عن سعة علم وغزارة مادة ، وكتب البيومي تنطق بالجهل وضيق النظر ، ولعل قدرته على إقناع العلماء في دروسه مردها إلى طلاقة في اللسان ومهارة في التعبير ووضوح في الشخصية - والظاهر أنه قد أوتي هذه المواهب كلها وإنما هي التي جعلت المجرمين والعصاة وقطاع الطرق يتهافون عليه ويترامون على قدميه ويطلبون المغفرة على يديه ويحتملون ما يسومهم به من عذاب كما أشرنا من قبل .

وكان من عادة هذا الرجل ، أن يعقد مجلساً للذكر كل ثلاثاء في صحن المشهد الحسيني . وكان أكثر أتباعه يدخلون المسجد حفاة الأقدام فيلوثونه ، وكانوا يرفعون بالذكر أصواتهم فيزعجون المصلين وغيرهم . ولكننا لانعرف من ضروب العدوان الذي أوقعه به العلماء إلا ما رواه الجبرتي من أمر المقاومة التي أرادوا بها منع جماعته من تلويث المسجد والتشويش على المصلين ^(١) . فالأذى الذي أصاب دعاة الجهل وأنصاف الأميين من أهل التصوف ، قد اتخذ صورة المقاومة ولم يرتفع قط إلى مرتبة العدوان الذي ينتهى بالقتل والنفي والتكيل كما كان الحال مع العلماء من أهل التصوف .

وليس ينفي هذا الظن الذي رجحناه ماسبية العلماء لجملة الفقراء من أذى على يد نابليون ، فقد روى الجبرتي أن نابليون بعد دخوله مصر سأل العلماء في شعبان من سنة ١٢١٥ عن الفقراء الذين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون ويدعون الولاية ويعتقدون العوام ولا يصلون صلاة

المسلمين ولا يصومون صيامهم واستفسر عن جواز مسلكتهم في الدين الاسلامي أو حرمة . فأجاب الفقهاء قائلين إن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا ، فشكركم نابليون على ذلك وأمر رجال الإدارة بمنع هؤلاء الفقراء والقبض على من يلتزم مسلكتهم فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان وإن كان كامل الرشدي نفى من البلد إن أبي تغيير مسلكته^(١).

والظن الذي رجحناه لا تنفيه هذه الفتوى التي رد بها الفقهاء على سؤال نابليون ، لأننا لم ننف المقاومة من جانب العلماء إذا توفر الجهل في أرباب الطريق ، وإنما قلنا إن العدوان كان يتناسب في عنقه طردياً مع علم المتصوفة عكسياً مع جهلهم .

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر في صورة السكتب والرسائل يضعها الفقهاء في مهاجمة الجبهة من الفقراء . ولم يعن العلماء — فيما نعلم — بوضع كتب وتأليف رسائل يردون بها على التعاليم التي كان ينشرها المستنيريون من أهل التصوف . وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التي تفقد السمة الطيبة وتفض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراحة البلاد من شرهم ..

ولعل السر في هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطراً على نفوذهم عند الناس والحكام من جهة أرباب الطريق ، لأنهم يتساوون مع العلماء أمام الجمهور في سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى نفوس الناس ، وفي هذا الامتياز ما يمد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء في اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام ..

أو لعل السر في هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسنوضح هذا بعد .

بعض مظاهر الحضر النظرية :

قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن هذا العصر كان عصر الشروح والخواشى وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق ، فبدأ ركود فى الحركة الفكرية وقلة فى المؤلفات مع كثرة الخواشى والشروح ، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التى يضعها الفقهاء فى الرد على ما يروونه فى سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه ، وأن تكون هذه الكتب - فى الأغلب والأعم - رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال فى الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف ، وقل منها ما دل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستعره صاحبه من الأغيار . والظاهر أن واضعى هذه الرسائل كانوا أضنافا ثلاثة : أولها الفقهاء الخالص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتنهال على الخصوم بالسباب والتهم ، ويمثل هؤلاء الشيخ على الصعيدى العدوى وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أسماءهم كما سنعرف بعد قليل .

وثانى الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف - فيما يلوح لنا - وقد كانوا فى الأغلب والأعم أميل إلى نصره المتصوفة ورد التهم التى كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف . وثالث الأصناف المتصوفة الذين كانوا متفهمين فى الدين . وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التى كانت تنهال على رؤسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكرى ، + ٩٤٤ - وتولى الفريق الثانى الفقراء بالطعن واشتد فى حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة - كما سنعرف بعد - ويمثل هؤلاء الشعراى + ٩٧٣ . ولا بأس من أن نزيد هذا الكلام وضوحا .

(١) كتب الشيخ الصعیدی سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدد طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التي عرفنا عن فقرائها أنهم يتخذون المغنين والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رؤوسهم أو يمسكون بها ظهورهم . . . وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة (١).

فاستهل الشيخ الصعیدی فتواه باقتباس فقرة من رد المشايخ يوسف الزرقاني (المالكى) وعامر الشبراوى (الشافعى) وأمين الدين (الحنفى) على مثل هذا السؤال إذ قالوا : رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب في ذلك ويتبوأ مقعده من النار ويعزز على إفتائه بغير علم . ويمنعون من الاختلاء بالمرء ومن مسهم ، ويثاب ولى الأمر على زجرهم ، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك في تحريم الغناء ، والجنيذ في كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بالأجناح عليهم في غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه ، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يخذعون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار في أخذ العوائد من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم في بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين ، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس . . إلى أن قال لهم في لهجة المغيظ المحقق : وأتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التي لا يقول بها إمام من الأئمة . . ثم حمل عليهم في اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والنبي يقول : ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذل وصغار ثم أشعل عليه نارا ، وأدخل في ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف

من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقي من السعف والطراطر التي يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملائى بالماء والسبح الكبيرة... ووصف دوران العلما على الذا كرين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بغضه الدفين لهم ورغبته الملحة في التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى في فتواه (١).

ومن الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولا هوادة — دون أن يعلنوا للقارى أسماءهم — رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ في الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخطوهما بالعبادة، وراحوا في حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدام رؤسهم بالتصعيد والتسفييل والتلوى، على هيئة معروفة في لعبة (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة. ولعل الذى حمل هذا الصنف من العلماء على إخفاء اسمه، الخوف من أذى أرباب الطريق وأتباعهم (٢).

وهذان مثالان للمقاومة النظرية عند العلماء الخالص، نرى منهما بعض مظاهر البغض الرابض فى الصدور والحقد الجاثم فى القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشبعة بالعطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن على الفتوح الشهير بابن التجار (الحنبل) وناصر الدين اللقانى (المالكي) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفى) وشهاب الدين الرملى (الشافعى) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعرانى فى محتته التى عرضنا لها من

(١) فتوى الشيخ على الصعبدى فى فقراء المطاوعة وأحوالهم (مخطوط).

(٢) وقعت فى بدى نسخة أخرى لهذه الرسالة — بعد كتابة هذا — ذكر فيها اسم المؤلف وهو محمد صفى الدين الحنفى وقد وجدت بين النسختين خلافا فى بعض الفقرات.

قبل . ونرى شيئا من الدفاع الحماسي الذي قاموا به مع غيرهم من العلماء في إجازاتهم المنشورة في « البحر المورود » ولطائف المتن^(١) .

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذي تولاه هذا الصنف من العلماء في استفتاء وجهه مصطفى الرومي بقناطر السباع في أواخر القرن الحادي عشر إلى اثني عشر عالما عن (١) ذكر الله بطريقة الدر داشية والخلوتية والشناوية ومصطفى الرومي بقناطر السباع (٢) الهوية عندهم وهي دورانهم في حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض وراحوا يقولون . هو هو هو ... فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومي الشافعي ومحمد الأحمدى الشافعي ومحمد المهمل المالكى وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربرى الشافعي وأبو الصفا الشنوائى وعلى بن عامر الانبائى المالكى — وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمي الشافعي الوفائي والشهاب الرملي وعبد الحى الشرفبلالى وسليمان السراخيني المالكى ومحمد الخليل الشافعي . ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأيدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومي هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسى وأطلعه عليها ونشرها هذا في رحلته^(٢) .

وثمة رسائل كثيرة من هذا النوع .

(٣) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المتبحرين في الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكرى (+ ٥٩٩ هـ)^(٣) الذى كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثر من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض وافتقدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحووا كالخشب المسندة لايقوون على النهوض حتى يسارع اليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم

(١) البحر المورود ص ٣٦٨ إلى ص ٣٧٦ ، لطائف المتن ج ١ ص ٤٢ — ٤٥

(٢) الحقيقة والحجاز ١٣٣ إلى ١٣٧ ب

(٣) بيت الصديق ص ٧٣ .

ويقيمهم على بركة شيخهم . ويدود عن بعض فقراء هذه الطائفة من يخرجون من أجسادهم شيئاً ملوناً بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة — فتولى الدفاع عنهم والدود عن مسلكهم والانتصار لطريقتهم بما نراه في رسالته — حتى السائل الذى يخرج من أجسادهم ملوناً دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال : فيها كرامة ظاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعه ، وكأنه أحس بأن دعواه فى التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلاً : وإذا ظهرت على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب إليه ، ولكن لطهارة قلبه فى ذلك الوقت ظهرت عليه .. ١١ ، (١) .

نصوف الفقهاء الذين انتصروا لمناجى الطرق :

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المتصوفة كانوا فى الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف ، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة العنصر الأول على الثانى فى مسلكهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذا الزعم .. ؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرانى فى محنته وذادوا عنه فى فتنه الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقانى وشهاب الدين المالكى والفتوحى الحنبلى .. وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول (٢) .

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر لليومى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى ،

(١) النصرة الإلهية للطائفة السعدية وملحق الرسالة من ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشعرانى » لإمام التصوف فى عصره من ٨

فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجاذيب كما يقول الجبرتي^(١) فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن ينزل به من حيف .
وكذلك يقال في كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقتهم .

بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف :

ولكن تصوير التصوف في أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح ، فقد كان بعض المتصوفة في رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيراً ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلبته بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى — وقد أشار هذا في رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم^(٢) . وإنه ليصف موقفاً رائعاً ينطق بهذا الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر ، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درساً تبركاً منه وتيمناً فاعتذر لهم عن ذلك ، وقال يصف مبارحته للأزهر : انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقبلون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيبة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع ١١٠٠هـ^(٣) .

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة في رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين ونزلاء مصر المقيمين بها . . ؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيّقون بسلطانه

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) الحقيقة والمجاز + ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ — وفي مواضع أخرى من هذه الرحلة .

(٣) الحقيقة والمجاز ١١٣ .

لأن بقاءه في مصر محدود الأجل... ألا تكون هذه الخصومة التي ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند الناصر والحكام معاً؟ الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسنون الظن بأرباب الطريق - روى الجبرتي (في حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتي الشافعية الشيخ السكفراوي أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء (وخصوصاً أمام أبي الذهب) حتى راج حاله وطار صيته، واختلى أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سرأتها كتابة ١١. واعترفت له بعد أن هدها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذي كتبها ليدنيها من قلب سيدها، فأمر الأمير بقتله وإلقائه في النهر. فآلقوه في النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر... ١١^(١). وذكر «الحجبي»، عن «فايت المصري»، (من أهل القرن الحادي عشر) أنه كان يقيم بياب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون في ولايته، وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه، فإن أشار إليه الشيخ فايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفاً حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه... ١١^(٢).

وقد لاحظ الأستاذ «فولرز» أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرائ لم يكن له مكان في الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلاً لرجال التصوف في عصره^(٣) ورغم أن الكثيرين من الأزهريين - علماء وطلبة - كانوا يبغضون الشعرائ ولا يحبونه على نحو ما أشرنا، إلا أن السبب في بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته في الاستقلال بمريديه الذين بلغوا في زاويته المائتين على ما عرفناه، فإن الكثيرين من المتصوفة

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٨.

(٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤.

(٣) مادة الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية.

كانوا يقيمون في المساجد أو يتخذونها مقراً لتلاوة الأوراد وكر الله — وقد كان محمد المنير + ٩٣١ يعتكف كل سنة في رمضان بالجامع الأزهر ويجتمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل ^(١). وقد تعبد الشعرا في بدء حياته بالجامع الغمري فلما كبر شأنه وكثر مريدوه انتقل إلى زاوية خوند ^(٢).

موقف المتصوفة من الفقهاء :

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير الموقف الذي التزمه الفقهاء من أرباب الطريق ، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف المتصوفة من العلماء — والذي يلاحظه الباحث عند النظر في أدوار هذا النزاع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمى بحث ، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا أرباب الطريق واشتدوا في حسابهم وأغلظوا في معاملتهم وتعقبوا آثارهم ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى في كل فرصة حانت لهم . ولعل السر في هذا : (١) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرهم من أهل الفقه ويؤيد مسلكهم في كل ما لا يلتئم مع ظاهر الكتاب والسنة ، فاستعانوا بالعلماء في أخذ الأجازات التي تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعرا في كتابه « البحر المورود في الموائيق والعمود » ، وفي غيره من الكتب . وقد تغنى بذلك في غير موضع من مؤلفاته ^(٣) . (ب) أن أرباب الطريق في الجملة يدعون إلى السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريديهم باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملاً في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدى إلى حضرة الله . فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبى من هجمات العلماء .

(١) تكميل النور المسافر ص ٢١٤ .

(٢) أنظر كتابنا الشعرا في الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) البواقيت والجواهر ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ وخاتمة البواقيت وخاتمة البحر

المورود ولطائف المتن ج ١ ص ٤٢ — ٤٥ .

والظاهر أن هذا هو الذى حمل الأستاذ فولرز ، على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق^(١) ولكن إن صح هذا رأى فى القدم فإنه غير صحيح فيما نطن فى العصر العثمانى . فقد كان الشعب فى صف الفقراء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء . وما عرفنا عالماً كان له من الأتباع الذين يستجيبون لمطالبه وينصاعون لأرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ آرائه ، ما كان لكبار أرباب الطريق — ولا بأس من أن نزيد هذه الدعوة وضوحاً .

أسرفوا فى الدعوة إلى احتمال الأذى حتى طالبوا المظلوم بالرضا عن ظلمه وشكر الله على ما أصابه وعذر من أقدم على إهائته ، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدى عليه واحد من عباد الله ، وأنه وهو يعتدى عليه قائم فى حضرة ربه الذى نهى عن ذلك . وقد كان احتمال الأذى ظاهرة تميز الأولياء^(٢) عن غيرهم من سائر الناس . وقد كان الشعرانى يتظاهر بأنه مغتبط بإنكار العلماء عليه ، لأنهم لم يفعلوا ذلك إلا حرصاً على ظاهر الشريعة^(٤) . ونزعم أن من نعم الله عليه محبته لطلبة العلم الذين بادروا بالإنكار عليه وانضموا مع الحسدة فى تشويه سمعته بنشر مأساؤه فى كتبه^(٥) .

وكان الشعرانى إذا تناول العلماء بنقد عدد مظاهر خروجهم على قواعد الدين وأنكر عليهم التهاوت على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم ، وقلبا كان يعرض لهم بالسباب أو يتهجم عليهم بالشتائم^(٦) ، بل لقد كان يدعو إلى

(١) مادة الأزهر (V. Vollers) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتابنا الشعرانى فى الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) لطائف المنن ج ٢ ص ١٨٢—١٨٦ .

(٤) بهجة النفوس ص ٩٤ (مخطوط) .

(٥) لطائف المنن ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) فى البحر المورود أمثلة تؤيد هذا ص ٥٤ و ٥٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ .

احترامهم وتوقيرهم ولو لم يعملوا بالشريعة التي كلفوا بنشرها بين الناس^(١).. ولا نظن إلا أن سائر أرباب الطريق قد ساروا سيرته واقتدوا به أو تابعوه — غير عامدين — في موقفه من العلماء ، وكتب المتصوفة تقول إنهم كانوا يلبسون مسوح الراهب الوديع ويحملون غصن الزيتون ويطوفون داعين إلى الوئام بين الطوائف ، وقد وضع الشعراني كتباً للوصول إلى هذه الغاية — ككتباتي اليواقيت والجواهر . الميزان وغيرهما .

على أن ذلك كله لا يمنع من القول بأنهم كانوا يردون هجمات الفقهاء بتأليف الرسائل والتعرض لنقد آرائهم فيما يصنفون من كتب ، فأما الرسائل فحسبنا الإشارة إلى رسالة محمد كريم الخلوتي^(٢) التي رد بها على الشرييني الذي انتقد طريقته في الذكر بالجلالة وقال إنها مبتدأ وكل مبتدأ محتاج إلى خبر^(٣) على أن الرسالة هادئة لينة — فأما رد النقد في كتبهم فإن مصنفات الشعراني حافلة بذلك كما أشرنا الآن .

وما كان لين المتصوفة في نقد العلماء وليد العجز عن رميهم بالتهم وصب الشتائم فوق رؤوسهم فسنرى شيئاً من قسوتهم حين يهاجم بعضهم بعضاً .

استمرار النزاع إلى اليوم

وقد استمر النزاع قائماً بين الفقهاء ومشايخ الطرق إلى يومنا الحاضر ، ترثه الطائفتان جيلاً بعد جيل ، فبعد انقضاء العصر العثماني بأربعين عاماً استفتى الشيخ إبراهيم باشا أحد العلماء من تلامذة الشيخ الصعیدی (هو الشيخ الأمير) عن الغناء والتواجد والرقص في حلقات الذكر فأفتى بمثل ما أفتى به شيخه من قبل^(٤) وقد هدأ هذا النزاع في الأيام الأخيرة ولكنه ما زال

(١) المهود الحمديّة ص ١٣٧ .

(٢) رد المتوقف بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة (مخطوط) .

(٣) الكواكب الدرية ٥٢٠ وتكميل النور السافر ص ٧٥٢ .

(٤) استفتاء الشيخ إبراهيم باشا إلى العلماء سنة ١٢٥٢ هـ (مخطوط) .

كامنا في صدور الطائفتين وقد ثار منذ بضعة أعوام ثورة رددت الصحافة صداها، إذ كتب وزير الأوقاف عبدالعزيز باشا محمد كتابا إلى شيخ الجامع الأزهر الأستاذ المراغي في شأن البدع الشائعة وما فشى بما لا يتفق مع قواعد الإسلام، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر وتكون مهمتها تمحيص هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا في مصر ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين، وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيخة الأزهر، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام.

وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت نائرة الصوفية وأرسلت مشيختهم بيانا إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه، لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشئون الصوفية دون غيرها من السلطات، ثم ختمت بيانا بتوجيه كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر^(١).

أرباب الطريق

قلنا فيما أسلفنا إن أرباب الطريق أنفسهم كانوا بين الذين حملوا معارل الهدم في أيديهم وسعوا بنا إلى تحطيم دولة الفقراء — عامدين كانوا أو غير عامدين — ذلك لأن دولتهم كانت تقوم على الإيمان بها والتسليم لأهلها ورفعهم فوق كل نقد أو عتاب، فكل إنكار يوجه إليهم أو نقد ينصب على رهوسهم يزلزل هذا الإيمان الذي لقيام لدولتهم بدونه — وقد ثارت الضغينة في نفوس أرباب الطريق حتى كره بعضهم بعضا وحمل بعضهم على بعض حملات تنضح قسوة وتفيض عنفا. وقد اتخذ النزاع بين المتصوفة بعضهم

(١) جريدة روزالبوسف (اليومية) ٢١ و ٢٥ يناير سنة ١٩٣٦ وجريدة البلاغ ١٦ و ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦.

مع بعض مظهرين عنيفين شبيهين بمظهرى المقاومة التى أثارها الفقهاء فى وجه أرباب الطريق — مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب وما يشبهه ومظهر المقاومة النظرية — بوضع الرسائل فى التشنيع على مسلك بعض الطرق — فلنتناول المظهرين بشىء من التوضيح :

بعض مظاهر المقاومة الفعلية

روى المناوى فى ترجمة عبد الله محمد الصبان + ١٠٠٨ هـ أنه أخذ مكان شيخه بعد موته فضايق بذلك جماعة من مريدى شيخه ، وقالوا إن حفيد الشيخ (وكان ابن بنته) أحق وأولى يارث المشيخة من تلميذه ، وانطلق بعضهم إلى زاوية دمر داش وانهالوا على الشيخ الصبان وجماعته الذين قبلوا مشيخته وأخذوا يضربونهم وأخرجوهم من المنطرة ، ولولا تدخل بعض العلماء وتهديد المعتدين بالحاكم لنال الصبان ، شر مستطير ^(١) .

وكذلك نقول فى النزاع العنيف الذى قام بعد ممات الشعرائى (+ ١٧٣) على زاويته بين ابنه وأولاد عمه — وفى طليعتهم عبد اللطيف — فقد بلغ من أمر هذا النزاع أن ترافعوا إلى الحكام أكثر من مرة ، ولم يقض عليه إلا ممات أحد المتنازعين ^(٢) .

وقد روى الشعرائى عن نفسه أن جماعة من مدعى التصوف قد اجتمعوا بجامع الغمرى — حيث كان يتعبد — وأوقدوا كثيرا من القناديل وجلسوا تجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فانتقل إليهم وجلس فى مجلسهم وقال لهم كلنا فى الخير سواء فمنعوه من الذكر معهم . فلما طلب إليهم أن يخفضوا أصواتهم أبوا عليه ذلك . ولكن الله أنقذه من شرهم وسلط

(١) السكواكب الدرية ٢٥٧ .

(٢) خلاصة الأنرج ٢ ص ٣٦٤ ، السكواكب الدرية ٤٩٦ ، تكميل النور السافر ص ٦٦٥ وانظر فى كتابنا عن الشعرائى تفصيل ذلك .

عليهم النوم فناموا حتى الصباح . ثم ذهبوا إلى عبد الدايم بن بقر وطلبوا إليه أن يقيم لهم مولداً في الجامع ليلة الجمعة ، رغبة في التشويش على الشعرائي وجماعته ، وجاء المقرئون والوعاظ بخفض الشعرائي وجماعته أصواتهم بالصلاة على النبي دون أن يبطلوا مجلسهم ، فجاء عبد الدايم ووقف على رأس الشعرائي وقال له في لهجة المحقق المغيظ : « أنت يا عبد الجعاص ما تسكت ، فسمى الله بالجعاص ، فثار جماعة الشعرائي لذلك وهجموا عليه وأثخنوه ضرباً وطعنوا قائلين له : كفرت .. ثم اجتمعوا وعقدوا النية على أن يضربوا رقبته صباح الغد ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يمضوا به إلى القاضى ليحقق دمه ، وبطل مولدهم تلك الليلة ^(١) .

وهل نريد شاهداً أدل على هذه الضغينة من قول الشعرائي : « وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن الشيخ فصاروا مع إخوانهم كأنهم في دين وهم في دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافعوا إلى الحكام وامتلاّت قلوبهم بالشحناء والبغضاء .. » ^(٢) وقوله للمريدين الذين يتصلون بشيخ ويبغضون إخوانهم في الطريق لأنهم ليسوا من مريدي شيخهم : « وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا أنوفكم وتطأطئوا رقابكم بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه .. » ^(٣) .

ولقد أكثر كتاب التراجم من الإشارة إلى أن بعضهم كان يؤذي إخوانه في الطريق ، روى الشعرائي عن المنير + ٩٣١ أنه قتل محمد بن عراق لأنه أنكر عليه ، وذلك أنه أراد الاجتماع به فأبى ابن عراق فشكاه إلى النبي فمات بعد عشرين يوماً ، وإن كان الشبلي يشك في وقوع هذه الحادثة لأن المنير مات سنة ٩٣١ وابن عراق سنة ٩٣٣ ^(٤) — وذلك لا ينفي إيذاؤهم لمن أنكر

(١) المناقب الكبرى ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) و(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٨٢ .

(٤) تكميل النور السافر ص ٢٩٥ (مخطوط) .

عليهم — كما يدعى المؤمنون بقدرتهم على الإيذاء — والكتب حافلة بما يؤيد ذلك . والغريب أنهم كانوا أحيانا يؤذى بعضهم بعضا رغبة في التسلية ، روى الشعراني عن علي أبي خوده أنه رآه مرة يباب الشعرية يقول لحادمه : إيش قلت من يخلى هذا الرجل (عبد القادر الدشوطي) هراره في رجليه !.. فلما مر به كركبت بطن عبد القادر ، وصاح هراره على المصطبة التي كان قاعدا عليها ، كما يزعم الشعراني ^(١) وقد كان الكثيرون منهم معروفين بأن دعاءهم مستجاب كمحمد بن عز المصري + ٩٣٠ ^(٢) وغيره .

وينبغي أن نشير الآن إلى أن الفتنة التي ثارت من أجل اتهام الشعراني بالخروج على الدين قد اشترك بعض خصومه من المتصوفة في إثارتها كما نص على ذلك المناوي والشبلي في ترجمته ^(٣).

بعض مظاهر المقاومة النظرية :

تصادفنا فيما كتبه أهل التصوف رسائل يهاجمون بها بعض الطوائف ، وفقرات ذهبت أشتاتا في بطون كتبهم نفثوا فيها مرارة نقدهم وسموم حقدهم ، فن الرسائل التي وضعت في الهجوم على الطوائف رسالة كتبها محمد الغمري في فرقة المطاوعة التي أسلفنا الحديث عن فقرائها وطريقتهم في الذكر وقد انتقده الشعراني على قسوته في الهجوم عليهم والتشنيع على مسلكتهم بهذا العنف ، قائلا إن الطائفة الواحدة تجمع بين الشرير والخير فلا ينبغي أن نعمم أحكامنا أو نأخذ بظاهر ما نرى ^(٤).

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ٢٤٣ مخطوط .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٤٨ .

(٣) الكواكب الدرية ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ .

(٤) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤ .

والغريب أن الشعراني الذي يعيب على الغمري قسوته في نقد المطاوعة برسائله ، قد وضع رسالة سنة ٩٣٣ هـ يهاجم بها طائفة من الفقراء في عصره ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً ، وضمن هذه الرسالة شتى ضروب السباب ومختلف ألوان التهم حتى كانت الضغينة تطل من ثنايا سطورها (١) ، قال فيها إن هؤلاء الفقراء أضل من الأنعام واتهمهم بالجهل والكفر وسوء الأدب (٢) وقال إن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المضللين ، لأنهم يقضون العمر في نفع العباد وأما هؤلاء فيقضونه في ضرر الناس (٣) ، وقال إن المشيخة على يدهم قد أصبحت باباً من أبواب التسول والشحاذة (٤) وأن إبليس لما اجتمع به (الشعراني) وبخه على قبول هؤلاء المغرورين تعظيم الناس لهم ، وقال للشعراني إنه يأبى ذلك لنفسه مع أنه إبليس !!.. (٥) .

وتعقبهم بمثل هذه المطاعن في غير هذه الرسالة فرماهم في بعض كتبه بالكفر والتضليل والكذب والافتراء وخفة العقل ورمى الفرق التي تتلذذ لمشايخ قد طوتهم القبور بالمروق من الدين ، فقال عن فقراء الأحمدية والرافعية والبسطامية والأدهمية والدسوقية والمسلمية والبرهامية إنهم خارجون عن الشريعة (٦) ، واتهمهم بالجهالة فقال إنهم يقنعون بلبس الزى فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمان قال لا أدري أو فرائض الوضوء قال لا أدري !!.. مع أنه شيخ في زاويته يأخذ العهد على الناس ومثل هذا ليس شيخاً باجماع المسلمين (٧) .

فالشعراني الذي كان مع الفقهاء لنا وديعاً رغم قسوتهم عليه وإهاناتهم له ، نراه مع إخوانه في الطريق شديداً يتابع لطماته لهم دون رفق ولا هوادة .

(١) اسم الرسالة ردع الفقراء عن دهوة الولاية الكبرى ولها أربعة أسماء أخرى ذكرناها في ملاحظتنا على مصادر كتابنا عن الشعراني .

(٢) ردع الفقراء ص ١ . (٣) نفس المصدر ص ٢ .
(٤) نفس المصدر ص ٩ . (٥) د د د ص ١٣ .
(٦) قواعد الصوفية ص ١٧٥ . (٧) قواعد الصوفية ص ١٧٦ .

وشبه بهجومه ما نراه في كتاب السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد ، وقد وضعه السيد مصطفى البكرى الذى لقن الطريقة الخلوتية للحفاوى + ١١٨١ قطب رحى الديار المصرية كما عرفنا — والكتاب نقد لاذع ينصب على رهوس أرباب الطريق الذين حرروا أنفسهم من قيود الدين وتمردوا على قواعده وخرجوا على تعاليمه (١).

* * *

هذه هى بعض معاول الهدم في دولة الفقراء ، حملها حتى أهلها ، ولم يبق في الشعب طائفة إلا قام فيها المنكرون لأرباب الطريق الراغبون في تحطيم سلطانتهم والانتقام من دجلهم ، ولكن هذه القوى التى تعاونت على هدمهم كانت — كما قلنا من قبل — كسيحة تنقصها الحركة ويعوزها النشاط مريضة لانقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق ، فعاشت دولة الفقراء على كره من هؤلاء المنكرين جميعا مبسوطة السلطان ممدودة الرحاب يرفرف عليها في شتى الأنحاء — والزمان وحده هو الذى تمكن بتطوره السريع من تقليم أظافرها وقص أجنتها وإلزامها الحدود التى لا ينبغي أن تتخطاها . ولكن ما السبب الذى أدى إلى قيام هذا النزاع ؟ ذلك ما نعرفه بشيء من التفصيل فيما يلي من حديث :

٢ — أسباب الإنكار على أرباب الطريق

أسباب الإنكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق — أسباب النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله — التنافس من أجل الدنيا .

أسباب الإنكار عند الناس والخطام وأرباب الطريق :

محاولة الكشف عن الأسباب التى أدت إلى قيام النزاع بين أهل الفقه

(١) السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد للسيد مصطفى البكرى مخطوط

وأرباب الطرق ، تنير السبيل إلى فهم الأسباب التي أثارَت الإنكار في نفوس الناس والحكام ، وبعث الضغينة عند أرباب الطريق ، لأن أسباب الظاهرة الأولى أعم وأشمل ، وفي بيانها ما يغنيننا عن الكلام على أسباب الإنكار عند غير الفقهاء . ويمكننا أن نجمل أسباب الإنكار عند الناس والجنود في ظهور الشعوذة سافرة من غير حجاب ، مع عدم اقتناع المنكرين بولاية المشعوذين ، فقد قلنا فيما أسلفنا إن مدعى الولاية كانوا إذا جهرُوا بامتهان الدين والخروج على قواعده وتعاليمه ، سر الناس لهذا الشذوذ سرورا عظيما . واستخفهم الرضا بما يرون من مظاهر التمرد على ما ألقوا من قديم الزمان ، ولكن هذا الرضا كان مرده إلى إيمان الناس بولاية هؤلاء الأدياء . وكان بعض الدجالين والمشعوذين لا يقوى على إقناع بعض الناس والحكام بصدق ولايته ، فكان ذلك يثير السخرية ويبعث الإنكار في نفوس المنكرين .

أما إنكار مشايخ الطرق بعضهم على بعض ، فرده إلى ضيقهم بعجز العاجزين من إخوانهم عن إقناع الناس بولايتهم ، بما كان يؤدي إلى الإنكار على أرباب الطريق جميعا ، وكان مرجع هذا الإنكار بين أهل التصوف إلى التنافس الذي كان بينهم ، وأدى إلى إثارة الحفيظة وقيام الضغينة في نفوسهم . فكان شيوخ الطريق الذين يفشلون في إقناع الناس والحكام باحترامهم وتقديس ولايتهم ، يتساوون مع الذين يلقون النجاس ويصادقون الرواج عند الناس من حيث إنكار إخوانهم في الطريق عليهم — وإن اختلف السبب الذي أدى إلى هذا الإنكار — ولهذا كثرت حملات أهل الطريق بعضهم على بعض كما عرفنا من قبل . والآن ننتقل إلى الأسباب التي أدت إلى النزاع بين أرباب الطريق وأهل النظر :

الخلاف في وجهة النظر :

يقول تاريخ العلم إن الخلاف بين أهله لا يثير الضغائن إلا إذا اتصل بالعقائد الدينية أو المنافع الشخصية أو المصالح القومية ، لأن الخلاف في النظر العلى قائم على العقل وحده ، ومن شأن العقل التسامح . أما تاريخ

الأديان والعقائد فيقول إن الخلاف بين أهلها مثار الأحقاد والضغائن دواما ،
لأنه قائم على العاطفة أو الغريزة ، وذلك مما يثير في النفس الضغينة والحقد ،
ويدفع صاحبه إلى الإنكار - وقد يحمله على الانتقام - ولهذا كان رجل
كالغزالي - وهو حجة الاسلام - مثار النزاع العنيف بين أنصاره وخصومه
رغم الجهود التي بذلها في الدعوة إلى الدين والتبشير بطاعة الله - وفي الزبيدي
تصوير طريف للخصومة التي قامت بين مؤيديه والمنكرين عليه ^(١) - وما
قيل في الغزالي خليف بأن يقال في غيره من رجال الدين .

كان طبيعيا إذن أن يقوم النزاع بين الطائفتين : أهل التصوف وحمله
الشريعة ، فقد كانتا على خلاف في وجهة النظر ، إذ كان الفقهاء على اعتقاد بأن
الدين إنما يستقى من الكتاب والسنة ، وقلّ منهم من كان يميل إلى تيه العلم
اللدني الذي آمن به أهل التصوف . وقد انقسم هؤلاء المتصوفة في هذا
العصر إزاء العلم بالدين معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ويدعو ثانيهما إلى
الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين
من ظاهر الشرع عجز ونقص ، وأن المعين الذي ينبغي أن ينهل منه الانسان
معرفته بالدين - وغير الدين - هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في
عبادة الله والتفاني في طاعته حتى يصل إلى حضرته ، يأخذ عنه العلم رأسا
من غير وساطة ، وشتان بين من يستقى العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه
عن الحى الذى لا يموت ^(٢) .

إباحة التأويل لأهل الله :

وقد أدت بهم هذه الدعوى إلى إباحة التأويل لأنفسهم ، مدعين أنهم
يعرفون بالكشف باطن الشريعة ، وأعلنوا احتقارهم لطريقة الفقهاء الذين

(١) إتخاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ١ .

(٢) انظر تفصيل هذا في كتابنا « الشعرائى » في الفصل .

يقفون عند ظاهر النصوص ولا يبيحون التأويل لأحد من الناس ، وتمادوا في هذا الاحتقار حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجهل ، أن يسخر من صوفي متبحر في الدين قد تبرع بتعليمه مبادئ الدين ، فيقول عنه مع مريدیه في زاويته ، إنه يريد « أن يعملنا فقهاء كما هو فقيه .. » (١) .

ونرى — من مظاهر هذا الاحتقار ، امتناع « عبد الغنى النابلسي » عن إلقاء درس في الحديث على طلبة الأزهر وعلمائه عندما زار الجامع واحتفوا به ، فاعتذر إليهم بسفره إلى بلاد الحجاز ، وانصرافه إلى زيارة الصالحين والтиمن بمقاماتهم ، وعدم الفراغ إلى الطائفة وحبس النفس في تقرير العلوم الظاهرة ، وعقب على هذا الاعتذار الذي قاله لهم بذكر السبب الصحيح لاعتذاره فقال « لأننا رأينا ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ويعكر علينا صفاء الروح لتلقى المواجيد العرفانية » (٢) .

احتقروا الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة ، وساهموا مع الفقهاء في استهجان التأويل ، ولكنهم أباحوه لأنفسهم ، وقالوا إن المذموم من التأويل ما كان عن فكر وتخمين ، أما خواص العباد من الأولياء الذين « فنوا عن بشريتهم » فقد أطلعهم الله على ما أخفاه عن كافة البشر ، فكان لهم وحدهم حق التأويل .. أما الفقهاء وغيرهم فمن واجبه أن يقفوا عند ظاهر الشرع دون أن يزيدوا عليه حكما واحدا « فاحرمه الحق حرمه ، وما أحله أحله ، وما أباحه أباحه ، وما ندب إليه ندب إليه ، وما أوجبه أوجبه ، وما سكنت عنه سكنت عنه ، فمن فعل ذلك صحت له موافقة الحق تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

وتمادوا في زعمهم فقالوا إن ألفاظ كبار الأولياء خليفة بالتأويل ، شأنها في ذلك شأن ألفاظ الأنبياء ، لأنها جميعا من بحر واحد ، بل إنها أحق وأولى

(١) رحلة النابلسي ص ١١٣ .

(٢) الجواهر والدرر ص ١٣٤ — ١٣٦ .

بذلك من كلمات الأنبياء ، لقصور الأولياء عن الإفصاح عما يقصدون ، قال الرسول أتاني الليلة آت من ربي — وفي رواية أتاني ربي عز وجل فوضع أصابعه بين يدي حتى أحسست برد أنامله فعلمت علم الأولين والآخرين . فلو قل ذلك ولي من أولياء الله لأجمع العلماء على قتله ، وغاب عنهم أن الأولياء لهم الإشراف على حضرات الوحي ، وربما هبت على قلوبهم من تلك الحضرة نفحات تكشف لهم عن حقائق الأمور الإلهية ، فمن الأدب قبول تلك النفحات بالآيمان كما قبلت من الأنبياء ^(١) .

وكان علماء العصر لا يسمون بأن للشرعية باطنا وظاهرا ، ولا يجيزون تأويل آية ولا حديث ، والمطلع على الكتب الدينية التي كتبها أهل هذا العصر ، يعرف مبلغ تقيدهم باللفظ ومدى ضيق التفكير عندهم ، ومؤرخو الآداب المصرية يسمون هذا العصر — عصر الحواشي والشروح ، والكتب التي وضعت فيه تبرر هذه التسمية ، وكانت الحواشي على المتن قائمة على التقييد بظاهر الكلام واللف والدوران حول الالفاظ ، هذا النوع من التفسير شائع في الكتب ، فكان طبيعيا أن يلتزمه الفقهاء في الكتاب والسنة ، فنادوا بتحريم التأويل ودعوا إلى الوقوف عند ظاهر الشرع وضاقوا بالمتصوفة الذين خرجوا على دعواهم وتمردوا على ضيق حدودهم ، وخرجوا من تأويل الآية أو الحديث بما يناقض الواضح من معانيه ، زاعمين أن من عباد الله من تهب على قلوبهم نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهتهم صاحب الدليل ^(٢) وهم من الكفر والجهل أبرياء في عرف أهل الطريق .

كان طبيعيا أن يضيق الفقهاء بمسلك الفقراء ، فان إباحة التأويل لأهل الله قد مهدت السبيل لشعوذة الدجالين — وما كان أكثرهم في هذا العصر — فقالوا كل ما خطر لهم ، وفعلوا كل ما اشتهو فعله ، وخرجوا من الآيات والأحاديث بما يبرر سلوكهم ، واستغلوا مذهبهم في التأويل والقدرة على

(١) الشعراني : درر الفواس من ١٠٩ — ١١٠

(٢) الشعراني : الجواهر والدرر من ١٧٧

معرفة باطن الشريعة في ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل من الدين ، ثم اعتنقوا هذه الآراء التي حاربها الدين وروجوا لها بين المتصلين بهم ، كالقول بالغاء الملكية اعتماداً على أن مالك الدنيا والآخرة هو الله وحده ، والانحدار من هذا الرأي إلى القول بالعفو عن السارق واستنكار القصاص من الجنة والمذنبين والتبرم بعقاب المجرمين ، وشتان بين هذا وبين موقف الدين من القصاص كقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، وغير هذا كثير .

اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله :

وقد ذكرنا في مستهل هذا الكتاب ما انتهى إليه الكثيرون من الخروج على قواعد الدين ومقتضيات العرف ، بارتكاب المعاصي على ملاء من الناس ، والتقصير في القيام بتكاليف الدين ، وقد مهدوا لذلك برفع أنفسهم فوق كل نقد وملامة ، فأحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والإكبار ، وبالغوا في ذلك مبالغة لا يقرها دين ولا يسيغها عقل ، فزعموا أن الله يخلع على المقربين من عباده مواهب تخرجهم عن كافة الناس ، وترفعهم عن عجز البشر إلى مرتبة الأنبياء ، بل إن مرتبتهم لتعلو على مرتبة الأنبياء والرسل . قال الخواص : « إن الأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بالألأ يدعوا ما ليس لهم لادعوا النبوة ، ومن هنا قال عبد القادر الجيلاني : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب وأوتينا ما لم توتوا — أي حرم علينا اسم النبي مع اطلاعنا على علمه من طريق الكشف كما يقول الخواص (١) .

بل تبادوا في شططهم فتركوا الكلام في وجوه الشبه بين الولي والنبي وأخذوا يعددون وجوه الشبه بين الله والولي ، قال تعالى : « وإنما أمره إذا

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فادعوا أن الأولياء قد أوتوا ما يشبه هذه المقدرة ، فإن الله يعطيهم لفظ د كن ، فتسير الدنيا في ركبهم ، تستجيب لأمرهم وتنصاع لأشارتهم (١) .

وتواضع بعضهم فقال إن القدرة التي يؤتاها الولي ليست قدرة مطلقة كقدرة الله ، فليس في وسع الولي أن يخاق شيئاً أو ينزل مطراً أو ينبت زرعاً إلا أن يشاء الله ، على أن الاستثناء بمشيئة الله يبرر تقيد القاعدة في كل حين ، لأن مدعى الولاية كثيرون ، بل قال بعضهم إن الفقير مهما ارتفعت درجة معرفته في الطريق لا يستطيع أن يجعل الشوك تفاحاً لأن الحقائق لا تبدل (٢) ولكنهم كانوا مع هذا يعتقدون أن الولي يستطيع أن يقول على الرصاص فيستحيل ذهباً ، وعلى الصفيح فيتحول ماساً بإذن الله . . . على أن اعترافهم بأن قدرة الولي مستمدة من قدرة الله ، لم يمنعهم من القول بأنهم يمتازون بها على الملائكة ، لما انطوى عليه الإنسان من الخلافة والنيابة على العالم . . . (٣) .

وقد وصف الله تعالى نفسه بنوع من اليقظة الأزلية والأبدية فقال ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، فرأى بعضهم أن الأولياء قد أوتوا هذه الموهبة ، وتواضعوا فقالوا إن الفرق قائم في أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم أبداً ، أما الولي فإنه يستطيع البقاء على هذه الحال أمداً طويلاً ، فقد كان عيسى بن نديم ، بساحل البحر المالح بنواحي البرلس على هذه الحال ، وقد مكث سبعة عشر عاماً لم يغمض له جفن في ليل أو نهار . . . (٤) .

والله تعالى مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، عارف بعباده لا يستره عنهم حجاب وقد أدعوا أن المقربين من عباده المخلصين قد أوتوا ما يشبه هذه الصفات . . . (٥) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٥٥ ، بيت الوفاية عن المتناوي ص ٣٩

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤٦

(٣) الجواهر والدرر ص ١٢١ — ١٢٢

(٤) » » ص ١٤١

(٥) » » ص ١٧٩

بل لقد بلغ بهم الشطط في ادعاءاتهم أن شبهوا الله بالولى في بغض الأمور !! فقالوا في معرض الحديث عن التجلى إن الولى يستطيع أن يعرف بالكشف ما يحمله غيره ، وأن الحق تعالى كذلك . !! يتجلى في الثلث الأول من الليل للأبصار ، والثلث الأوسط للأجسام الشفافة ، وفي الثلث الأخير للأجسام الكشيفة ، ولولا هذا التجلى ما صحت معرفته تعالى لأحد من الخلق ، فاعلم ذلك فانه من علم الأسرار ، — أى العلم اللدنى — كما يقول الشعرانى (١) ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم أوجبوا على المريد أن يذكر شيخه في كل أوقاته ، أما ربه فحسبه أن يذكره في غالب أوقاته . . . ١ .

وكان أصحاب هذه الدعاوى على يقين من أنهم سيتهمون بالزندقة ، فقالوا إن هذا الاتهام إذا وجه إلى الأولياء كان الشاهد العدل على التزامهم للشرع على أكمل وجه وأتم صورة ، لأن الولى إذا بلغ درجة الحقيقة ، زال الوجود في حسه ، وأصبح لا يرى إلا الله ، ومن لا يرى غير الله لا يختص كلامه بدين ولا ملة ، فلا يسع الصديق إلا أن يرميه بالكفر والاحاد غيرة على شريعة محمد ، ولا بد لكل سالك (٢) من الوقوع فيما وقع فيه الحلاج إلا أن يشاء الله (٣) .

وبهذا فقد أضحى الولى في عرفهم إلهًا صغيرًا . . . !! بل كان أعظم من الله — والعياذ بالله . وقد حملهم هذا التصور الجامع على أن يكشفوا له من الحقوق على أتباعه ما لله على عباده ، فكما أن الدين يطالب المؤمنين بطاعة الله وامثال أوامره في شتى الصور والألوان دون اعتراض ولا إنكار ، فكذلك حتم أرباب الطريق على المريدين أن ينصاعوا لأوامر شيخهم بالغًا ما بلغ الشطط فيها ، فحرموا عليهم التردد في طاعة أمر ، أو التفكير في مبرراته أو

(١) الجواهر والدرر من ٢٥٨

(٢) في رسالة زكريا الأنصارى في بيان الألفاظ التى يتداولها الصوفية أن السالك مرتبته فوق المريد ودون العارف .

(٣) الجواهر والدرر من ٣٠٩

النتائج التي تترتب عليه ، وقالوا في تعبير يلائم تصورهم ، كما أن الله لا يقبل في محبته شريكا له ، فكذلك الشيخ لا ينبغي أن يقبل من مريده أن يشرك به أحداً من الأشياخ أو غيرهم ... أو كما أن الانسان ليس له إلهان ولا للرهة زوجان ، فكذلك المريد لا يجوز أن يكون له شيخان ، بل ساروا في شططهم حتى قالوا إن أوامر الشيخ إذا تعارضت مع أوامر الله ، وجب على المريد أن يطيع شيخه ويهمل أوامر ربه ، فإن الشيخ لا يريد من وراء أوامره إلا مصلحة مريده ، والمريد الذي يتردد في طاعة شيخه إذا أمره بإهمال الصلاة أو الكف عن الصيام أو تطليق زوجته وفراق أولاده ... لغير ما سبب معروف ، لا يفلح في الطريق أبداً ولو كان على عباده الثقيلين ... إلى آخر ما عرفنا من قبل .

ومن هذا نرى أن الولي لم يكن في عرفهم إلهاً صغيراً ، بل كان أعظم من الله الذي يدعو الفناء في حبه والحياة من أجله ، وما كان هذا الهذر ليرضى السكثيرين من العلماء .

فلما هيأوا لأنفسهم هذه القداسة كلها ، واطمأنوا على ما أوجبوه على المريدن والناس من رفع الأولياء فوق كل نقد وملامة — بالغاما بلغ شذوذ سلوكهم واعوجاج تفكيرهم ، أعلنوا أن التكاليف الدينية قد سقطت عن الأولياء ، فجازلهم أن يحرروا أنفسهم من تبعات الدين وفروضه ، ويتمردوا على أوامره ونواهيه ، وقد أدت بهم هذه النظرة التي فشت في هذا العصر إلى إهمال الصلاة والصيام والتقصير في سائر فروض الدين ، ثم الخروج على نواهيه بالزنا في النساء والفسق بالغلمان وتعاطي الخشيش والأفيون وشتى ضروب المخدرات جهارا أمام الناس دون تورع ولا استحياء — كما عرفنا من قبل — وقالوا إن العبد إنما يتقيد بأوامر الدين ونواهيه رغبة في الوصول إلى الله ، فإذا وصل جاز له التحرر منها جميعاً !! وما كان هذا الجهر بارتكاب

المعاصي والتقصير في القيام بالطاعات ليرضى كافة الفقهاء — ولو كانوا لا يلتزمون في حياتهم العمل بأوامر الدين ونواهيه .

التنافس من أجل الدنيا :

يضاف إلى هذا كله سبب لا يقل في خطورته عما أسلفناه — إن لم يكن أعظمها جميعا — ذلك هو التنافس على الزعامة ، فقد كانت الصدارة بين الناس في هذا العصر موزعة بين الفقهاء وأرباب الطريق ، وكانت ذات مكان موقر من الأمراء والأثرياء والناس عامة ، فكان طبيعيا أن يشور الحسد في نفوس المتنافسين على الظفر بهذه الزعامة ، وأن تشتعل الضغينة في قلوبهم ، وقد أشار إلى ذلك الشعرائي نفسه (١) ، وقد عرفنا أن العلماء كانوا يكثر من التردد على بيوت الأمراء ، وقل منهم من لم يعرف عنه ذلك كما روينا عن الجبرتي في أكثر من موضع ، وأن مشايخ الطرق كانوا على اختلاف نزعاتهم يتصلون بالأمراء ويأخذون منهم الهدايا والأموال — حتى الذين كانوا يعلنون احتقار الظلمة من الحكام — وقد كان الأمراء يعلنون مرضاتهم عن ذلك ، وإن كانوا يبطنون احتقارهم ويضمرون السخرية بهم ، وليس من شك في أن هذا التهاافت على دور الحكام كان بشير في نفوس الطائفتين أعمق ضروب الحقد والضغينة .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى الإنكار على الفقهاء ، عرضناها موجزين بعد أن عرفنا مظاهر نفوذهم عن شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، ونريد الآن أن نعرف أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ، وليس يتبها لنا ذلك ، من غير أن نعرف نظرة هؤلاء الشيوخ للحياة في شتى صورها وألوانها .

(١) البواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤ وقال في ج ٢ ص ٨٢ نفس المصدر أن سبب الإنكار دقة المدارك ، وفي السكيت الأحر ص ١١ ، ١٢ أن أصل الإنكار ابليس .

فصل ختامى

عن

أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية

تمهيد — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين : مجاورين كانوا أو أتباعا ومحبين ومنكرين — أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى وما بعده — موقف الاسلام من هذا التوجيه ، والهوة التى تفصل بين تعاليمه ومختلف آرائهم فى الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية — خاتمة

تمهيد :

أبنا فيما أسلفنا عن نظرة أرباب الطرق إلى الحياة فى شتى الصور ومختلف الألوان^(١)، ولا حظنا مدى اتصال هذه النظرة بسلوكهم ، ومبلغ توجيهها لحياتهم ، ونحاول الآن أن نربط أطراف الموضوع الذى انصبت الرسالة على دراسته بكلمة موجزة ، نصل بها ما انقطع من أوصاله ، أو نكشف فيها عما استتر من أجزائه ، لنبين منها أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ، مستعينين بترداد بعض ما أسلفناه وتكرار ما أسهبنا الحديث فيه ، لنثير فى الذكرة ما يغينا مما شرحناه ، ونستغله فى إثبات ما ادعينا فى مقدمة الرسالة حين قلنا إن الحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بعد دراسة دقيقة مفصلة تتناول بالإيضاح مامر بأهلها من حركات الدين ، وما استغرق عواطفهم

(١) فصلنا الحديث عن هذه الموضوعات فى عدة فصول عن « نظرتهم إلى الحياة العلمية — العقلية — العملية — الخلقية » وخلاصتها فى الباب الثالث من كتابنا عن الشمرانى — لأنه كان يمثل مذاهب المتصوفة فى هذا العصر فى هذه الميادين كلها ، فليرجع إلى كتابنا عنه من شاء التوسع فى فهم ذلك .

من تياراته ، واستوعب أذهانهم من موجاته ، لأن الأفكار التي تزداد باسم الدين تفسو بين الشعوب - في عصور الاضمحلال خصوصا - وتتخذ صورة العقائد عند الناس ، ومن شأن العقائد أن تستعيد معتقبيها . وتستبد بهواهم وتهيمن على توجيه حياتهم وتحديد تصرفاتهم والتحكم في وجودهم - كما يقول المحدثون من علماء النفس والاجتماع ، ولهذا لم نكن مبالغين حين قلنا إن الذين يدرسون الحركات الدينية التي مرت بالشعب المصري يقدمون لمؤرخ الحياة المصرية تفسيراً جديداً لظواهرها ، وفهماً واسعاً لمختلف جوانبها ، ويعينونه على أن « يفلسف » التاريخ كما أشرنا في مقدمة الكتاب .

وينبغي أن نقول في التمهيد لهذه المحاولة إن التصوف الذي قام بين المصريين كان - فيما يرجح على الظن - أقوى الحركات الدينية توجيهياً لهم وأعظمها أثراً في حياتهم ، لأنه كان في عرف الناس زبدة الدين وخلاصته ، وأنا تناولناه في المرحلة التي استفحل فيها أمره واستشرى فيها دأؤه - ولكن هذا الترجيح لا ينسبنا التصريح بأن الاختصار على دراسة التصوف قد أعجزنا عن تفسير القليل من ظواهر الحياة المصرية على ضوءه ، وإن كان يقدم لنا حلولاً للكثير من المعقد في ظواهرها ، بل لعله ينهض بتفسير المجهول منها أو يضطلع بإزالة نواح من الغموض الذي يحوطها وإن عجزنا عن بيان ذلك في هذا الفصل ، فإن المصريين كانوا في هذا العصر - على ما عرفنا - أسرى شيوخه وعبيد تعاليمه .

وتصادفنا عقبة أخرى عند الإقدام على هذه المحاولة ، هي أن الحياة المصرية في العصر العثماني لم تؤرخ إلى يومنا الحاضر تأريخاً مفصلاً دقيقاً ، فكيف يمكننا أن نحدد الصلات التي تقوم بين تعاليم المتصوفة وهذه الحياة التي لا يزال الكثير من جوانبها غامضاً مجهولاً .. ؟ لقد عرفنا خلال دراستنا بعض نواحيها وبقي بعضها الآخر في خفاء وغموض ، فهل من حقنا أن

فستعين على معرفة الغامض منها بفهمنا للحياة المصرية في وقتنا الحاضر ؟ ..
إن مصر قد اتصلت بالغرب بعد انقضاء العصر العثماني واحتك أهلها بمدنيته ،
فبعث فيهم هذا الاتصال روح التمرد على تقاليدهم والثورة على المألوف من
عرفهم ، والاتجاه إلى السير في طريق المدنية الغربية ، ومن ذلك بدأت الحياة
المصرية تأخذ اتجاها يباعد بين المصريين وروح التصوف ، ويجعل تفسير
حياتهم الراهنة على ضوء التصوف وحده شططا في الكثير من مواضعه ..

ولكن لماذا نسمى هذا شططا ؟ .. إن في الشعب المصرى طبقة تمثل إلى
يومنا الراهن سواده الأعظم — هى قطعة من الماضى السحيق تخلفت عنه
والزمان ماض فى طريقه لا يبطئ فى مسيره ولا يثقل رجله ليدركه المتخلفون
عنه والراغبون فى اللحاق به ، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث هذا الماضى
وتقاليده ... إنها توشك أن تثبت أن التطور الذى يشمل الحيوان والجماد ،
لا سلطان له على هذا الصنف من الناس ، فهو صنف يمتاز بالوفاء المطلق
لتراث الماضى والحرص الشديد على نقله إلى الجيل الذى يليه دون زيادة
ولا نقص .. !!

نحن مضطرون لمعرفة الأثر الذى كان للتصوف فى توجيه الحياة
المصرية إلى الاستعانة على فهم الغامض من ظواهرها ، بحياة الريفيين ومن
فى حكمهم فى وقتنا الحاضر ، لأن الحياة تنحدر إليهم تركة يرثها جيل
بعد جيل .

على أن ذلك كله لا يمنعنا من التصريح بأن تفسير الحياة المصرية فى شتى
ظواهرها على ضوء التصوف وحده ، محاولة جريئة تنذر بالخطر وتغرى
بالشطط وتقود إلى مهاوى الزلل ، والمنهج العلى يحب الحذروىوجب الحصر
ولا يميل إلى الإقدام على المخاطر ، ولكننا نرى الإقدام على هذه المجازفة
فى ختام الرسالة « شراً لا بد منه ، ولهذا أقدمنا عليها بعد التزود بما تسمح

الطاقة من الحيلة والحذر — والآن إلى إثبات ما ادعيناه :

نفوذهم عند المصريين :

كان المصريون إزاء شيوخ الطريق بين مجاورين يقيمون في الزوايا طاعمين كاسين من أحباسها وأموال الأغيار وهدايا المحسنين متفرغين لعبادة الله ، وأنباع يحترفون العمل في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة ولكنهم يقضون فراغهم — وما كان أوسعهم — مع أرباب الطريق يستقون منهم العلم بالدين والدنيا ، ومحبين يلتقون بالشيوخ بين الحين والحين تيمنا ببركتهم والتماسا للعلم والدين واعتقاد في صحة ولايتهم ، ومنكرين كانوا — فيما يرجح على الظن — لا يؤمنون بولاية شيوخ بعينهم ، ولكنهم شديدو الايمان بغيرهم من أرباب الطريق ، وبين هذه الفئات التي أسلفناها وجد أرباب الإحسان وأولو الحكم وأهل الفقه .

ينبئ هذا التصنيف بأن المصريين — في الجملة — كانوا على اختلاف طبقاتهم وتباين هياتهم يؤمنون بالتصوف ، وإن أنكر بعضهم على شيخ آمن بغيره ، ولذلك تساوا جميعا في التأثير بتياراته والسير في ركابه ، وهذا كلام موجز يعوزه التفصيل فلنتناوله بالإيضاح :

المجاورون :

حفلت مصر — على ما عرفنا — بالزوايا التي يقيم فيها ألوف المريدين يعبدون الله على طريقة شيوخهم يستقون العلم والدين من معينهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، فقد كان من لزم آداب المريدين نحو شيخهم أن يؤثروا طاعته ولو كان فيها عصيان لأوامر الدين وتمرد على نواهيه ، ويخفوا إلى تنفيذها ولو أدت إلى طلاق الزوجة وفراق الأولاد ، وإن جهلوا العلة في أوامر الشيخ والحكمة التي أدت إليها ، فإن تردد

المريد في الاستجابة لهذه الأوامر — بالغاً ما بلغ الإجحاف فيها وجب على الشيخ أن يخرج من زاويته ويطرده من رحمته ورضوانه .
وما كان سلطان الشيوخ على المجاور ليقف عند الدين أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى فقد تجاوز ذلك — باسم الدين — إلى الدنيا وشؤونها ، فحرموا عليه الاقدام على عمل أو الشروع في أمر مهم دون استشارة الشيخ والانقياد لمشورته — وإن وضح له فسادها فإن اقترب في دنياه أثماً وجب عليه أن يبادر إلى شيخه وليعترف ، على يديه ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه ، وبذلك أضحى لشيوخ الطريق سلطان على مريديهم لا يقره الاسلام وإن أباحته المسيحية — أو أحله القسس لأنفسهم ^(١) على ما عرفنا من قبل .

على أن قد أشرنا إلى أن المريد كانوا لا يلتزمون العمل بتعاليم الشيوخ إذا انصبت على مقاومة الغرائز رأساً — كمقاومة الملكية وإلغاء الأنانية ونحوها ، ولكنهم كانوا في سائر نواحي الحياة متاعاً للشيوخ ، أو أدوات في أيديهم يسخرونها كما يشاؤون . بل أحقر من الأدوات إذ كانت الحقوق تعوزهم والواجبات تثقلهم فكانوا في زواجهم وتربية عقولهم وتنمية أجسامهم وتهذيب نفوسهم ومعاملة بعضهم لبعض ، وسائر جوانب الحياة خاضعين لأوامر الشيوخ — مالم تتصل بالغرائز اتصالاً مباشراً وثيقاً .

ولكن لماذا نحاول الكشف عن أثر التصوف في توجيه الحياة عند هذا الصنف من المريدين ؟... إن حياته موت يتخلله الكلام والحركة ، كان المجاورون في حاجة إلى الشعور بالعزة والكرامة — وكانت الواجبات تخرج صدورهم وتنقض ظهورهم دون أن يكون لهم حقوق معروفة ، فكانوا بذلك أحط من الحيوان والجماد على ما عرفنا — ولكننا غنينا بالإشارة إلى

(١) أنظر كتابنا عن الشعراني إمام التصوف في عصره عن صلة تعاليمهم بالمسيحية ، وعن نموذج من علاقتهم بالمريدين .

حياتهم في هذا الفصل لأنها كانت «إيحاءاً قوياً» للمتصلين بهم والمتيمين ببركتهم من زوار الزوايا والمتصلين بهم في المساجد والمحتكين لآى سبب من الأسباب ، وعلماء الاجتماع يعرفون أثر الإيحاء في حياة الشعوب .

الأتباع والمحبوبه :

ونريد بهم أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسة وأصحاب الحرف وغيرهم ممن كانوا إذا فرغوا من أعمالهم سارعوا إلى الشيوخ وبجوارهم وسعدوا بالجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم ، والتأثر بتعاليمهم ، وفضوا في ذلك فراغ وقتهم — وما كان أوسع — وكانوا لا يرون في الطريق أحد مدعى الولاية إلا تهافتوا عليه وتزاحموا حوله وتسابقوا إلى تقبيل يديه والتراعى على قدميه .

وقد عرفنا أن الشيوخ قد قسموا مصر إلى مناطق نفوذ ، وأن صاحب المنطقة كان يمنح نفسه الحق في امتلاك أرضها واستغلال غلاتها والاستيلاء على أهلها وكان الناس يسلمون له بهذا الحق راضين مغتبطين ، كما يقول الشيخ الصعيدى والشعرانى وغيرهما — والناس من فرط الخضوع لسلطان الشيوخ يسارعون إلى المساهمة في كل ما ينظمه الشيخ معلنين الرضا به والاعتباط له — ولو كره بعضهم ذلك لعبزه عن الاضطلاع به ، فقد كان التقصير في ذلك — أياً ما كانت أسبابه — « فضيحة » في عرف الناس كما يقول مؤرخو العصر .

لقد كان السفاكون والمجرمون وقطاع الطرق ينقادون للشيوخ ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة على يدهم ويحتملون منهم كثيراً من ضروب العذاب وألوان العقاب ، ويسيرون في مواكبهم في الشوارع مقيدين في السلاسل والأغلال غير شاكين ولا برمين ، كان الشيخ إذا نظري طريقه إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلماً مستغفراً . . . فآية حكومة من حكومات الأرض قد تها لها هذا السلطان ؟ . لانكاد نعرف

نبياولا رسولا تهيأ له نفوذاً أعظم من هذا النفوذ الذى توافر لهؤلاء
الأدعياء... ١

بل ماذا يقول المؤرخ فى وصف المحبة التى انطوت عليها الجماهير لأعظم
الرسل والأنبياء الذين عرفتهم الدنيا فى قديم الزمان أكثر من قول صاحب
النور السافر فى السيد محمد البكرى : « وكان إذا قام من كل مجلس جلس فيه
للتدريس فى الجامع الأزهر أو غيره يتقدم إليه الناس لتقبيل يده والتبرك
بدعائه إلى ذاك والقرب من موضعه الشريف الذى هو موضع الرحمة ، ويقع
بينهم ازدحام عظيم وربما سقط بعضهم تحت أقدام الناس وحوله إذ ذاك
جماعة من جند السلطان الروم (الترك) وغيرهم وقد حلقوا بأيديهم خشية
عليه من الايذاء بالازدحام وربما أخذ واحد منهم بيده الشريفة وهى ممدودة
لتقبيل الناس لطول مدتها لم يذ كان يقف بعد درسه نحواً من ساعة زمانية
ثم يسير الى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه الى أن يصل اليها .
ولا ينبغي قط أن نقول إن هذا شبيه بحب الجماهير لزعماء السياسة فى
وقتنا الحاضر ، فان أكثر استقبالاتهم التى نراها فى السينما أو نقرأ عنها فى
الصحف مدبرة قد نظمها أتباعهم قبل وصولهم إلى مكان الاستقبال ، وأعدل
شاهد على ما نقول أنا كثيراً ما نرى هؤلاء الزعماء أنفسهم يسرون فى
الشوارع وحدهم والناس ينظرون إليهم متهامين مشيرين إليهم قائلين : فلان
باشا ... ولا ازدحام هناك ولا حفاوة ...! وذلك فوق أنهم لا يتصلون بالجماهير
— فى الأغلب والأعم — اتصال هؤلاء المتواضعين ، ولذلك أثره البين فى
تهافت الشعب عليهم وشوقه إلى التطلع إليهم .

بل لقد كان الشيخ يمشى إلى المسكان القفر فيقيم فيه زاوية فسرعان ما
يتهافت عليه الناس ويبادر إليه الفقراء وتقام حوله المساكن تبركاً به ويتمنوا
بمجاورته فإذا المكان القفر عامر... روى صاحب تكميل النور السافر^(١) عن

محمد المنير أنه تسامع نبأ ولد كان في صحبة أمه ومات عطشا جهة بلبس ،
ففضى إلى هذا المكان القفر الذى مات فيه الولد وحفر فيه بئراً وأقام على كذب
منها زواية له ، فسرعان ما أقيمت المساكن حوله وكثر الفقراء عنده فإذا
المكان القفر قرية عامرة وإذا الزاوية ملتحق المعجبين بالشيخ المؤمنين به ،
ومحط الراحلين إلى الفرس والشام وغزه أو العائدين من هذه البلاد
إلى مصر ١٠.

فالنفوذ الذى تهباً لشيوخ الطريق عند المصريين إبان العصر
العثمانى لم يتوافر نفوذ أعظم منه — من قبل ولا من بعد — لزعيم ولا نبى
ولا رسول ١١.

ولقد كان بين المحتفين بهؤلاء الشيوخ الشعراء الذى تعقبوهم في قصائدهم
المتعددة بالمديح والثناء ، والأغنياء الذين اشتد بهم الحب والإيمان فتجردوا
عن أموالهم وما يملكون وحبسوه على الشيخ وذريته ومجاوريه حتى عاشوا
في الترف الذى أسلفنا الحديث عنه ، وحكام البلد الذين يتعالون على الشعب
ولكنهم يخرون سجداً أمام أرباب الطريق ويقومون أثناء زياراتهم للزوايا
بأقل الخدمات لأفقر الفقراء ، وعلماء البلد الذين كانوا يتسامعون بنبأ فقير
يقيم على أبواب المساجد أو في الخرائب المهجورة فيبادرون إلى زيارته
ويقفون أمامه خاشعين حتى يأذن لهم بالجلوس إلى جواره ، فإن ضن
عليهم بذلك وبخل بالالتفات إليهم فترة من الزمن انصرفوا عنه آسفين ... ١١
والمذكرون من هذه الفئات كانوا — فيما يرجح — على إيمان صادق بالتصوف
والخلصين — في عرفهم — من رجاله ، فكان إنكارهم منصباً على أفراد
بعضهم ، وقبلها كان يصادفنا في دراستنا منكر يثير العثير في وجوه المتصوفة
جميعاً ويعلن سخريته بالتصوف وأهله إطلاقاً ...

كان المصريون — خاصة وعامة أسرى الشيوخ وعبيد الإيمان بولايتهم ،

وكانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر — بتعاليمهم ، يتلقونها منهم عقائد تستعبدهم وتسير دفة الأمور في دنياهم ، ولهذا وجب أن نعرف الأثر الذى خلفه التصوف فى نفوسهم ومدى توجيهه لحياتهم ، وذلك بأن نعرض بعض جوانب نظرهم إلى الحياة ونحاول الكشف عن علاقتها بحياة المصريين فى العصر العثمانى وما تلاه من عصور .

أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى وما بعده :

تساوت فى نظرهم شتى العلوم المعروفة فى عهدهم — من دينية ولسانية وعقلية وغربية — فاعتبروا الاشتغال بها انصرافا عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتهجد ، فهاجموها علما علما (١) فكان من أثر هذا الهجوم عند الفقهاء وحملة الشريعة — لا عند عامة الناس فحسب — أن ذهب طالب علم إلى شيخ الإسلام الفتوحى الحنبلى وطلب إليه أن يدرس المنطق على يديه — فقال له الشيخ : يا ولدى قد صار الفقه ثقيلًا على قلبى ، فكيف يعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به ؟ ، فقال له الطالب ، يا مولانا إن العلم عبادة فقال له الشيخ : صحيح ذلك ، ولكن ما وجدنا فى العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه وما أظن أن عندى إخلاصا . ١١٠ ،

ولاشك أن حملاتهم على العلوم كانت ذات أثر كبير فى ثورة الناس على السياسة العلية التى رسمها محمد على باشا بعد انقضاء العصر العثمانى — ومقاومتهم لمدارسه التى انصرفت عنايتها إلى دراسة العلوم الحديثة ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير فى مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير

(١) أنظر ذلك فى الفصل الذى عقدناه عن مذهب الشمرانى فى الحياة العلمية فى كتابنا عنه (الفصل الأول من الكتاب الثالث)

الحديث^(١)، ولا شك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير الدينية في برنامج دراسته، وقد أحس أولو الأمر بما سلبقونه في هذا السبيل من تعصب وضيق فهمدوا لذلك بفتوى وضع صيغتها السيد محمد بيرم بعد أخذ وعطاء بينه وبين شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنابى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد البنا، فقال بعد الديباجة: «ما قولكم رضى الله عنكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات...؟»، فأجاب الإنابى بجواز تعلم هذه العلوم وضرورة العلم بما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وتحريم الاشتغال ببعضها إذا كان على طريقة الفلاسفة.!! ووافق البنا على ما كتب الإنابى، وكان ذلك عام ١٣٠٥ هـ ولم يعمل بهذه الفتوى إلا بعد مضى تسع سنوات أخرى ١٠٠٠^(٢) ولهذا أيضا دلالاته.

والناحية العلمية كانت فيما نرى أقل نواحي الحياة المصرية تأثرا بالتصوف، إذ كان بين القائمين عليها المهيمين على شئونهم ألد من عرف المتصوفة من أعداء، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم أدى إلى ازدحام حلقات دروسهم بمئات الطلاب، وكان بعض المتصوفة يلقون دروسا في رحاب المساجد على طريقة الفقهاء كمحمد البكرى في القرن العاشر، والمناوى في القرن الحادى عشر والبيومى والدردير والشبراوى والحفناوى في القرن الثانى عشر، فأضعف هذا من أثر الداعين للجهالة من أهل التصوف الخالص، وقد ساعد على هذا ما كان يشيعه أعداء المتصوفة من الفقهاء عن زندقة أرباب الطريق وتمردهم على قواعد الدين. على أن ذلك كله لم يمنع من انتصار شايخ الطريق على الفقهاء في أكثر مراحل النزاع القائم بينهم، وهل أدل على ذلك من انتصارهم

(١) تاريخ الأزهر من ٢٥ — ٢٨، وقد أشار إليها جرجى زيدان في تاريخ آداب

اللقنة ج ٤ ص ٣٢

(٢) وصلنى تجارب الملازم الثلاث السابقة وأنا بالمستشفى فنفضل بتصحيح هذه التجارب صدقى الأستاذ جمال الدين الشبال وتليذنى الأستاذة صفية الصحن فلها الشكر الجزيل

على العلماء في أقوى حصونهم وأمنع قلاعهم . في الأزهر ! لقد تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصرفة معاً كالشبراوى + ١١٧١ هـ والعروسي + ١٣٠٨ هـ والحفناوى + ١١٨١ هـ ، فكان لذلك دلالة ومغزاه .

كان هؤلاء الأدعياء — على ما عرفنا — منقسمين إلى معسكرين ، لم يتورع أحدهما عن الدعوة للجهالة جهاراً ، ولم يستح ثانيهما من الاتفاق مع الأول في الجهر باحتقار العلوم الشائعة والدعوة إلى العلم للدنى وحده ، واتفق المعسكران كذلك على تحريم التأويل واحتقار التفكير وإيثار الظاهر على الباطن — لغير أولياء الله — ولا شك أن هذه الدعوة كانت ذات أثر كبير في ركود الحياة العقلية عند المصريين في العصر العثماني ، فتعاون الفقهاء مع أرباب الطريق على إذاعة الدعوة الخطرة وقد ورثتها الأجيال التي أعقبتهم ، فما نزال إلى اليوم نرى الذين يحرمون تأويل الآيات والأحاديث ويهتمون بالزندقة كل من أقدم على ذلك ولو كان من كبار حملة الشريعة ، وقد قاسى الشيخ محمد عبده وغيره من أساطين الدين كثيراً من جراء ذلك .

لا نريد أن نبالغ فنقول إن أرباب الطريق كانوا مبعث الركود الذي شمل العقل وطفى على العلم في العصر العثماني ، فإن الشلل العقلي كان قد أصاب العالم الإسلامي كله منذ عام ١٢٠٠ للميلاد حين انتصر حزب السنة وقضى بتعصبه على حرية العقل وعمل جاداً على خنق الحرية الفكرية كما يقول الأستاذ نيكاسون في الفصل الأخير من كتابه « تاريخ الأدب عند العرب » ^(١) ، ولو أن الحياة العقلية في مصر كانت ناضجة ما استطاع هؤلاء الأدعياء العيش في رحابها والتنفس من نسيمها ، على أن ذلك لا يمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة ، وعملوا على تقويته بتعاليمهم المريضة ، فساهموا بنصيب وافر في الانحلال الذي أصاب العقل المصري إبان العصر

العثماني . ولا سيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامي كله أيام سلاطين المماليك .

فإذا تركنا أثرهم في الحياتين العلمية والعقلية وتبعناه في الحياة الاجتماعية ، عرفنا أنهم في الأغلب والاعم قد صوروا الدنيا في صورة جسر يعبر عليه الانسان إلى آخره — إلى المقام الأبدي والدار الباقية — والعقل من استغل وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات ومواصلة العبادة والاخلاص في الذكر حتى تفنى بشريته وتتصل نفسه بحضرة الله وتنعم في رحابها بما لم ينعم به إنسان ، وتستمد من معينها شتى الهبات التي لا يظفر بها إنس ولا جان ، فأدى بهم هذا التصوير القبيح للدنيا وقيمتها إلى القول بالغاء الملكية واحترام البطالة وإباحة التسول وتحقير ما تنطوى عليه الحياة من لذات وإغراء الناس بتسكف الحزن واصطناع الضيق والسعى إلى مواطن الذل والاعتباط بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شئون العيش والاستهانة بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء .. ألغوا الملكية اعتمادا على أن الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات والأراضين ، هو الباقي وسائر العباد قد وجدوا في الدنيا ليتأهبوا للآخرى ويستعدوا لاستقبال أهوالها .. ! وحصرُوا سعادة الدارين في العبادة والذكر فانتفى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ، فكان من أثر ذلك أن هان في نظرهم السعى في الدنيا لاكتساب المال والسكد في ميادين العمل من أجل الربح للظفر من لذات الحياة بأوفى نصيب ، وساروا في تصورهم إلى نهايته فأباحوا التسول بعد أن استهجنوا السعى وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابهِ ، وإذا كان التسول مباحا محبوبا فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوى عليه من لذات ،

والإنسان فيها يشبه المريض الذى حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر فى هذه الساعة إلا فى الحساب العسير الذى ينتظره ، فكذلك العاقل فى دنياه لا يفكر فى تعليم نفسه أو تحسين معيشته وترقية مستوى حياته لأن ذلك انصراف لآتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة ، والإنسان الذى يعرف مكانته وصلته هو الذى لا يبيت على دينار أبداً ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذى يصرف وقته فى تجارته والزارع الذى ينفق جهده فى زراعته ، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة فى مال فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فאלله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير فى القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذى يحتاجون ، والاخلاص فى العبادة كمفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الحلوة جاهلاً فقيراً ضعيفاً ويخرج منها عالماً واسع العلم ، ثرياً طائلاً الثراء ، قوياً موفوراً القوة . . . ! فحسب الإنسان من حياته العبادة ، والعبادة من مستلزماتها التى لا تستقيم بغيرها الإسراف فى التواضع حتى لتئون على الإنسان كرامته ، وتسقط فى عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التفرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين وبغى المعتدين ، والاعتباط بالذل والهوان ، فإن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله وعقابه للمظلوم على سوء ما قدمت يده ، ولماذا يثور المظلوم فى وجه ظالم ؟ لماذا الخسومة والإنسان لا يملك فى دنياه كثيراً ولا قليلاً . . . ؟ ثم إن الظالم لا يقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو فى غفلة عن ربه ، ولو أنه كان فى يقظه لعرف أن الله يراه ، وأنه يظلم أحد عباد الله ، ولو عرف ذلك لاستحى من ظلمه وكف عنه أسفاً ، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومراثاته منه

إلى سخطه وغضبه (١).

بهذه العين الكليية نظروا إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات ، وحولوا الحياة إلى موت تتخلله الحركة ويشوبه الكلام ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطى الهمة ، وكانوا يستغلون نفوذهم عند الناس وينفثون في المتصلين بهم هذه التعاليم المريضة ، وتلقى المصريون عنهم هذه الآراء كما يتلقى المؤمن المخلص عقائده الدينية فلا يتردد في اعتناقها ولا يبسطه في العمل بها ، فإن ألحت على المصرى حياته بالحيدة عن بعض هذه التعاليم حاد عنها أسفا على عجزه عن التزام العمل بها ، وكان هذا الأسف كفيلا بأن يشيع الفتور في عزيمته ، وكذلك كان أصحاب الحرف الذين أقاموا على أعمالهم رغم اتصالهم بشيوخ الطريق ، بل لعلهم كانوا متأثرين في ذلك بدعوة بعض هؤلاء الشيوخ لاحترام العمل والتفكير من البطالة .

على أساس هذه التعاليم التي أسلفنا الآن إجمالها قامت الحياة الخلقية والعملية والسياسية في مصر ، خف ألوف الدراويش إلى الزوايا عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقتاتون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف الدراويش الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرق ويفهمون الدنيا هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصباً ، وألوف غيرهم يحترفون العمل — ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في تفاهته ، والاحتقار لثمرته ، وإيمان بأن القناعة بالتافه من شئون العيش ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد ساهم بأوفر نصيب في ركود الحياة العملية إبان العصر

(١) اقرأ تفصيل هذه الآراء في كتابنا عن الشعراني في بيان موقفه من الحياة السياسية والعملية والخلقية وهي فصول تعبر عن روح العصر كله ولهذا آثرنا أن نهمل تفصيل هذه الآراء اعتماداً على أن ما كتبناه بصددنا في كتابنا عن الشعراني فيه الكفاية .

العثماني ، فقد كان الذي يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، فكان هذا إيماءً ذا أثر قوى في الركود الذي شمل العصر كله . . .

فاذا تخطينا الزمان وتلمسنا أثر التصوف في حياة الربيفين الحاليين ومن هو في حكمهم من أهل العصر الحاضر بمن تخلفوا عن الزمن الماضي فأخذوا عنه عقولهم واستعاروا منه نفوسهم وعاشوا بها بين ظهرانيها ، وجدنا أنهم لا يزالون يعيشون في الدنيا كما يعيش الحيوان الأعجم ، يقعون ما وجدوا اللقمة التي تسد الرمق ، والرقعة التي تستر العورة ، تمردهم على الحاكم - بالغا ما بلغت قسوته بهم - لا يتجاوز اغتيابه وتركه إلى الله العادل المنتقم الجبار . . .

وسوادهم الأعظم على اعتقاد بأن الشعوب لا يصيبها ظلم ولا يدر كهاضتك إلا كان من غضب الله على كثرة ذنوبها وتعدد آثامها . . . فهو تعالى يعاقبها بهذا الذي تقاسيه في حياتها من مظالم وفظائع . . . أجل لا يزال في الريف من يرون أن تشاحن زعماء السياسة في يومنا الحاضر مظهر من مظاهر غضب الله على المصريين الذين استهانوا بالدين فأهملوا القيام بفروضه . . . وتمردوا على نواحيه ومساهماتهم في الثورة المصرية عام ١٩١٩ لم تكن عن إيمان بضرورتها واعتقاد بحكمة القيام بها - بل كانت عن إيماء قوى أو تقليد لبعض المستنيرين الذين زایلهم التأثير بتعاليم الصوفية في هذا الصدد . . . فهي ثورة ولدتها غريزة التقاليد وحدها . . . (وإن جاز أن يقال إن هذا هذا كان أثراً من آثار الركود والجهل الذي سبق العصر العثماني ، وجب أن يقال إن تصوف هذا العصر قد قواه ومناه) .

والقناعة عند الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف مرض قد استشرى دأؤه واستفحل أمره ووجب العمل على علاجه ، فإن الزمن قد تطور بالناس حتى أصبح التكالب على المادة والضرب في زحمة الحياة لا كسباب المال والظفر بالثراء مفخرة لصاحبه ، تعلی بين الناس قدره وترفع في عيونهم مكانته ، ولا يزال أهل الريف في مصر ومن في حكمهم يعتقدون أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الزهد في طلب الدنيا من مفاخر أصحابه ، والتجار في الريف

والأحياء الوطنية بالمدن يقيمون في حى من الأحياء ويفتحون متجر أبيضون فيه أصنافا معروفة يتجرون بها ، وكثيرا ما تنصرم حياتهم الطويلة دون أن يفكروا في تغيير الحى أو المحل أو زيادة الأصناف التى يتجرون بها، ولا يزال باعة الكتب فى الحى الحسينى بالقاهرة — لا يبيكون فى فتح مكانهم ويهتمون باغلاقها قبل غروب الشمس ، ولعل ذلك أثر من آثار التعاليم الصوفية التى أعلنها الغزالي وأتباعه حين نصحوا التاجر ألا يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه ، وكذلك نقول فى بقية الباعة بهذا الحى وغيره . وإن جاز أن يقال إن هذا من تقاليد الإسلام السابقة على تصوف العصر العثمانى .

وقد تغفلت هذه النظرة فى هذه البيئات وأثرت فى الجاهل منها والمتعلم ، وكان من أثرها البليغ فى المتعلمين من أهل الثقافة الصوفية القديمة ما نراه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبته ، الجغرافيا الاقتصادية ، منذ بضعة أعوام فيقول لهم فى مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله . ! . فهذا الشيخ — عفى الله عنه — يعتبر من نعم الله على المصريين قيام الأجانب عنهم بالشئون المالية فى بلدهم واستحوادهم على شركات المياه والنور والمواصلات ومختلف مرافق الحياة الاقتصادية ، وذلك لكى ينقطع المصريون لعبادة الله فى عصر بلغت فيه زحمة الحياة والتكاليف حدما الأقصى . ! . ! . ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب اذا كانت سيطرة الأجنبي على مرافق الحياة الاقتصادية فى عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمد الانسان ربه من أجلها — الا اذا كان المراد أن يحمد الله الذى لا يحمد على مكروهه سواء . ! . !

والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير فى رد ظلم أو دفع بغى أو ثورة من أجل كرامة ، وقد انحدرت إليهم — فيما يرجع على الظن — نظرة صوفية العصر العثمانى فتغيرت فى مظهرها أو تفاصيلها

ولسكنها بقيت في جوهرها كما كانت أيام العثمانيين (١) لأن تعاليم التصوف تنحدر إلى الناس مع التقاليد التي يرثونها جيلا بعد جيل .

حسبنا الآن هذا فقد طال الحديث ، حسبنا هذا لأن معين الكلام قد نضب ، فان في هذا الميدان متسعا للحديث المستفيض ، ولكن لأن الحديث كلما طال وجب الخوف من الشطط في التقدير والجموح في الاستنتاج ، ولذا ذكر ما قلناه في مستهل هذا الفصل ، من أن هذه المحاولة التي أقدمنا عليها تغرى بالخطأ وتقود إلى مهاوى الزلل ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

إن الحكم على الحياة الاجتماعية عند الشعوب وتعليل ظواهرها ليس أمرا هينا ميسورا ، فربما تبدو الظاهرة بسيطة تحمل تفسيرها لكل من وقف قليلا للتفكير في أمرها ، ومع ذلك فقد تكون معقدة إلى أقصى حدود التعقيد ، وتعليلها الصحيح قد يبلغ مكان الاستحالة عند هذا الباحث ، وأكثر الظواهر الاجتماعية — إذا لم نقل كلها — وليد علل كثيرة تتضافر على وجودها وتتعاون على إظهارها ، ولهذا كان رد الظواهر التي أسلفناها في حياة المصريين إلى التصوف وحده وجعله العلة الوحيدة في قيامها ، أمرا مخفوقا بالخطر ، على أنا لا نملك بعد هذه الدراسة الآن نقول إنه كان أعظم العوامل أثرا في قيام هذه الظواهر ..

ولسكن لماذا نسينا الدين .. ؟ ألم يكن للإسلام نصيبه في توجيه الحياة المصرية إلى هذا الاتجاه الذي عرضناه ؟ ذلك ما ينبغي أن نطيل الحديث فيه ، فان الحياة المصرية كانت إبان العصر العثماني مسوقة بالحضارة الدينية وحدها ، وأريد بها تعاليم الدين وما نسب إليه من آراء ، ولم تساهم في هذا التوجيه المدنية الغربية ولا غيرها من المدينيات ، فقد كانت مصر على ما عرفنا في عزلة إلا عن العالم الإسلامي ، وكان هذا العالم قد أدركه الاضمحلال

(١) تفصيل هذا في الفصل الذي عقدناه على الحياة الخلقية في كتابنا عن الشمراني .

وطبع حضارته في شتى شعوبه ودوله بطابع واحد ، فلم تنفع رحلات العلماء وأرباب الطريق التي انتشرت في هذا العصر كثيرا ، إذ أنعشت الحياة في دوائرها الضيقة ، ولم تخرجها من نطاقها أو تعدل من ظواهرها وتعمل على توجيهها إلى اتجاه جديد . . . والآن إلى الإسلام نشرح موقفه من مختلف مظاهر الحياة الدنيوية :

موقف الإسلام من هذا التوجيه

نتناول الآن نظرة الإسلام إلى الحياة في شتى النواحي التي فصلنا الحديث فيها ، لنعرف أن الدين برىء من أكثر هذه الدعاوى التي بشروا بها وطالبوا الناس بالتزامها ، فكان من أثر ذلك ، هذا الركود الذي شمل الحياة المصرية واستبد بأهلها هذا الزمان الطويل .

الإسلام والحياة العلمية عند أهله :

دعا الإسلام إلى نصب المعلم الذي يقوم بتعليم الناس وإقامة المؤدب الذي يهذب نفوسهم^(١) ، فكان في ذلك احترام للعلم ، قال رسول الله من قال ان للعلم غاية فقد بحسه حقه ووضع في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وقد قال تعالى « انظروا ما في السموات والأرض ، وبسكت المقصرين في النظر فقال « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وأندر الذين عميت عيونهم عن تدبير بدائع الكون فقال « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وقال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، ومن الأحاديث النبوية التي تنطق بتقدير العلم والدعوة

(١) جمال الدين الأفغاني : الإسلام والرد على منتقديه ص ٨٩

له : أفضل العبادة طلب العلم — من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم — الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالماً أو متعلماً — لا خير في الغيش إلا لعالم ناطق أو لسامع واع — وهل تنفع القرآن إلا بالعلم — طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة — طلب العلم من المهد إلى اللحد — ... وقد نادى الاسلام بحرية العلم فلم يحصره في بلد من بلاد الأرض ولا في طائفة من بني الانسان ، وأمر أهله باصطياد شوارده حيثما كانت وأنى وجدت فقال النبي : أطلب العلم ولو بالهين — الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها — خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت ... الى غير ذلك ^(١) .

وتاريخ العالم يقول إن الخلفاء قد أحاطوا بعطفهم العلماء من كل ملة وقد فصل ذلك الأستاذ محمد عبده وأيده بسرد أسماء طائفة من رجال العلم الذين صادفوا في رحاب الخلفاء عطفاً ورعاية ^(٢) وما كان ذلك إلا لأن العقل العربي منذ انطلاقة من قيود الوثنية ودخوله في التوحيد المحمدى قد أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع كما يقول الأستاذ الامام ^(٣) بل إن العلوم العصرية والحقائق الفلسفية تزيد الدين تمكيناً وتضاعف إيمان أهله به كما يقول فريد وجدى ^(٤) .

وقد سار بعض العلماء في هذا الظن الى نهايته ، فقالوا ليس من قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأنسست بشهادة المشاعر وكان لها أثر في ترقية الانسان وتحسين بناء العمران إلا وكانت صدى آية قرآنية أو حديث نبوى

(١) محمد فريد وجدى : المدنية والاسلام من ص ٦٦ — ٦٩ وغيرها من صفحات الكتاب .

(٢) الاسلام والنصرانية من ص ٩ — ١٧

(٣) الاسلام والنصرانية ص ٨٣

(٤) المدنية والاسلام ص ٦

كما أوضح هذا السكواكي^(١) وفريد وجدي^(٢) ومصطفى الغلاييني^(٣) وبذلك أحالوا القرآن الى كتاب جغرافيا وتاريخ . . كما يقول عبد العزيز جاويز^(٤) وعرضوا نصوص الدين الى اضطراب العلم وتناقضه كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين^(٥) .

على أن العلماء كانوا على اتفاق في أن الاسلام ينفر من الجهل ويدعو الى العلم ، وما عادى المسلمون العلم ولا العلم عاداهم ، إلا من يوم انحرفهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرروا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية وضرروا الزمان بسوط من العزة ، كما يقول محمد عبده^(٦) وقد كانت العلوم الحديثة زاهرة إبان مجد الاسلام ولم يرم المسلمون من قرأها بزيغ العقيدة ولا من استمع اليها بالضلالة والكفر ومن كان في شك من ذلك فما عليه الا أن يلقي نظرة على تاريخ القرون الأولى في الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة فسيرى أن جيدها كان مزدانا بسكثير من فحول العلماء الذين نبغوا في العلوم الرياضية والعقلية والطبيعية ووضعوا فيها المؤلفات العظيمة وبشوا فيها التعاليم المفيدة ونشروها في أطراف الأرض قاطبة كما يقول مصطفى بك بيرم مؤيدا لكلامه بالأمثال^(٧) وما ركبت ريح العلوم التي اخترعها المسلمون وبلغت التسعين بعد المائة كما يروى كشف الظنون الا بعد أن صارت السلطة في يد الأعاجم من التتار والمغول الذين عرفوا أن انتشار العلم يعوق مطامعهم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٣

(٢) المدينة والاسلام ص ٤٠

(٣) الاسلام روح المدنية ص ١٩ - ٢٣

(٤) الاسلام دين الفطرة ص ٣٨ - ٣٩

(٥) من بعيد ص ٥٠

(٦) الاسلام والنصرانية ص ١٥٩

(٧) تاريخ الأزهر ص ٢١ - ٢٢

في الاستبداد بالناس فافرغوا الوسع في إطفاء نوره وحصر الرعية في حالك
الجهالة كما يقول السكواكبي (١) ومصطفى بيرم (٢) .

تلك آراء فئة من المحدثين من علماء الاسلام في نظرة الدين إلى الحياة العلمية
بسطناها مؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال التاريخية ، فأين
هذان حملات أرباب الطريق على العلوم المعروفة في عصرهم علما علما ، وعدم
تورعهم عن المفاخرة بالجهالة والسخرية حتى من العلم بأحكام الدين ، وغير
ذلك مما فصلنا الحديث عنه من قبل .

والآن إلى موقف الاسلام من العقل عند أهله .

الاسلام والحياة العقلية عند أهله :

يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين إن الاسلام قد سلك في دعوته إلى
الايان بالله وصفاته من علم وقدره ووحداية مسلكا يثير العقل ، وهو
الدعوة إلى النظر إلى مافي العالم من ظواهر ، « أولم ينظروا في ملكوت
السموات والأرض وما خلق الله من شيء » — « فلينظر الانسان بما خلق ،
« فلينظر الانسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ،
فانبثقا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا
لكم ولأنعامكم ، — « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون » — « ان في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك ، — « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٧ و ٤٣

(٢) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

وألوانكم، الى كثير من أمثال هذا — وهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر وكان له أثر في نمو الحياة العقلية (١) وقد روى الأستاذ فريد وجدى عن النبي أحاديث نبوية منها: أن الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له — يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتهم عنه... — وقد أثنى قوم على رجل عند النبي وبالغوا في الثناء فقال كيف عقل الرجل...؟ قالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ان الأحقق يصيب بجله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم (٢).

وقد قال جمال الدين الأفغانى إن من الأمور التى تتم بها سعادة الأمم أن تبنى العقائد على البراهين القوية والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى العقول مطالعة الظنون في عقائدها وترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء وذلك مادعاليه الدين (٣) ومن دلائل هذه الدعوة ما نراه في أصول الاسلام التى ذكرها محمد عبده وعبد العزيز جاويش والتى كان أخطرها شأننا اعتبار النظر العقلى وسيلة لتحصيل الإيمان (٤) فكان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام قائما على ما أباحه لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه وعبروه بالأحكام العامة التى قررها الشرع (٥) وقد جعل الله لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ومن اجتهد فأصاب أجرين كما يقول الأستاذ جاويش، ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكير — فهل من مذكر — أى هل من طالب علم منه ومتفهم له...؟ وقد قبح الدين تقليد الآباء ومحاكاة الأجداد كما ذهب محمد عبده (٦)

(١) فجر الاسلام ص ١٦٩ — ١٧٠

(٢) المدينة والاسلام ص ٦٤ — ٦٥

(٣) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٣

(٦) الاسلام والرد على منتقديه ص ٥، الاسلام والنصرانية ص ١٣٦

وعبد العزيز جاويز^(١) وجمال الدين الأفغانى^(٢) وغيرهم ، وقد ألبس القرآن الجامدين عار الجوده ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ، — مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ،^(٣) .

ومن أصول الاسلام التى كان لها أكبر الأثر فى نشاط الحياة العقلية ، تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض كما يقول محمد عبده^(٤) وعبد العزيز جاويز^(٥) ثم عدم التقيد بما قاله رسول الله من معاش الدنيا على سبيل رأى^(٦) وما كان ذلك بغريب فان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسبح به فى شعاب الأرض ويصعد به إلى طبقات السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف له سرا من أسرارهِ فى خليفته أو يبسط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع العلوم مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع ماتريد ، فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ربحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولسكنه سار سير التدرج^(٧) وقد سلب الاسلام من رجال الدين كل مظاهر السلطان الذى يحد من طلاقة العقل ويقيده من سعة النظر ولم يخصهم بتأويل نصوص ولا غيره مما يؤدى إلى ركود الحياة العقلية عند الناس كما يقول محمد عبده^(٨) والسكوا كى^(٩)

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٥٤ ، ١٠٥

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٣) » » » » ص ٩٦

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٦) نفس المصدر والصفحة

(٧) الاسلام والنصرانية ص ١١١٨

(٨) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ و ٩٥ ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ و ٦١ و ٦٣

(٩) طبائع الاستبداد ص ٢٩

وعبد العزيز جاويز^(١) ومصطفى بيرم^(٢) وغيرهم ، حتى الرسول ، لا ينبغي التقيد بما قال في شئون الدنيا إذا كان من رأيه ، ففي الحديث . . . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأنما أنا بشر ، وذلك لأن وظيفة الرسل قائمة على إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة والعدل والأخلاق الفاضلة^(٣) ولهذا ترى القرآن يصرح في وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين وجعل السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم بالأحوال الماضية واستعداد للنظر فيها والارتفاع بما وصل إليه من آثارها في السكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين »^(٤) في الحق ليس في طبيعة الإسلام ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي ، ولك أن تقرأ القرآن وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث فلن تجد نصا أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلا أو كثيرا — كما يقول أستاذنا الكبير طه حسين^(٥) .

تملك طبيعة الإسلام وهذه هي نظراته إلى تربية العقل وتنمية المدارك ، فأين هذا بالله من حملات أرباب الطريق على التفكير وتحريمهم التأويل ومهاجمتهم النظر في ظواهر الأرض والسماء وتبشيرهم بقداسة الآباء والأجداد ودعواهم بأن عام ٩٢٣ هـ (بداية الفتح العثماني) كان نهاية العلم والنظر واعتبار الفلاح في الطريق غاية لا يبلغها المرید ما لم يتحول إلى أداة مسخرة في يد شيخه . . إلى غير ذلك مما أسهبنا بيانه فيما سبق . والآن إلى موقف الإسلام من مقاومة الظلمة من الحكام والدعوة إلى التزود بأخلاق الأقوياء والتبشير

(١) الإسلام دين الفطرة ص ١٠٥

(٢) تاريخ الأزهر ص ٥٦ — ٥٧

(٣) الإسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٤) الإسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ (٥) من بعيد ص ٢٢٠

بالكد في ميادين العمل المشروع ، لنرى الهوة السحيقة بين تعاليمه وآراء هؤلاء
الأدعياء .

الاسلام والحياة المدنية

سارت الدعوة إلى الدنيا مع الدعوة إلى الأخرى جنباً إلى جنب في الكتاب
والسنة ، قال تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل بكم قالوا خيراً للذين أحسنوا
في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتانا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن النبي أنه قال : أعمل لدنياك
كأنك تعيش أبداً ولا آخرتك كأنك تموت غداً — وفي حديث ثان : ليس
خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه
وهذه — وفي حديث ثالث : أصلحوا دنياكم وأعملوا لآخرتكم كأنكم
تموتون غداً — وغير ذلك مما رواه الأستاذ فريد وجدى ^(١) وقد ذهب الأستاذ
محمد عبده إلى أن من أصول الاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فان
النبي لم يقل : بع ما تملك واتبعني — بل قال لمن استشاره فيما يتصدق به من
ماله . (الثلث والثلث كثير انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم
عالة يتكففون الناس) . فالحياة في الاسلام مقدمة على الدين ولهذا يجوز
الاسلام للمؤمنين ترك الصيام إذا خيف منه المرض أو المشقة بل أوجب
إهماله أن غلب على الظن الضرر فيه ، وكذلك أباح إهمال الوضوء والغسل
إذا خشى الانسان منهما الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل المال ، كما أباح
الصلاة قعوداً إذا أصابت المصلي مشقة من قيامه ، وكما يجوز صلاة الجمعة في
البيت إذا منع عن السعي إلى صلاة الجماعة في المسجد وحل غزير أو مطر كثير
أو مشقة .. وهكذا نجد القاعدة في الاسلام : صحة الأبدان مقدمة على صحة
الآديان وأباح الاسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع
بالمشتبهات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود

(١) في كتابه المدنية والاسلام

الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية قال تعالى : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، ووضع الاسلام قانونا للاتفاق وحفظ المال في قوله : إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ونهى الدين عن الغلو في طلب الآخرة مخافة أن يهلك ديناه وينسى نفسه فذكرنا بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله في الحياة الدنيا فقال : وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، وبذلك نرى أن الاسلام لم يبخل الحواس حقها كما هبأ الروح لبلوغ كمالها كما يقول محمد عبده (١) ، وقد قال عبدالعزيز جاويز أن الاسلام لا يلزم الناس بما ذكره الرسول من معاش الدنيا على سبيل الرأي (٢) وروى الشيخ الغلابي أن « الامام مالك » يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص لأن الله إنما شرع لمنفعة العباد (٣) وقال الأستاذ الجليل أحمد بك أمين : إن الشارع — كما قالوا — يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال ولو استقرينا أوامر الشرع ونواهيه لوجدناها تعدى هذه الأمور ولو وفقنا في معرفة ما حمله الشرع أو حرمه لوجدنا عنته كذلك ... (٤) وبهذا كانت الدعوة للعمل فرضا يلزم به الاسلام عنق كل مسلم قادر عليه كما يقول محمد عبده (٥) وأضحى للسكدة والعمل والمال نصيب موفور في رسالة الاسلام قال النبي : أفضل

(١) الاسلام والنصرانية ص ٧٤ — ٧٧

(٢) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٣) الاسلام روح المدنية ص ٣٩ — ٤٤

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧

(٥) رسالة التوحيد في « الدين الاسلامي »

الأعمال السكسب الحلال - طلب الحلال فريضة على كل مسلم - من سعى على عياله من حله فهو كالجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء - سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه - نعم المال الصالح للرجل الصالح - إن الله يعطي العبد على قدر همته ونهيمته - من جد وجد ولكل مجتهد نصيب - سافروا تصحوا وتغنموا - التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم - وقال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة - ولقد كان الصحابة - والاسلام في إبان مجده - يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم . . إلى آخر ما يرويه الأستاذ فريد وجدي في تأييد هذه الدعوى (١) .

هذا هو موقف الاسلام من الدنيا وهذه هي نظرتة إلى العمل والكسب من أجلها والظفر منها بأوفى نصيب في حدود شريعته ، فأين هذا بالله من الصورة الهزيلة التي رسمها للدنيا أرباب الطريق ؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد في نعيمها واحتقار لذاتها واصطناع الخوف وتكلف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرغ للتهجد والتبشير بالبطالة والعيش على إحسان الناس وإباحة التسول وإلغاء الملكية وكره المال والمفاخرة بدوام البعد عنه وسف التراب وضرب النفس بالسياط وقيام الليل وقضاء النهار كله في ادعاء العبادة وتحريم السفر على التاجر متى وجد اللقمة التي يسد بها رمقه والخرقه التي يستر بها عورته . . إلى غير ذلك مما أسلفنا بيانه ؟ أين تعاليم الاسلام من هذه الآراء المريضة التي بشر بها هؤلاء الأدعياء باسم الدين . ؟ لقد انتبه الأستاذ الإمام إلى أن الدعوة للبطالة وفشو السكسل بين المسلمين كان من أثر الدعوة التي قام بها من فسد من المتصوفة (٢) - فكانت هذه ملاحظة قيمة لم يفتن إليها غيره من الكتاب الذين قرأناهم في هذا الصدد .

(١) في كتابه سالف الذكر

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٣٨

وقد صوروا الإسلام في صورة دعوة إلى الفضائل السلبية التي تصلح للعيش في جو كله دعة ورخاء وأمان ، وقبحوا الفضائل التي يتسم بها الأقوياء الراغبون في كفاح الحياة الصالحون لنضال البقاء ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما استطاع العرب في إبان مجده أن يشبوا هذه الوثبة الجريئة التي أخرجتهم من جزيرتهم وهيأت لهم في القليل من الزمن طريق السيادة على أعظم دولتين عرفهما التاريخ الوسيط هما الدولتان : البيزنطية والفارسية ، ولم تكن تعاليم الاسلام قد اهتدى الفساد اليها فأثبت الاسلام بذلك أنه دين الدنيا والآخرة معا ، وأنه دعوة جريئة إلى العمل والغزو والسيادة وليس دين الذلة والهوان الذي دعى اليه هؤلاء الدجالون حين قالوا إن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله والتمرد عليه تمرد على حكم الله لأن الظالم أداة الله في عقاب الناس ... إلى آخر هذا الهذر الذي عرفناه من قبل ، ولو كان الاسلام كما صوروه لما قبل عمر أن يقول له اعرابي جلف : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ... ولما رأينا المستنيرين من أئمة الدين أول من يتمرد على الظالمين من الحكم ويشيرون العثير في وجوه الطغاة والمستبدين ، وما عهد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده والسيد توفيق البكري عنا ببعيد ، بل لقد عرفنا في أواخر العصر العثماني من العلماء الذين يحسنون فهم دينهم ولا يتوانون عن الثورة على الحاكم متى قصر في أداء مهمته ، وكان من هؤلاء الدردير والحفناوى وابن النقيب وغيرهم ...

ولقد كان وجه الخطر في دعوة هؤلاء الدجالين أنهم تواروا وراء الدين واستغلوا سداجة الناس وأدخلوا في وهمهم أن آراءهم صفوة الدين وخلاصته ، فأمن الناس بهم وتلقوا عنهم هذه التعاليم عقائد لا يأتيتها الباطل في حكم أو رأى فكان لها بالغ الأثر في توجيه الحياة عندهم والاتحاد بهم إلى هذا الاضمحلال الذي استغله المبشرون في الهجوم على الدين الاسلامي .

ومن هذا الذي أفضنا في بيانه نستطيع أن نقرر بأن تعلق المصريين بالاسلام في العصر العثماني لم يكن هو الذي انحدر بهم إلى هذا الركود الذي

استبد بهم وأفسد شتى نواحي حياتهم ، وإنما كان ذلك من أثر الدعوات الباطلة التي انطلقت في المصريين وكان للمتصوفة فيها أعظم قسط وأوفر نصيب .

وإننا لنحمد للنهضة الحديثة تهيتها الجو للكشف عن بطلان هذه المزاعم وتحذيرنا من الخطر الذي يهددنا من وراء هذه التعاليم المريضة ، ومعرفة الهوة السحيقة التي تفصل بينها وبين تعاليم الاسلام الصحيحة ، فانا في عصر لا يعرف الرحمة ولا يحترم إلا القوة والحديد والنار ، والشعوب تخطئ كثيرا حين تقتصر على الاعتماد في جهادها على رحمة السماء فان السماء لا تحابي ضعيفا ولا قويا ، وإنما تترك الخلائق في صراعها ، والبقاء للأصلح والغلبة للأقوى ، وتواكل الشعوب لا ينجيها من زحمة النضال وسباق الحياة وإنما هو أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها وتسليمها في وجودها وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق

• • •

هذا هو موقف الإسلام من تعاليم المتصوفة ، ومنه نرى أن الاسلام لم يساهم في الانحدار بالحياة المصرية إلى هذا الاضمحلال ولم يشترك في توجيهها إلى هذا الركود الذي رأيناه .

ومن الخير أن نقول الآن إن الشعوب في تطورها إلى النضج والكمال وانحدارها إلى الركود والاضمحلال لا تخضع لعامل واحد وإنما تسير — فيما يلوح من تاريخ التطور — مسوقة بعدة تيارات وحركات لكل منها نصيبه في هذا التوجيه ، ومثل هذه الدراسات شاق على أهله ، فليس في وسع الباحث أن يحدد تحديدا رياضيا مدى ما كان للتصوف من أثر في توجيه الحياة المصرية ، لأن ذلك لا يقاس بمقياس ولا يكال بمكيال ولا يوزن بميزان ، ولهذا كان الكلام فيه — بالغاما بلغت قوته — عرضة للعجز عن مقاومة معاول الهدم إن سعت إلى هدمه وانجذبت إلى تحطيمه . . .

كلمة خاطفة عن :

مصادر الكتاب *

التصوف في هذا العصر موضوع بكر لم يتعرض لدراسته أحد الباحثين من قبل ، وقد تساوى في إهماله المستشرقون والشرقيون — قدماء ومحدثون ، ولهذا قلت استعانتى بالمستشرقين فيما سلف من فصول الكتاب ، وإن لم يمنعنى انصرافهم عن الموضوع الذى أدرسه من قراءة الكثير من أبحاثهم التى تناولت التصوف فى الإسلام ، فاطلعت على الكثير مما كتبه نيكلسون وماكدونالد وماسينيون وكوبولانى ولين وفولارز وكارادى فو وغيرهم ، كما غنيت بقراءة الكتب التى وضعها الشرقيون عن التصوف عامة فى غير العصر الذى أدرسه رغبة فى العلم بالتصوف عامة والافادة من ذلك فى تصور الموضوع الذى أدرسه وفهمه على أكمل وجه مستطاع .

أما المحدثون من الشرقيين الذين عرضوا للكتابة عن بعض نواحي التصوف فى هذا العصر فقد كانوا على قلتهم يستعينون بمصادر فى وسعى الرجوع إليها لأنها ما زالت تحت تصرف الباحث وفى متناول يده ، فاعتمادى على كتاباتهم لا يبرره البحث العملى الصحيح ولا سيما إذا عرفنا أنهم يخطئون النقل والفهم والاستنتاج كما وضع لنا من كتابات جرجى زيدان وتوفيق البكرى ، وهذا فوق أنهم كانوا فى الجملة لا يتناولون ناحية فى التصوف بالدراسة المفصلة أو الموجزة ولكنهم كانوا يعرضون لأفكار تتصل به فيصدرون أحكاما سطحية لا يبررها الواقع ولا ترضى عنها الدراسة العلمية المنظمة .

وعلى هذا فالباحث فى موضوع التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى مضطر إلى الرجوع للمصادر الأولى — أى التى كتبها أهل العصر العثمانى وعالجوا

* من المفيد جدا الاطلاع على ما كتبناه عن المصادر فى كتابنا «الشعرانى إمام التصوف فى عصره» ص ١٥٥ وما بعدها لمعرفة أخطاء المستشرقين وفهارس دور الكتب بصدها

فيها شئونهم بالطريقة التي بدت لهم ، وقد كانت طريقتهم في ذلك لا تخرج كثيرا ولا قليلا عن طريقة الفقهاء والكتاب من الشرقيين في هذا العصر وما قبله ، وشر ما فيها سرد المعلومات التي لا تؤلف بينها وحدة في الفكر ولا تلازمها دقة في البحث وان كانت تمد القارىء بمادة قيمة وزاد دسم .

ولقد شاع بين الناشرين والمهتمين بالعلم من أهل الأجيال التي أعقبت العصر العثماني أن مصر قد أصابها في هذا العهد اضمحلال شاع في كيانها وتغلغل في شتى نواحي حياتها وشوه العلم في رؤوس أهلها ، فأدى هذا الى انصراف أهل العلم عن نشر المؤلفات التي كتبت في هذا العصر مؤثرين الاهتمام بنشر الكتب التي وضعت في العصور السابقة حين كانت الحياة أدنى إلى الازدهار والحالة العلمية أقرب إلى النضج والنشاط ، وما علموا أنهم بذلك يزدون العصر ظلما .

فأما الكتب التي صادقتها العناية ووجدت من يقوم بطبعها فقد خرجت من المطابع حافلة بالأخطاء التي دلت على جهل الناشرين وكشفت عن مقصدهم من وراء طبعها ، ولم يكن شيئا آخر الا الربح — وقد حملني هذا على ترك الكثير من هذه الكتب المطبوعة والرجوع إلى أصلها المخطوط رغم ما في ذلك من مشقة تبدو في رداءة الخط وصعوبة الاطلاع على المخطوطات داخل الدار . فاما المصنفات التي بقيت مخطوطة فقد حفظتها لنا دار الكتب المصرية إلى يومنا الحاضر والكثير منها بخط أصحابها ولكن بقاءها إلى اليوم لا يبرر الاعتماد عليها من غير حذر ، فان الدقة كانت تعوز مؤلفيها في كل فكرة تناولوها على وجه التقريب ومعرفة هذا ضرورة لمعرفة العصر على حقيقته . على أن ذلك لا يحظ من دار الكتب لأنها غير مسئولة عن أوزار غيرها وحسبها أنها قامت على حراسة هذه المخطوطات طوال هذه الأجيال ، ولشد ما يتولاني الروح ويشيع في كيانى الجزع كلما تصورت ضررا حاق بهذه الدار وأنى على ما فيها من مخطوطات — لا قدر الله — وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع كفيلا بتوجيه نظر الناشرين إلى قيمة هذه المخطوطات التي حوتها الدار .

على أن الدار لم تقم بواجبها إزاء هذا العلم الذى تضمنه بين جدرانها ، ومن دلالات تقصيرها الذى تحمل وحدها تبعته ، ما نراه فى نسخ المکتب ، فقد كلفت الناسخين بالإكثار من نسخ بعض المخطوطات ولكنها لم تشترط فيهم أن يكونوا على علم يمكنهم من أداء هذه المهمة بشئ من الدقة والمهارة ، فجاءت المکتب التى نسخوها نموذجاً لرداءة الخط وقبح الأخطاء .

وفهّارس الدار فى حاجة إلى نظام جديد يكفل للباحثين سهولة البحث ويخفف عنهم بعض مشقاته وذلك فوق أن الفهارس الحاضرة مليئة بالأخطاء والكتاب الواحد له فيها أسماء قد تبلغ الخمسة ، وسبيل البحث فيها ملتو يستغرق الكثير من الوقت ولا يضمن العثور على المطلوب ، وقد وجدت فى أثناء بحثى فى هذه الفهارس وإعداد ثبت بعدد النسخ الموجودة لكل كتاب ، أن الكتاب الواحد قد تكون له نسخ فى فهرس للتصوف ونسخ أخرى ذكرت أرقامها فى فهرس ثان وثالث وبذلك لا يسهل على الباحث أن يعرف جميع نسخ الكتاب الواحد الا إذا تصفح فهرس الدار كلها ١٠٠

على أن الدار مع هذا النقص كله تسد حاجة الباحث وتشبع نهيمته متى أوتى الصبر واحتمل المشقات وكان بحثه منصبا على دراسات إسلامية - وقد كتبت عن التصوف فى هذا العصر الحالك فى ظلامه دون أن تصادفنى فيه حلقة مفقودة فقد وجدت فتراته كلها من يؤرخها ويسهب فى بيان الحياة فيها وإن كانت عصور الاضمحلال تجرى فى شتى مراحلها على نمط واحد ، والتمایز فيها ضعيف لا يكاد يحس وقد لاحظت أن كتاب هذا العصر فى كل مرحله كانوا يستقون علمهم عن الشعراى أو يرجعون اليه يأخذون عنه كثيرا فى كتبهم وان كان أكثرهم لا يشير الى ذلك .

ورغم هذا فقد اغتبطت بتعدد المصادر فى فترات العصر كلها اذ كان بعضها يمتاز بمادة لا تتوافر فى غيره وكان العلم بها ضروريا فى الكشف عن بعض آفاق المجهول من هذا العصر ، فى كتاب (تحفة السالكين ودلالة السائرین للسمنودى) مثلا أجزاء كاملة مسروقة من كتاب لواقح الأنوار

القدسية في بيان قواعد الصوفية للشعراني ، ورغم هذه السرقة التي لم يشر اليها السمنود في كتابه فقد زود القارىء ببيانات عن حياة الفقراء في رحاب الزوايا وغير ذلك لم أعثر عليه في كتاب آخر للشعراني أو غيره .

ورحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) تضمنت معلومات عن الزوايا والأضرحة وغيرها تعوز المصادر الأخرى التي اطلعت عليها — فتعدد المصادر حتى في عصور الاضمحلال — التي من شأنها أن تسير على نمط واحد ولا يكون بين مراحلها تمايز — خير عظيم ينبغي أن يغتبط له الباحث ويسر به .

وحسبي الآن أن أقول في الدلالة على وفرة المصادر في العصر كله ، أن الفترة التي سبقت العصر العثماني في مصر رجعت فيها الى المقرئى والقله شندى وبعض الخصى مين كاشعراني وابن آياس وأما القرن الأول من العصر العثماني (العاشر الهجرى) فقد أوضح جوانب الحياة فيه الشعراني بمؤلفاته المتعددة وابن إياس وصاحب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة (٣ أجزاء) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر والسنا الباهر بتكميل النور السافر ورسائل السيد محمد البكرى وغير ذلك كثير .

فأما القرن الحادى عشر الهجرى فقد كتب فيه عبد الرؤوف المناوى مصنفات كثيرة خيرها طبقاته الكبرى والصغرى ثم عبد الغنى النابلسى الذى زار مصر عام ١١١٠ وترك لنا رحلته القيمة من بعض الوجوه والمحجى صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأجزائه الأربعة وغير هؤلاء كثير . فاما القرن الثانى عشر فحسبه الجبرتي والحفناوى واليومى ومصطفى البكرى والمليجي والمرادى (صاحب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر) وغيرهم كثيرون

على أن الظاهرة التي سادت مؤلفى هذا العصر وشاعت في مختلف كتبهم وشتى مصنفاتهم هي السذاجة ، وقد كان روح العصر يبرر وجودها ، وليس أدل على ذلك من أن تكون كتب المناقب خير زاد للطاعنين في أهل هذه المناقب بل لانظن ظاهرة أدل على هذه السذاجة من العجز عن تحليل أبسط الظواهر وأنفها — وقدم بنا الكثير من الأمثلة التي تشهد بهذا في مختلف فصول الكتاب

كتب المؤلف

١ - تأليفاً :

١ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني : نشرته مكتبة الآداب في أغسطس ١٩٤٦ .

٢ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : صدر في سلسلة الجمعية الفلسفية في أكتوبر ١٩٤٥ .

٣ - الاسلام (بحث مقارنة) : نشرته مكتبة الآداب في سبتمبر ١٩٤٥ .

٤ - الشعراني إمام التصوف في عصره : صدر في سلسلة أعلام الاسلام في أغسطس ١٩٤٥ .

٥ - قصة الكشف بين روما وقرطاجنة : نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعدت مكتبة الآداب طبعه في فبراير ١٩٤٦ .

٦ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : تحت الطبع

ب - ترجمة :

٧ - تراث الاسلام

: نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في أكتوبر ١٩٣٦ (للدولف فيه ترجمة الجزء الذي وضعه ا . جيوم عن الفلاسفة والالهيات - مع التعاليق عليه) .

: وضعه شيشرون ونشرت ترجمته العربية مكتبة الآداب في فبراير ١٩٤٦ .

: وضعه سدجويك أستاذ الفلسفة الحاقية في جامعة كامبردج وسيظهر في جزئين بعد .

٨ - علم الغيب في العالم القديم

٩ - تاريخ علم الأخلاق

DATE DUE

FEB 15 2005

JUL 15 2005

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038496453

893.7991
T1983

DEC 20 1961

